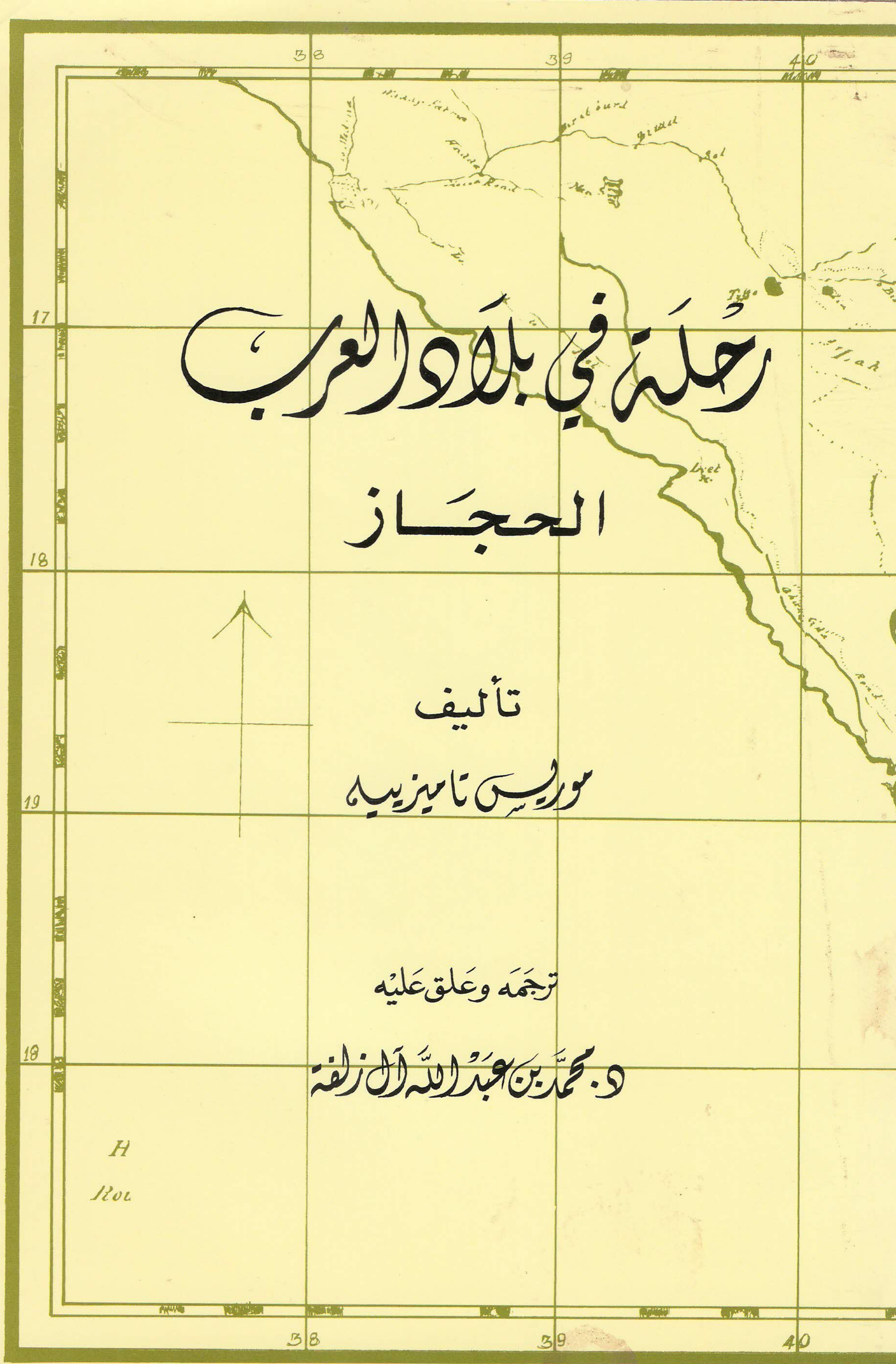


رحلة في بلاد العرب

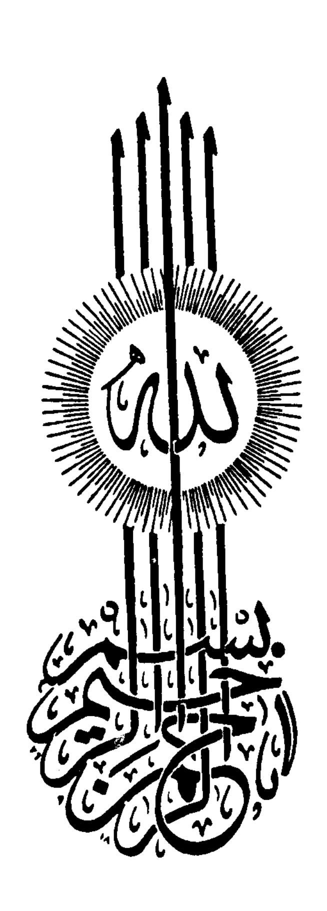
الحجاز

تأليف

موريس تاميزيه

ترجمه وعلق عليه

د. محمد بن عبدالله آل زلفة





رحلة في بلاد العرب

الحجاز

تأليف

موريس تاميزيه

ترجمه وعلق عليه

د. محمد بن عبد الله آل زلفة

دار بلاد العرب للنشر والتوزيع

١٤٢١هـ / ٢٠٠١م

(ح) محمد بن عبدالله آل زلفة، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد أثناء النشر

تاميزييه، موريس

رحلة في بلاد العرب: الحجاز/ ترجمة محمد بن عبدالله

آل زلفة .. الرياض

٣٤٢ ص ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٠- ٦٠٩ - ٣٨ - ٩٩٦٠

١- الحجاز- وصف ورحلات أ. آل زلفة، محمد بن عبدالله (مترجم)

ب - العنوان

ديوي ٩١٥٫٣١٢٠٤ ٢١/٤٢٣٦

رقم الإيداع: ٢١/٤٢٣٦

ردمك: ٠- ٦٠٩ - ٣٨ - ٩٩٦٠

دار بلاد العرب للنشر والتوزيع

ص . ب ٨٨٧٠٧ الرياض ١١٦٧٢

المملكة العربية السعودية

المحتويـات



المقدمــة

في عـام ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م طبـعت الجـزء الثـاني من كـتـاب الـرحـالة الفـرنسي مـوريس تاميـزييـه بعنوان "رحلة في بلاد العـرب، الحـملة المصـرية على عـسيـر ١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م". وأشـرت في مـقـدمـة تلك الطبـعـة إلى الأسباب التي جعلتني أبدأ بالجزء الثاني قبل الأول، إذ أن ذلك الجـزء يمثل مصدراً مهما اعتمدت عليه في إعداد رسالتي للماجستير التي كانت بعنوان "أثر دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب على مقاومة منطقة عسير للغزو العثماني المصري للجزيرة العربية ١٨١١ - ١٨٤٠م".

وتعود أهمية هذا الكتاب إلى أن المؤلف الرحالة موريس تاميـزييـه، كان أحـد المرافقين لواحدة من أكبـر الحمـلات المصـرية على عـسيـر في عـام ١٢٤٩هـ / ١٨٣٤م، وسجل وقائع تلك الحملة بدقة، ولهذا اعتبـرته من أهم المصـادر، ليس لتسـجيـل وقـائع الحـملة فـقط، ولكن لما اشـتـمل عليـه من معلومات سياسية وجغرافية واقتصادية واجتماعية قل العثور عليها في أي مصدر آخر عن تلك الفترة.

وأشـرت في مقدمة تلك الطبعة إلى قصة التعرف على هذا الكتاب منذ سنوات بعيـدة، ثم قـصـة البـحث عنه أثناء وجـودي في بعـثـة دراسـيـة في الولايات المتحـدة الأمـريكيـة، ومن ثم الكيـفيـة التي جـرت ترجـمتـه من لغتـه الأصلية وهي الفـرنسـيـة إلى الإنجليـزية، ومن ثم قيـامي بتـرجـمتـه من اللغـة

الأخيرة إلى العربية.

كما أشرت إلى أنني لم أهمل القسم الأول أو الجزء الأول من هذا الكتاب الذي يسرد فيه المؤلف الرحالة قصة تحركه مع الوحدة العسكرية التي كان مرافقاً لها من القاهرة إلى يوم وصوله إلى الطائف، ومن ثم تحركه مرافقاً للحملة العسكرية التي انطلقت نحو عسير، إذ كانت بداية الجزء الثاني من هذا الكتاب الذي تم نشره في عام١٤١٤/١٩٩٣م.

منذ الوهلة الأولى من طباعة الجزء الثاني والإخوة الزملاء والقراء يلحون عليَّ لإكمال ترجمة الجزء الأول وتقديمه إلى القارئ، لكي تكتمل الفائدة من عمل يعد واحداً من أعمال الرحالة الرائدة عن الجزيرة العربية في فترة من أهم فتراتها التاريخية.

وكنت أقدر للإخوة الذين يلحون علي، اهتمامهم وليتهم يعرفون أنني أكثر وأشد حرصاً منهم على إكمال هذا العمل، لولا كثير من الظروف وازدحام برنامجي العملي الأكاديمي الذي كان يأخذ جل وقتي، لكن ومع ذلك فلم يغب عن بالي الرغبة الصادقة في تقديم الجزء الأول من هذا الكتاب إلى قراء العربية، ولأجل هذا لم أدع فرصة تمر أجد فيها فسحة من أداء عمل آخر إلا وهبتها لهذا العمل. وذلك على فترات متباعدة، إذ كنت أجد نفسي في كثير من الأحيان مضطراً إلى الأنقطاع عنه فترات أثرت على خروجه في وقت أكثر تبكيراً وأكثر قرباً من خروج الجزء الثاني.

إن هذا الجزء من الكتاب يحمل عنواناً فرعياً إلى جانب العنوان الرئيس "رحلة في بلاد العرب" وهو " التوقف في الحجاز " Sejour Dans Le Hed-jaz . تغطي فصوله رحلة شاقة وممتعة لشاب فرنسي لم يتجاوز الثانية

والعشرين من عمره يتطلع إلى اكتشاف عالم الشرق على طريقته، ولعل الشاعر الشاب الفرنسي رامبو قرأ رحلة مواطنه موريس تاميزييه الذي سبقه في اكتشاف منطقة حوض البحر الأحمر بأكثر من خمسين سنة، فسار على نهجه. والاثنان في سن متقاربة يجمعهما حب المغامرة والاكتشاف، وتفرقهما الاهتمامات والاتجاهات.

فتاميزييه مع حداثة سنه رحالة مكتشف من الطراز الأول. يظهر هذا جلياً فيما تركه لنا من آثار تظهر بشكل واضح في كتبه التي ألفها عن غرب الجزيرة العربية وحوض البحر الأحمر والحبشة. بينما الثاني - وهو شاب لم يتجاوز العشرين سنة من عمره - كان شاعراً بائساً وتاجراً فاشلاً، لكنه كسب في الفترة الأخيرة شهرة فاقت شهرة مواطنه تاميزييه، ربما بسبب معرفة تفاصيل أكثر عن حياة هذا الشاعر البائس، وما أولاه الأدباء من اهتمام، بينما معرفتنا عن الرحالة تاميزييه المتعدد المواهب ما زالت قليلة جداً.

وليس هذا مجالاً للمقارنة بين حياة وآثار شابين فرنسيين قاما برحلة في فترات مختلفة للجزء الغربي والجنوبي من الجزيرة العربية وما زلنا نجهل من حياتيهما أكثر مما نعلم.

سجل لنا رحالتنا موريس تاميزييه رحلته الشاقة والممتعة على شكل يوميات منذ اليوم الأول لبداية رحلته من القاهرة، وهو اليوم التاسع من شهر ديسمبر ١٨٣٣م، إلى اليوم السابع والعشرين من شهر يونيو من عام١٨٣٤م وهو يوم مغادرته الطائف مرافقاً للحملة على عسير بقيادة أحمد باشا ابن أخت محمد علي باشا حاكم مصر.

تحدث عن رحلته البرية من القاهرة إلى السويس، ثم رحلته البحرية التي سرد تفاصيلها بشكل ممتع منذ مغادرة السويس إلى حين وصوله إلى مدينة جدة مروراً بمعظم موانئ البحر الأحمر، مع إعطاء وصف ممتع مفيد لتلك الموانئ التي توقف فيها ومر عليها.

ثم يفرد لمدينة - جدة المدينة التي أدهشته - عدداً من فصول كتابه هذا، تعد من أدق وأمتع ما كتب عن تلك المدينة في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، إذ تعرض للبدايات الأولى لتاريخ نشوء المدينة والقصص والأساطير التي يتداولها الناس حول هذا الموضوع. ثم يتحدث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتركيبة السكانية لمدينة جدة وكذلك العمرانية بشكل مذهل وجذاب وبروح حيادية.

بعد ذلك يتحدث عن انتقال المعسكر الذي ينتمي إليه إلى حدة ثم إلى بحرة حينما ضاق سكان مدينة جدة بهم ذرعاً، ثم يتحدث عن آثار مدينة جدة وعلاقة السكان بالجند، ويفرد فصلاً مفيداً عن ما سجله عن مكة المكرمة معتمداً على ما كتبه الرحالة المشهور لويس بوركهارت الذي سبق رحالتنا في زيارة الحجاز بحوالي عشرين سنة.

وتناول بشكل مثير قصة رحلة الحملة من جدة إلى الطائف متحدثاً عن قبائل قريش وهذيل وعتيبة وعلاقة الإنسان في الجزيرة العربية بالحصان العربي الأصيل وبالجمل، مفصلاً أنواع الخيول الأصيلة، وكذلك الجمال أنواعها ومواطنها وطبائعها وعلاقتها بالإنسان في الجزيرة العربية. ثم يفرد فصلاً ممتعاً وتاريخاً دقيقاً لمدينة الطائف وآثارها وعمرانها وسكانها.

إن هذا العمل بمجمله يعد من الأعمال الممتعة والشيقة، والثرية - في

الوقت نفسه - بالمعلومات الاجتماعية والاقتصادية والسكانية والسياسية للحجاز خلال هذه الفترة، وهي معلومات قصرت مصادرنا ومراجعنا التقليدية عن كتابتها.

آمل أن يكون ما قدمته للقارىء العزيز إضافة إلى رصيده المعرفي عن هذا الجزء الحبيب من بلادنا في فترة حرجة ومهمة من تاريخه أهملها المؤرخون المحليون وغيرهم؛ إذ تمكن رحالتنا من رسم ملامحها مفصلة من خلال ما يشبه العدسة اللاقطة لكل ما شاهده وسمعه وعاشه.

د . محمد بن عبدالله آل زلفة

جامعة الملك سعود



الفصل الأول

٩ / ديسمبر / ١٨٣٣ م

في خلال هذه الفترة على وجه التحديد يقوم الحجاج القادمون من سواحل شمال أفريقيا، وكل الجزر المنتشرة على سواحل البحر الأبيض المتوسط، وسوريا والأناضول بالتوجه في طريقهم نحو القاهرة، بغرض الانضمام إلى قافلة الحجيج الكبرى التي سوف تقوم في غضون بضعة أيام، بأخذ طريقها متجهة إلى مكة. وقد كان من الواجبات الرسمية حمل العباءة السوداء[١] التي ظل الباشا، طوال هذه السنوات الماضية، يعهد بها إلى أمير الحج، إلى تلك المدينة المقدسة[٢].

وفي نهاية رحلة يوم واحد يتوقف ذلك الطابور الطويل من الجمال، وتناخ بالمنطقة الريفية المجاورة للقاهرة عبر بوابة العيد (باب النصر)[٣] لكنها،

---

(١) يقصد المؤلف بالعباءة السوداء كسوة الكعبة ذات اللون الأسود (المترجم).

(٢) أمير الحج هو "أمير الحجيج" وهو الاسم الذي يطلق على الشخص المناطة به مهمة قيادة هذه القافلة الدينية وإيصالها إلى وجهتها المقصودة. (المؤلف).

(٣) للحصول على تفاصيل أكثر عن هذه البوابة يجب الرجوع إلى كتاب "وصف مدينة القاهرة والمناطق المحيطة بها" وهو مرجع ممتاز تم نشره بواسطة م. جمار - (المجلد الأول - باريس ١٨٢٩م). مؤلف هذا الكتاب من أبرز الجغرافيين الفرنسيين الذين رافقوا حملة نابليون على مصر، وظل بمصر بعد رحيل القوات الفرنسية، وله مؤلفات وبحوث عده عن جغرافية مصر ومدينة القاهرة منها الكتاب الذي أشار إليه مؤلف الرحلة. وقد قام الدكتور أيمن السيد بترجمته إلى اللغة العربية وللمؤلف أبحاث عن جغرافية الجزيرة=

وبدلاً من أن تتخذ لنفسها مكاناً حول الخيمة الخضراء الخاصة برئيس بعثة الحج، قامت بمواصلة سيرها قُدماً لتخيم في "عصوة"، وهي مكان للتوقف يقع بين القاهرة وصحراء السويس. مع ملاحظة أن هذه القافلة قد كانت فريدة بصورة واضحة، لأنها كانت تضم أوربيين، أي أنها مكونة من مسيحيين. وقد كان مجرد وجودهم فقط كافياً لإغضاب الروح العقائدية وإثارتها لهذا الجمع المحتشد. مع ذلك، فإذا كنا نحن الكفرة ليست لدينا رسالة دينية، فما زالت لدينا الروح الخيرة، إذ كانت هذه البعثة مكونة في أغلبها من أطباء كانت مهمتهم مراقبة صحة قافلة الحجيج المرسلة إلى الحجاز من قبل محمد علي.

١٠ / ديسمبر / ١٨٣٣م

عادة ما تقضي قافلة الجمال هذه ثلاثة أيام في عبور الصحراء التي تفصل ما بين القاهرة والسويس. وقد بدأنا مسيرتنا في الصباح الباكر، عند طلوع الشمس، وواصلنا سيرنا باستمرار حتى المساء(١). وعند نقطة التوقف تم إنزال الأحمال عن الجمال، حيث تمت تسويتها على الأرض، وقام قادتها بإطعامها بعض الحبوب، وأحياناً بعض الكميات البسيطة من التبن(٢). وانطلق أولئك الرجال يجمعون بعض الأغصان الجافة، ثم أشعلوا ناراً تجمعوا حولها جميعاً في شكل دائرة. وهنا يقومون بإعداد خبزهم،

= العربية من أشهرها جغرافية نجد الذي قمت بنشره على حلقات لم تكتمل في جريدة الجزيرة الصادرة في الرياض، كما أن له بحثاً مطولاً عن جغرافية عسير يعد مثل سابقه من البحوث المهمة والرائدة. نشر البحثان في باريس عام ١٨٢٨م (المترجم).

(١) أي "المغرب" والتي تعني مغيب الشمس.

(٢) يورد تاميزييه هنا العبارة العربية "الحشيش"، وقد أشار إليها في صدر مذكرته "كنوع من القش أو التبن". (المترجم).

ويتناولون طعامهم بطريقة مبسطة تميل إلى التقشف لدرجة يمكن أن يتأفف منها حتى الناسك.

وبعد مواصلة رحلتهم يوماً كاملاً، صاح حُداة الإبل منادين بالتوقف للمبيت حتى الصباح بأحد المواقع، أملاً منهم في العثور على بعض النباتات والحشائش لإطعام رواحلهم. أما بالنسبة لي، ونتيجة للمشاق التي عانيت منها، والتي كانت أول تجربة لي من هذا النوع، فقد دلفت إلى خيمتي وأنا أعاني من حمى خفيفة، لم تحل دون استغراقي سريعاً في سبات عميق.

١١ / ديسمبر / ١٨٣٣م

كان هذا اليوم تحديداً قد بدأ عند بزوغ الفجر تقريباً وتم سريعاً طي الخيام وحملت الإبل بأحمالها. وعندما كنا نواصل سيرنا، وعند حوالي منتصف النهار، ظهر من بعيد طيف لشكلين مميزين قام رفاقنا من البدو بالتعرف عليهما؛ إذ قالا: إنهما اثنان من الأعراب الراكبين على اثنين من الجمال العربية. وقام الشيخ المسؤول عن مجموعتنا بالعمل على إرسال مجموعة استطلاعية، وعندما عادت من مهمتها تم نصحنا بمواصلة التقدم في مسيرتنا وبتشكيلنا العادي لحين وصول هؤلاء الغرباء، فاستفسرت قائلاً: "كيف يتسنى لك التأكد من أن هؤلاء الرجال ليسوا من رفاقك أبناء المنطقة؟" إن منظر جمالهم وطريقة سيرها تختلف للغاية عن تلك التي تتميز بها جمالنا، أضف إلى ذلك أن طريقة تحركهم تؤكد لي بصورة قاطعة أن ما يبدو عليها من تعب ما هو إلا نتيجة لمسيرة طويلة، أي أن من المفترض أنها قد قطعت في سيرها مسافة طويلة.

وعلق أحد الشباب من حداة الإبل قائلاً: هؤلاء الرجال من بدو جبل سيناء. "اسكت ودعنا من افتراضاتك أيها الأخ الصغير، هل تعتقد أن أعيننا

أقل في قوة إبصارها من عينيك لأننا نحمل لحية بيضاء خطها المشيب ؟" رد الرجل المسن.

"لقد أوضحت فقط ما كان يتراءى لي يا أبتاه، لكنني لم أكن أقصد من ذلك السخرية ممن هم أكبر مني سناً ".

"هل صرت أنت إلى هذا الحد الذي لا يمكنك فيه مجرد التمييز ما بين المعزة والبقرة ؟ ألا تعلم أن هؤلاء الرجال هم في طريقهم من الحجاز وأنهم يمتطون جمالهم البشارية[1] الأصيلة ؟".

وخلال لحظات قليلة وصل هؤلاء الرجال، وكانوا بوصولهم هذا قد وضعوا حداً لهذه المجادلة. ولم يكن الشيخ مخطئا قط".

نتمنى أن يحفظكم الله ويسدد خطاكم طوال رحلتكم ! هكذا قالوا عند وصولهم إلينا. "نتمنى من العلي القدير أن يهيئ لكم الشيء نفسه يا إخوتي" رد عليهم الشيخ". وأعتقد بلا شك أنه، حسبما يبدو من مظهر جمالكم البشارية، أنها تعاني كثيراً من التعب والجهد ".

"إنهما الاثنان من سلالة إبل سواكن، لكنهما لم يتعودا بعد على هذا الجري المتواصل". صوّب الشيخ نظرة حادة نحو راكب الجمل الصغير، فطأطأ الأخير رأسه وظل صامتا.

"هل تعلم إذا ما كان محمد[2] موجوداً الآن بالقاهرة أم الإسكندرية؟"

---

(١) يقطن البشاريون في المنطقة المحيطة بسواكن. وقد اشتهرت جمالهم وصارت معروفة بصورة واسعة بأنها سريعة وكأنها قطار راجل. (المؤلف).

(٢) البدو لا يذكرون الألقاب أبداً، فقد اعتادوا أن ينادوا الأشخاص المهمين، عادة بأسمائهم فقط دون أن يضيفوا إليها ألقابهم أو مناصبهم. وقد قصد الأعرابي من كلمة محمد الاستفسار عن محمد علي باشا. (المؤلف).

استفسر أحد الغرباء.

"أعتقد أنه موجود بالقاهرة " رد الشيخ.

"حسنا جداً، فقد جئنا من مكة وقد حمَّلنا الشريف الكبير وعهد إلينا برسائل خاصة وذات أهمية قصوى".

"نحن الآن أمام حملة الرسائل الثرثارين "همس أحد قادة الإبل الكبار السن.

"يجب أن يعترف الشخص بأنهم نادراً ما كانوا ملائمين لمهمة الحفاظ على الأمور ذات الطابع السري. وبالتأكيد فإنه ليس بهذه الطريقة يتحدث الرجال بصورة مكشوفة عن الأمور التي ائتمنوا عليها ؟" أجاب واحد آخر.

"البدو لا يفشون سراً أبداً، عدا تلك الأشياء التي يقصدون من ورائها ابتلاعك للطعم " رد واحد ثالث " أنا أعتقد أنهما جاسوسان مرسلان من قبل أكبر زعماء مكة بغرض تحريك الأوضاع واستطلاعها في مصر".

"حتى لو كان ذلك، ماذا يهم الأمر في نهاية المطاف ؟" فحتى لو تم تعقب صاحبنا المخادع[1] بوساطة إخوانه من عرب الحجاز، فإننا سوف نحصل على الميزات نفسها والفوائد التي يمكن أن يحصلوا عليها".

"اسكتوا أيها الإخوة "صاح الشيخ مخاطبا قادة الإبل" وواصلوا سيركم حثيثاً باتجاه السويس". ثم استدار موجها حديثه إلى الغرباء: "كم مضى عليكم من الزمن منذ غادرتم مكة ؟ " حوالي خمسة وعشرين يوماً". " لقد قمتم بإنجاز رائع، هل أنتم بحاجة إلى شيء من الماء أو المؤن؟

(١) كان محمد علي باشا يتحمل من البدو المصريين بشيء من الملل ذلك النوع من الخضوع والانصياع للسلطة الملكية الحاكمة. (المؤلف).

"دعنا نعيد ملء قربنا من الماء[1] وعندها ستكون كافية حتى تلك اللحظة التي نصل فيها إلى القاهرة. ونتمنى أن يهيئ لك الله سبحانه وتعالى من يقوم بمكافأتك على هذا الشعور الكريم الذي قمت به نحونا في ظروف مماثلة".

لقد ارتبط كرم البدو بطريقة تماثل نبعاً قامت العناية الإلهية بحفره في قلب الصحراء.

وحيث تمت تلبية احتياجاتهم، فقد افترق الطرفان وكل منهما راض تمام الرضا عن الآخر.

"ألق نظرة من ورائك " هكذا قال الرجل المسن لصاحبه الأصغر سناً، والذي ثبت خطؤه،" وتأكد جيداً من شكل إخوانك من أهل الحجاز ومظهرهم، حتى لا تقوم مرة أخرى بالخلط بينهم وبين سكان الجبال من أهالي سيناء".

١٢ / ديسمبر / ١٨٣٣م

تتكون الصحراء المتدة من القاهرة وحتى سيناء من سطح رخو يعد أكثر ملاءمة لخط السكة الحديدية. ويبدو من المجدي، ولو مرحلياً، الشروع في إيجاد وسائل للتنقل من خلال وسيلة المركبات التي تجرها الخيول[2] فلو كان بمقدور باشا مصر تخليص نفسه من تعنصره أو تحيزه، لغدا من

---

(١) الكلمة العربية لهذا الإناء الجلدي هي كلمة "زمزمية". هناك فرق بين القربة المصنوعة من الجلد وتلك الزمزمية المصنوعة من مادة مختلفة تشبه الخيش المقوى الذي لا يترك مجالاً لتسرب الماء، وربما اشتق اسمها "زمزمية" من ماء زمزم (المترجم).

(٢) منذ عودتي يقال إن هناك شركة إنجليزية قد رتبت بهذا الموقع خدمة منتظمة من المركبات من النوع السائد نفسه في أوربا. (المؤلف).

الأيسر نقل كل التبادلات التجارية مع كل من الهند وأوريا عبر منطقة نفوذه، والتي سوف تتطور لاحقاً لتصبح واحدة من أهم المواقع على نطاق العالم.

وسوف تستعيد كل من القاهرة والإسكندرية تلك الحالة السابقة من الثراء والازدهار التي تسبب اكتشاف رأس الرجاء الصالح في حرمانهما منها. إضافة إلى ذلك، فإن العثمانيين يستحقون اللوم لإهمالهم لذلك القنال، الذي كان يقوم سابقاً بالربط مباشرة بين نهر النيل والبحر الأحمر، الذي ردمته الرمال، وسوف يقومون بإعادة الاعتبار لأنفسهم في نظر عالمي الشرق والغرب، عن طريق إعادة تشييد تلك المنافذ المغلقة. بحيث تكون حركة المرور في عالم عصر البخار الذي سيجعل النقل أكثر سرعة وأكثر انتظاماً وأقل تكلفة.

كانت قافلتنا تغذ السير لمسافة طويلة عندما لاحظ أحد البدو الذين كانوا قد سبقونا، والذي كان يشغل نفسه بالعجين، أنه كان هناك رجلان يرقبانه من على مسافة بعيدة، وكانا يبدوان وكأنهما يخوضان في جدل بعضهما مع بعض. وقد نكص البدوي راجعاً ليحيط الشيخ علماً بما يدور. "هل لديك أية وسائل على الإطلاق تستطيع أن تكشف من خلالها عمن يكون هؤلاء الرجال؟ " سأله الشيخ، "لا، فملابسهما غريبة، وهي لا تشبه ملابس من يقطنون هذه الأماكن. "هل يسيران على أرجلهما أم يمتطيان خيولاً ؟" يسيران على أقدامهما ". "رجلان في قلب الصحراء، هما بالتأكيد ليسا وحدهما، وهذا أمر يبدو مثيراً للريبة، وعليه فمن اللازم بالنسبة لي أن أقوم باستجلاء الأمر".

غادر اثنان من الخيالة وهما يتجهان صوب الدخان الذي كان يتصاعد من النيران التي كان صديقهما قد أشعلها. وغابا عن أنظارنا لبرهة من الزمن لكنهما عادا إلى الأنظار مرة أخرى وهما يقودان اثنين من السجناء الذين اتضح، بمجرد ظهورهما لنا، أنهما من الفلاحين المصريين.

"يا أصدقائي - قال الشيخ -" كيف تصادف وجودكما هائمين على وجهيكما هنا وسط الصحراء، وعلى مسافة بعيدة للغاية عن كل المناطق المأهولة ؟ إن الفلاحين[١]، كما تعلمون جيداً، هم كأفراس البحر التي لا غنى لها عن الماء، ولا يمكن أن يدير الواحد منهم ظهره طوعاً ويبتعد من تلقاء نفسه عن ضفاف النيل".

"ولكننا لم نُدِرْ ظهرنا طوعاً لنجد أنفسنا في هذا المكان".

"إذن دعونا نحكم، وعليكما ألا تقوما لحظة بإخفاء الحقيقة الكاملة عنا".

"واحسرتاه " - أجاب أحدهما - " نحن نعمل في خدمة أحد كبار تجار القاهرة الأثرياء الذي يمتلك متجراً كبيراً ومعروفاً في بازار الخليل[٢] وقبل أربعة أيام غادر مع حريمه قاصداً الحج إلى مكة، وقد سررنا كثيراً لاصطحاب سيدنا لنا وهو يغادر في هذه الرحلة المقدسة. وفي اليوم الثالث كان من المفترض وصولنا إلى السويس، وبسبب التعب الذي أصابنا أثناء مواصلة الرحلة، فقد تم إركابنا على جمل، ولم يحل سيره المتمهل، وهو يتهادى بنا، دون ذهابنا في نوم عميق. وكانت الشمس قد أشرقت، عندها

(١) اسم " فلاح" هو الاسم الذي تم نقله بواسطة تاميزيه على أساس أنه الاسم الذي يطلق عادة على المزارع المصري. (المترجم).

(٢) هذا هو اسم أحد بازارات القاهرة. لعله يقصد خان الخليلي (المترجم).

أيقظتنا حرارتها من نومنا، حيث اكتشفنا ونحن في حالة من الذعر والهلع بأننا قد صرنا لوحدنا وقد كان البعير الذي نركب عليه يمضغ أغصان الأشجار بكل اطمئنان عند تلك البقعة التي لم نعثر فيها لرفاقنا على أثر.

"وما الذي حصل لراحلتكما ؟".

"سبق أن نزلنا عنها بغرض الصلاة والتضرع إلى الله كي يحفظنا ويكتب لنا السلامة على طريقنا، وكنا نعتقد بأنه قد تمت الاستجابة لتضرعاتنا، عندما شاهدنا بعض الرجال الراكبين على الجمال وهم يقتربون منا. وكنا على وشك التقدم نحوهم عندما اكتشفنا، لدهشتنا، بأننا قد وقعنا في أيدي إحدى عصابات اللصوص الذين قاموا بسلب راحلتنا، وتركونا ونحن بهذه الحالة التي وجدتمونا عليها. ومع ذلك فلم يحاولوا قتلنا، كما أنهم قاموا بتوضيح الاتجاه الذي يتوجب علينا السير فيه حتى نصل إلى وجهتنا المقصودة. وبالفعل قمنا باتباع ذلك الطريق عندما لاحظنا أحد أعمدة الدخان. وفي اللحظة التي كنا نتردد فيها في الاقتراب منه، استدار البدو التابعون لكم ليسببوا لنا مزيداً من القلق. وبعدها قام خيالتكم بإلقاء القبض علينا، ومن ثم أحضرونا هنا أمامكم".

"كان من الممكن أن تكون روايتكما مقنعة لو كانت حقيقة بكاملها، لكنني أجد لدى بعض الأسباب الخاصة التي تدفعني إلى الشك فيها".

"ما السبب الذي يدفعك إلى عدم تصديقها ؟.

"النقطة موضوع الاستغراب هي لحيتاكما".

"لكننا، واحسرتاه، لا نملك شيئاً من هذا القبيل".

"وما الذي جعلكما محرومين أو فاقدين لهذا المظهر الذي يميزنا كرجال؟".

"إنها عصابة اللصوص التي قامت بنزعها كعلامة على منتهى ازدرائهم واحتقارهم لنا".

"كان الحلاق موجوداً ليقوم بكل ذلك خلال هذه العجالة المريحة، إن روايتكما خادعة ولا أساس لها من الصحة.

إن الذئاب التي تجبر على الوقوع في المصيدة في الغابات يجب أن تحمل على أكتافها تلك العلامات الدالة على سقوطها، بينما أنتم وبدون أية لحى على الإطلاق مما يعني أنكما قد خضعتما لنير محمد علي، فأنتما تحملون شوارب الجنود(1)، الشيء الذي يعني - في حقيقة الأمر - أنكما هاربان من الخدمة العسكرية. وعليه فإنني أقرر القبض عليكما واعتباركم سجناء، وسوف يتم تسليمكما للحاكم المسؤول لدى الباشا بمجرد وصولنا للسويس".

وعند سماع كل ذلك بدت على ملامح الفلاحين كل علامات الذهول. وفجأة قام الرجل الذي لم ينطق منهما بكلمة واحدة حتى هذه اللحظة بالخروج عن صمته وعبر عن نفسه بالطريقة الآتية:

"إن الحقيقة مطابقة تماماً لما ذكرته يا أبتاه، إن زميلي هو الذي أدلى لك بهذه الرواية العارية من الصحة. فعلاً لقد تم اقتيادنا للسير في حملة كانت متجهة من القاهرة ضمن الفيلق السادس عشر الذي كنا ننتمي إليه. إن المأساة الكامنة في فقداننا لحريتنا هي التي جعلتنا نتخذ القرار بالهرب، وقبل أن ينفض المخيم خبأنا أنفسنا بينما تركنا أسلحتنا بداخل خيمتنا. وحتى لا يتم التعرف علينا لاحقاً، تخلصنا من زِيِّنا العسكري، الذي كان

(1) من المعروف أن محمد علي باشا منذ إنشاء جيشه النظامي على الطريقة الأوروبية قد أمر الجنود بحلق لحاهم والحفاظ على شواربهم، وقد ووجه هذا الإجراء في بدايته بالرفض من قبل الكثير من العسكر لكنهم أجبروا على التنفيذ (المترجم).

سوف يكشف عنا، وصرنا نرتدي، منذ ذلك الحين، هذه القمصان العادية. ولم نذق طعاماً أو شراباً منذ الليلة قبل الماضية، وكدنا نموت من الجوع والعطش عندما خاطرنا بالتحرك نحوكم أملاً في أن تقدموا لنا معروفاً. وبما أننا قد سلمنا أنفسنا لكم طوعاً، فأرجوا ألا يكون ذلك من دواعي إحباطنا".

تأثر الأوربيون الموجودون ضمن القافلة كثيراً بهذه الرواية، فقاموا بوضعهم تحت حمايتهم ووعدوهم بتأمين الحصول على عفو من الكولونيل.

كان السيد شديفو يحمل معه بعض خطابات التوصية من القاهرة لأحد تجار السويس، والذي كانت لديه الرغبة في دعوتنا، نحن الأوربيين جميعاً، لتناول طعام الغداء. وقد قدم لنا العديد من أنواع الطعام الشهية بداخل غرفة سفرة على درجة عالية من الزخرف، لكن صاحب الدار لم يكن لديه أدنى تفكير في الجلوس إلى جانبنا. فهل يمكن أن يكون ذلك نوعاً من التواضع الذي فطر عليه أم يكون تزمتاً واضحاً ؟ ولا يسعني أن أدلي بإجابة قاطعة عن هذا الشيء. وقد اشتملت الوجبة نفسها على العديد من الأطباق الصغيرة.

أما بالنسبة للماء الذي شربناه، فقد كان من مياه الأمطار الصرفة، وقد تم تجميعه في خزانات مياه أو صهاريج، وبدا لنا ممتازاً بالمقارنة مع ذلك الذي شربناه في الصحراء. وكان من المقرر أن يقوم التاجر بتجهيز مركب لكي نبحر على ظهرها وعلى نفقة الباشا. ووعدنا بأن يقوم بتزويدنا بأفضل نوعية من سفن الإبحار وأرقاها وأن يضعها تحت قيادة قبطان غاية في المهارة والخبرة وإشرافه. وقد أكد لنا أنه سوف يقوم بتخصيصها لنا

فقط، وأنه سوف لن يسمح لأي حاج آخر بالصعود على متنها. ولسوف نرى بعد قليل لأي مدى سوف يستمر هذا الرجل المحترم في مواصلة الوفاء بعهوده البراقة التي قطعها على نفسه.

وصلنا في ذلك المساء نفسه إلى السويس. وفي اليوم التالي عاد الهاربون للانضمام مرة أخرى إلى رفاقهم، دون أن يتم إجبارهم على الخضوع لأي نوع من العقوبة. ويمكن للمرء أن يتخيل مدى العداء والنفور الذي شعر به هؤلاء الفلاحون في مواجهة الخدمة العسكرية، خاصة عندما توضع في الاعتبار الأخطار المحدقة بهم من النوع نفسه، والتي يتعين عليهم التعرض لها مع تلك الناجمة عن المحاولة اليائسة التي قاموا بها لتأمين حريتهم.

١٨ / ديسمبر / ١٨٣٣م

قمنا قبل المغيب بطي خيامنا، وقامت إحدى المراكب الشراعية، التي يقوم بسحبها ستة من الرجال الأقوياء، بنقلنا إلى طرف السفينة التي أعدت لتوصيلنا إلى جدة.

كان الاسم الذي تحمله الباخرة التي كنا موعودين بها هو " أبو جاموس" (الاسم القديم لفرس البحر)، وبدءاً من مرشديها إلى حبال مرساتها، كان من السهل على الشخص أن يلحظ أن لها مظهراً خارجياً رشيقاً كالحيوان الذي سميت باسمه، والذي كان مناسباً بالنسبة لها.

وعند اقترابنا منها سمعنا همسات من الأصوات الخافتة وغير المميزة، وعند وصولنا بالفعل إلى جانب المركب، وأثناء محاولتي إلقاء نظرة فوق سطحها، لاحظت عراكاً شرساً يحدث بين الحجاج، وأن الرجال والنساء

والأطفال يتكومون بعضهم إلى جانب بعض في وضع مشابه تماماً للسردين المعبأ في علبة.

بنيت المركب بطريقة كئيبة وقاتمة، كما تبين من داخلها، وقد احتشد الحجاج بداخلها في كل مكان وفي ازدحام شديد. وقد اتضح من خلال ذلك أن كلا الوعدين اللذين قطعهما لنا التاجر لم يتم - إلا فيما يندر - الوفاء بهما بدقة. ودعنا الآن نرى - في آخر المطاف - ما إذا كان القبطان يشكل انطباعاً أفضل بالنسبة لنا أم لا.

ولقد شاهدته الآن وهو يجلس على السطح المطل والبارز من المركب، إذ كان أي أحد يمتلك الجرأة للإشارة إليه بهذا المعنى، وكان رجلاً يبلغ حوالي الخامسة والأربعين من عمره، وكان يحظى بنظرة محترمة، مع أنها لم تكن مقنعة. ولم يخطر ببالي قط أنه من الممكن أن يكون قبطان[(١)] الباخرة. ومع ذلك قدم نفسه على هذا الأساس، وترك لدي انطباعاً بأن ذلك من الأمور التي لا يمكن السماح بحدوث جدل حولها. فاقتربت منه واكتشفت أنه أعور. وقد كانت عينه الأخرى غارقة بالدماء، ومغطاة بشريط يشكل بقعة بيضاء. ولا يمكنه إلا نادراً أن يرى بها صورة أفضل من مثيلتها الأولى.

بالإضافة إلى القبطان، كانت على كل المراكب العربية العاملة ما بين السويس وجدة ملاح. وعليه، اعتزمت مقابلته لكي أتعرف على التزامي الذي يمكن أن يكون متعلقاً بالرسوم.

وانتهزت فرصة للحديث مع أحد البحارة الذي كان متقدماً في سنه، وطلبت منه أن يدلني على مكان الريان[(٢)].

---

(١) الاسم العربي لكلمة قبطان، الواردة في النص الأساسي، هو كلمة "ريس". (المترجم).

(٢) هكذا يطلق تاميزييه على ملاح السفينة الاسم العربي وهو كلمة "ريان". (المترجم).

فرد قائلاً: "إنك تتحدث إليه الآن فهو أنا".

"أنا جِدٌّ راضٍ للقيام بهذه الرحلة على تلك الباخرة التي تتولى أنت زمامها، ولقد اقتنعت من مظهرك بأنك تمتلك خبرة جيدة في شؤون الملاحة البحرية".

"يمكن للشخص أن يثرثر كثيراً بأنه يجيد حرفته، وذلك دون أن يخدش إحساسه بالتواضع".

"أنا لم يراودني الشك في ذلك لحظة واحدة". "سوف تتأكد أكثر من ذلك عندما تعلم أن ستة من السفن التي قد كانت تحت إمرتي قد جنحت في عدة مرات. وعندما يكون للرجل ذلك النوع من الخبرة، فلا بد أن يكون رجلاً متمرساً في مهنته".

"إذا كان صحيحاً مقارنة البحارة بساسة الخيول، فإن الواحد منهم يحتاج لكي يكتسب مهارة الثبات على صهوة جواده، بأن يكون قد وقع عنها عدة مرات. ويجب أن تكون قد تدربت جيداً، على تقدير الأمور أكثر من أغلب الآخرين، فإذا كنت قادراً على أن تكافح ضد خطر سابغ يمكن أن يحدث "لأبو جاموس"، فإنني سأكون مديناً لك بالكثير من كل قلبي".

"الله كريم" كانت تلك إجابته الوحيدة. "الله عظيم"

لقد كان لزملائي في هذه الرحلة احتياطاتهم، لكنه قد بدا ملائماً، وبطريقة شبه متساوية، أن نكيِّفَ أنفسنا ونتعود على "أبو جاموس" وقبطانها وملاحها. والشيء الغريب أنهم قاموا برفض حمل ركاب محددين لكنهم قاموا مرة أخرى بالتسلل خلسة في جنح الظلام أثناء ساعات الليل، وقام الملاحون بترتيب إخفائهم في أسفل المراكب ومن تحت الأمتعة. في ذلك المساء استفدنا من المد العالي للخروج من القنال. وقامت "أبو جاموس" بإلقاء مرساتها في عرض البحر وعلى عمق ستين قدماً من تحتنا.

١٩ / ديسمبر / ١٨٣٣م

حاول البحارة خلال الليل إيجاد نوع من إعادة الترتيب والتنظيم وسط هذه الحشود المتكدسة. وفي الصباح أطلقوا العنان لأشرعتهم، وظللنا طوال النهار نجوب بمحاذاة السواحل الآسيوية، تدفعنا نسمة رياح بسيطة من أقصى الشمال الشرقي. ومررنا "بعيون موسى" (النبي موسى عليه السلام)، وهي بئر محفورة بمهارة، عرف النبي اليهودي كيف يجعلها وفيرة في الإمداد بالماء عندما كان يقوم بممارسة المهمة التمهيدية لذلك بصحبة العاملين لديه.

بعد ذلك درنا بنجاح من أمام "حمام فرعون" (المكان الذي كان يستحم فيه فرعون) الذي كان يحتوي على نبع دافئ، وعندها شرعنا في إلقاء مراسينا قبالة الساحل، وعلى مياه بلغ عمقها حوالي خمس قامات (ثلاثون قدماً) وهي محمية من الرياح بواسطة جبل شاهق كانت أكثر أجزائه انخفاضاً ملتصقة تماماً بالبحر.

٢٠ / ديسمبر / ١٨٣٣م

علمنا أن العرب لا يبحرون خلال الليل وذلك لخشيتهم من المياه الضحلة والأخطار التي لا حصر لها، والتي توجد في كل مكان من البحر الأحمر. وعلى امتداد الساحل توجد هناك العديد من نقاط التوقف المعروفة بالنسبة لملاحي السفن، وهي من أنواع الخانات بالنسبة للمسافرين، حيث يتم التأكد من وجود ملاذ تلجأ إليه السفن خلال الليل، وحيث ينام البحارة خلال الليل، فلن يكونوا بحاجة للنوم خلال ساعات النهار، وبالتالي يكون التخطيط لوضع مقصورة في مقدمة السفينة للنوم شيئاً لا ضرورة له مطلقاً.

ولقد لازمتنا تلك الرياح نفسها التي صحبتنا اليوم المنصرم. وطوال تلك الفترة بكاملها كنا نبحر عبر ذلك الجزء من البحر الأحمر، الذي يسمى "بركة فرعون". وهناك كانت الأسماك، حسب رواية " La Moisiade ". والذي يعد من الأشياء المثيرة للدهشة بأنها كانت تراقب عبور الإسرائيليين. وقد ألفت العديد من الكتب التي يعد "Nieburn" واحداً من بينها، بحوثاً ورسالات ذات توجهات جادة عن هذه الأعجوبة أو المعجزة - وسأقوم لاحقاً بانتهاز الفرصة لإعادة سرده لقرائي.

في ذلك المساء كان القبطان متلهفاً بشأن إيجاد مدخل لمرسى "أبو سليمة"، لكنه كان يريد السير قدماً لمسافة أبعد قليلاً وذلك لوضع السفينة في مجرى مِلاحي عمقه ستة فانثومات "ستة وثلاثون قدماً" يقع على بعد ميلين من الساحل باتجاه "جبل المرشد".

٢١ / ديسمبر / ١٨٣٣م

الآن قمنا بالإبحار وسط السلاسل الصخرية التي تجعل من الإبحار فوق البحر الأحمر في غاية الخطورة، مع ذلك حالفنا الحظ في تجاوزها جميعا دون أدنى عقبة. وفي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم أعطانا أحد البحارة، الذي كان يقف على نقطة المراقبة، إشارة باقترابنا من ميناء "الطور"، وعند حوالي منتصف اليوم كنا قد جنحنا بتراخ إلى الشاطئ المواجه لـ "بلد النصارى"[١]. وعند تلك اللحظة بالتحديد تصادف وجود طابور من السفن التي كانت قد وصلت من القصير وينبع وجدة، إذ كانت في طريقها إلى السويس للقيام بمهمة نقل حشود الجنود الخاصة بمحمد علي

(١) هذه القرية يطلق عليها اسم قرية النصارى، لأن سكانها يعتنقون تلك الديانة الإغريقية. وقد قام المسلمون بتشييد منازلهم بعيدة عنها قليلاً باتجاه الداخل. (المؤلف).

إلى الجزيرة العربية. وقد كان الميناء نفسه مغلقاً بوساطة خليج صغير تحيط به الجبال عند انحدارها صوب البحر، حيث كانت بعض الحواجز المنخفضة تقوم بحمايته من الأمواج العاتية التي ترتفع ثم تتلاشى عنده.

وكان من النادر جداً أن تقوم المراكب بالإبحار خارج ميناء الطور دون التوقف بغرض التزود بما تحتاجه من المياه. وقد كانت مصادر هذه المياه التي يتم التزود بها تقع بالقرب من قرية تقع إلى الجنوب. وقد كان هذا الماء الذي يتم التزود به مالحاً، لكنه كان بمقدورهم شراء نوعية جيدة من الماء من البدو.

واصلنا سيرنا بغرض زيارة الحديقة التي لاحت لنا من الشمال عند قاعدة لبعض الجبال الممتدة على طول مقدمة الساحل. وكانت مزروعة بأشجار النخيل بصورة أنيقة وجذابة، وكانت جميعها تابعة لدير جبل سيناء. وكان هناك مبنى من طابق واحد مشيد من الطوب الخشن، ويستعمل استراحة لإقامة الرجال والنساء الذين تظهر عليهم دلائل التقوى والذين كانوا يصحبون الحجاج المسيحيين بغرض إلقاء نظرة فاحصة على تلك الأماكن التي صارت مشهورة في كتب التاريخ اليهودي. وإلى جوار القبة أشاروا إلى نبع مائي ترتفع درجة حرارة المياه فيه لتصل إلى ما يقارب الثمانين درجة رومير (أي نقطة الغليان). وهو يتمدد بدءاً من عمق قاعدة الجبل ومن خلال فتحة صغيرة، وهو ينبع من حوض من الحجارة ومغطى بسقف جيد في أعلاه. وقد وصلنا إليه عبر ممر ضيق.

وكان الإغريقي الذي كان يعمل دليلاً بالنسبة لنا قد طلب إلينا وبإلحاح أن نقوم بالاستحمام فيه، مركزاً على أن كل الحجاج الذين يصلون عن طريق السفن إلى الطور يقومون بممارسة هذه العملية.

تنتشر المياه المتدفقة من هذا النبع على امتداد "حديقة الرهبان" وتقوم بري أشجار النخيل التابعة لها، ومن المؤكد أنها تقوم بعد تبخرها بترك ركام من الملح الشديد البياض على التربة.

والطور مدينة أنشئت للحجاج المسيحيين الذين يحضرون إلى هنا من أجل زيارة جبل سيناء وكانت المدينة القديمة قد تحولت إلى أنقاض. أما المدينة الجديدة، فقد شيدت من الحجارة المصنوعة من الرخام المرقش. وتضم بازاراً صغيراً تباع فيه كل أنواع البضائع وبأسعار صارت مرتفعة للغاية منذ وصول حشود القوات المصرية.

يعتمد السكان في كسب عيشهم بصورة جيدة على صيد المرجان، إضافة إلى الأسماك التي يتم اصطيادها من المياه النقية، حيث يتم بعد ذلك إضافة الملح إليها. ولقد شاهدت في مقدمة المياه اثنين من الزوارق الصغيرة اللذين تم نحت كل منهما من جذع شجرة واحدة. ولقد علمت بأنهما قد جلبا إلى هنا من الهند عن طريق البواخر العاملة في نقل البضائع التجارية ما بين بومباي وجدة.

ويلاحظ أحد جوانب القرية وقد أخذ شكل حوض لبناء السفن، حيث كان إنزال السفن إلى الماء آنذاك يتم بواسطة سد الفتحات التي يتسرب منها الماء عن طريق إغلاقها يدوياً. ولقد ذهبت أحياناً لأبعد من ذلك شارحاً كيف نقوم بإجراء هذه العملية في أوربا، ومع ذلك كانوا يصرون على القول: إن طريقتهم في هذا المجال تمتاز وتتفوق على طريقتنا.

وإلى الجنوب كان بمقدورنا الآن أن نقوم بالوصول إلى ركام إحدى القلاع التي يبدو أنها كانت قد شيدت بعناية. وقد شرع العثمانيون في

بنائها في بداية القرن السادس عشر من أجل مقاومة أساطيل البرتغاليين التي قامت بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، بالظهور المباغت والذي يشكل تهديداً على سواحل البحر الأحمر.

٢٢ / ديسمبر / ١٨٣٣م

صحوت من نومي على صيحات البحارة الذين كانوا يقومون في جلبة برفع الشراع الرئيس ونشره من أجل أن تدركهم الريح وهم خارج اليابسة. ولم نكن قد ابتعدنا بعد كثيراً عن الميناء عندما أنعشنا بنسمة هادئة للغاية، وصارت "أبو جاموس" تتأرجح جيئة وذهاباً تحت الأمواج الهادئة حتى الساعة الثانية من تلك الأمسية. وكان الحجاج، وقد أغراهم الطقس المشرق، والذين كانوا مختبئين عندما غادرنا السويس، والذين لم يعودوا يخشون احتمال تعرضهم للطرد، قد خرجوا من كل فتحات السفينة ومنافذها ليقوموا بالاسترخاء وهم يستمتعون بأشعة الشمس.

لقد كان هؤلاء الأشخاص المساكين يتكدسون في ازدحام شديد كما هو الحال بالنسبة للنظارة في المسرح في الليلة الأولى لتقديم المسرحية، ولابد أن تظل محنتهم باقية وملازمة لهم لعدة أسابيع، وبالتالي إلى ذلك الوقت الذي تحملنا الرياح فيه إلى ميناء جدة. وفي تلك اللحظات التي نادى فيها طاقم السفينة بالعمل الجاد، كان البحارة، وهم ينتقلون من مؤخرة السفينة إلى مقدمتها، يمشون على أجسادهم وكأنهم يعبرون على حزم صغيرة من البضائع، بحيث كان كل واحد منهم عرضة لكل أنواع سوء المعاملة من دون أن يكون قادراً على تقديم أقل شكوى أو احتجاج.

طوال تلك الفترة بقيت "جاموستنا" هادئة، وكانت الزوارق الخفيفة

وعليها صفوف من المجدفين الأقوياء البارعين، يتم إبحارها في خفة وسرعة على سطح البحر. وعند الساعة الرابعة قمنا بالرسو، وقد تم تجهيز إنارة ضوئية حتى نقوم بشق طريقنا على امتداد الساحل مصحوبين بأسماك "الدلفينات" التي كانت تقوم بعرض لظهورها الملونة تحت الماء.

ومع أن هذه الأشياء لم تكن تطاق في بعض خطوط العرض المعينة لكننا وجدنا أنفسنا ونحن نتأقلم عليها بصورة جيدة عندما سنحت الفرصة بذلك حيث جبال سيناء من جانب وسلسلة جبال "ليبيان" من الجانب الآخر. وعليه لم يكن اليوم الواحد مملا عندما يكون من المجدي تمضيته في اكتشاف العديد من المواقع المليئة بالذكريات التاريخية الواضحة والمرتبطة بعضها مع بعض ارتباطاً كاملاً.

٢٣ / ديسمبر / ١٨٣٣ م

صارت الرياح الآن أكثر طراوة بعض الشيء، وبدت بالنسبة لنا وكأنها تتبع الاتجاه نفسه الخاص بحركة الشمس التي بدأت تشرق من خلف جبال الجزيرة العربية.

دعنا الآن نترك جانباً سيناء، التي نشر فيها موسى (عليه السلام) القانون (الوصايا)، وكذلك جبال مصر التي اشتهرت بالنسبة للرهبان المسيحيين الذين كانوا معارضين لتلك الخاصة " بـ ثيوبولد"، ودعنا نترك جانباً أيضاً عبور ذلك البحر الذي ابتلع فرعون وجيشه والذين غرقوا فيه وهم أحياء. وإن قمة الجبال التي تراها أمامك تمتلك شهرتها الخاصة بها أيضاً، مع أن هذه الأخيرة أكثر حداثة من حيث اتصالها بفترة الهجرة الإسلامية. وقد قام أحد الكهنة المعالجين، الذي كان يعمل في خدمة

الرسول (صلى الله عليه وسلم) شخصياً[١]، بنقش اسمه عليها، ومع ذلك يطلق العرب عليها ببساطة "رأس محمد"[٢] وسوف يقوم قائد السفينة بذكر إحدى الخرافات التفسيرية لك. أما بالنسبة لهذا اليوم، فلو سمح لنا الطقس بذلك، فسوف نقوم بمشاهدة العديد من المناظر الطبيعية الأخرى.

يبدو الساحل في هذه المناطق محفوفاً كثيراً بسلسلة من الصخور القريبة من سطح الماء والحواجز الصخرية الضحلة، ويمكنك التعرف بكل سهولة على هذه الحقيقة من خلال لون المياه أو لون الأمواج التي تصطدم بها باستمرار. وتبدو جزيرة "تيران" أو "Bulls"، تخلو من الحياة وتنتصب إلى أعلى وسط منفذ الدخول إلى خليج العقبة وكأنها سوف تسد طريقك بالوقوف ببروز من فوق الأمواج. وقد خذلتنا الرياح بصورة تامة ومفاجئة وعليّه فإن إمكانية سفرنا غدا سوف تكون قاصرة على جعلنا، بالتأكيد، نقوم بتكرار العمل نفسه الذي قمنا بممارسته في هذا اليوم.

٢٤ / ديسمبر / ١٨٣٣م

قامت بعض الرياح العاتية التي هبت من ناحية الشمال بجرفنا سريعاً باتجاه "رأس محمد"، وهنا تصل الجبال إلى نهايتها، لكن سلسلة أخرى تتخللها، وهي سلسلة جديدة تمتد حتى العقبة، حيث تتصل مرة أخرى بتلك الممتدة من تحت الماء في الجهة المقابلة. لذلك فقد اضطررنا، عند تلك النقطة، إلى مغادرة الخليج حتى نستطيع أن نواصل الملاحة بمحاذاة الشاطئ الذي يمتد مرة أخرى في الاتجاه نفسه حتى يصل في أقصى بعده

(١) نحن لا نتفق مع هذا القول إن أحد الكهان كان في خدمة الرسول (صلى الله عليه وسلم).(المترجم).

(٢) كلمة "رأس" يقصد بها " cape" أو الأرض الداخلة في البحر" (المؤلف).

إلى اللسان الضيق لباب المندب.

لم يكن العبور شيئاً طويلاً، لكن الذي أدهشني كثيراً أنه ليس بأقل خطراً بالنسبة لأولئك البحارة الذين اعتادوا على الإبحار بمحاذاة شاطئ البحر عنه بالنسبة لأولئك البحارة الذين يبحرون بالسفن في عرض البحر. ويجب أن يقوم العارفون بالطرق المألوفة للإبحار في حوض البحر الأبيض المتوسط بأن يستعيدوا ذاكرتهم بأن الباخرة لا يمكن أن تقوم على الإطلاق بمغادرة موانئ معينة دون أن يكون بها أحد الرجال المتدينين، والذي يحتل منصباً مهماً في الشركة المالكة للسفينة، يقوم بالتضرع والابتهال طالباً أن يمن الله على السفينة برحلة صيد موفقة وناجحة، أو عبوراً من الأخطار والمصائب.

وقد تطورت الدوافع نفسها في كل هذه الظروف، وتصاعدت لتصل إلى نتائج مماثلة، فقام أئمة السفن العربية بنفس الدور وقاموا بإلقاء خطبة كاملة مليئة بالحماسة.

كما قام البحارة تحت تأثير هذا الاحتفال الديني بترك مصيرهم تحت رحمة المحيطات، ودون أدنى احتياطات أو تحفظات، ولم يكن من قبيل المصادفة وحدها أن يقوم قادة السفن بتغيير مسارها من تحت المرذة، وهي بوصلة لا تكون إبرتها ممغنطة دائماً، لأنه كان قد فكر مسبقاً في أن تقوم الروح (القدسية) الكامنة في الماء بتوجيهه بكل صدق وأمانة عبر المجرى إلى المسار الصحيح. وبصرف النظر عن ذلك، وعلى ضوء الحقيقة القائلة إن كل خدمة جيدة تستحق المكافأة، كان الإمام يمسك بصحن منحوت على شكل سفينة.

وبما أن أعـداد المسلمين المتـوجـهين إلى مكة والعـائدين من هنـاك إلى ديارهم قد كانت من الأشياء الأساسية، فقد تبع ذلك أن يتم تعيين شيوخ أو أئمـة على متن كل المراكب تقريباً، ويمنحوا القيام بهذه الرحلة دون أدنى تكلفة أو رسوم، بل كانوا يجلسون لتناول وجباتهم الغذائية مع البحارة أو القبطان. ويقوم هؤلاء الشيوخ هنا بمزاولة مهام الكاهن أو القديس وعلى أساس تطوعي. حيث يعودون المريض ويقومون بالأذان وقت أداء الصلوات أو الوضوء ويطلبون الحماية من الرب في الأوقات الحرجة، أو يقومون خلال صلواتهم بتحية قبور الصالحين، وقدسية المياه فيما يتعلق بالبحر.. إلخ.

وقد كان وجود هؤلاء الرجال مُطَمْئناً للغاية لمن حولهم؛ لأنهم جميعاً من أهل المصداقية والإيمان الذي لا يتزعزع. وكانوا يتجولون مباشرة حول السفينة أثناء قيامهم بطلب المعونات الخيرية من الحجاج ومن المسافرين بصفة عامة.

ومع تواصل الدعم المتمثل في الرياح الملائمة، كنا قد عبرنا مروراً بجزر "تيران"و"صنافير" ومع ذلك، وفي منتصف الخليج بالتحديد، تحولت هذه إلى عاصفة هوجاء وتحول البحر إلى كابوس مرعب ومخيف، وبدأت أبو جاموس تمتلئ بالمياه بسبب الأمواج. وأصبح الموقف بعيداً كل البعد عن التشجيع والطمأنينة، لكن لم يظهر منه، تهديد يلوح بأخطار عنيفة.

وقد كان الطقس مثالياً بالنسبة لسفينة ذات سطوح، لكن سفينتنا لم تكن من ذلك النوع، وأثناء قدوم الرياح من الخلف تكون عرضة للانكفاء تماماً، كما كانت إحدى المحاولات الزائفة لرجل الدفة كفيلة بأن تتسبب في تحويلنا إلى مصير مماثل تماماً لما حدث لتلك السفينة التي جنحت إلى اليابسة من بين أساطير الملك سليمان.

وبغرض وضع حد لملازمة سوء الطالع لنا، قام القبطان بتغيير مساره وبدأ في البحث عن ملاذ آمن في إحدى الجزر التي انتصبت ظاهرة لنا على جانب الميناء. وحينها عبَّر جميع الحجاج، الرجال منهم والنساء، عن رغبتهم في أن تطأ أقدامهم اليابسة لكي يقوموا بتحرير أوصالهم أو مفاصلهم التي بدأت بالتصلب. ولم تقم هذه الجزيرة، أو على الأصح الصخرة، بتوفير الحد الأدنى، ولو لأقل ذرة، من النبات أو الخضرة، فقد كانت تبدو مغمورة ببقايا رواسب الأصداف السمكية والهياكل الغريبة لمختلف الطيور والأسماك.

٢٥ / ديسمبر / ١٨٣٣م

كنا قد وصلنا إلى رأس الجزيرة الثانية من هذه الجزر المتناثرة حول مدخل خليج العقبة. وأبحرنا لمسافة قصيرة على الجزء الأيمن من هذه المياه الضحلة.

كانت الرياح تهب في الاتجاه المعاكس لنا حول المساء، فشققنا طريقنا بنجاح وسط الضفاف الرملية الممتدة حتى قريب من سواحل شبه الجزيرة العربية وكان شراعنا الرئيس ملتصقاً بعضه ببعض وغير منفرد. وفي تلك اللحظة قام أحد البحارة بأخذ حبل كان مربوطاً إلى خطاف معدني، ثم قذف به إلى أعلى حيث عمل على توصيله إلى تجويفة في إحدى الصخور. وعلى الفور توقفت المركب، وعلمنا أنه قد تقرر قضاء تلك الليلة وسط تلك السلسلة الصخرية، لا شيء نعتمد عليه سوى حبل مفرد، وتحت رحمة الأمواج الثائرة التي كانت هي حصيلة الأعاصير التي هبت في اليوم السابق.

وحوالي منتصف الليل كان القبطان الذي يعي جيداً الخطر الحقيقي الذي يمكن أن يحدث وأنه قد يؤدي نتيجة تحطم السفينة، لذا فقد قرر أن يتركنا جميعاً بعضنا مع بعض، وأن يهرب كلية من هذا الشَّرَكِ المتمثل في السلاسل الصخرية، بصرف النظر عن عتمة الليل.

وكان هناك رُبانٌ واحد للبحارة العرب، كما هو الحال في أوربا ولكن لنوعية مختلفة تماماً من الرجال.

٢٦ / ديسمبر / ١٨٣٣ م

توارت الجبال الإفريقية في الأفق، وأصبحنا الآن على الأراضي التي تمثل تقليدياً أراضي الديانة المحمدية (أرض الإسلام). وكان المشهد الذي وقعت عليه العين في الجزء المنخفض في ساحل البحر، والذي يظهر واضحاً من خلال تحركات السفينة، بأنه يمثل قلعة "المويلح" وكانت عبارة عن حصن يضم حامية من (٥٠) رجلاً، وهو بمثابة محطة لقوافل الحجيج. وهنا يندر وجود الماء، مع ما به من ملوحة ولا يكفي حتى لسقي الحيوانات، إضافة إلى قلة الطحين بالنسبة للقطعان المجهدة التي تسير وراء القافلة المقدسة.

ويجب على مندوب السلطان في مصر أن يبذل كل جهده لتوفير كل ما تحتاجه هذه المحطة من التموين إن كان يريد فعلاً أن يقنع هؤلاء المسافرين المجهدين بتفانيه الكامل في خدمة الإسلام والمسلمين.

وقد مكنني القبطان من أن أقوم بتسجيل بعض الملاحظات عن مجموعة لأشجار النخيل البديعة، وكانت هي الأولى التي قابلتنا منذ مغادرتنا للطور. وعن مشاهدتنا لمدى الانتظام الذي كانت تنمو به. قلنا لأنفسنا: إنها تكاد تكون شبيهة بصواري السفينة المتوازنة بصورة جيدة في مواجهة تقلبات الرياح.

ودون أية إيجابية على الإطلاق فيما يتعلق بالمدى الذي يكون فيه مشهد شجرة النخيل السامقة إلى أعلى فوق تربة أراضي مناطق مجدبة شيئاً مثيراً لردود الفعل العاطفية المرهفة أكثر من بانوراما أغلب الغابات الساحرة بكل ما تحتوي عليه من خضرة ونبات، لكنني مع ذلك ، كنت قد علمت أن الأوربيين قارنوا تلك الشجرة بمقبض المكنسة المقلوبة رأسا على عقب.

"أين سنرسو هذا المساء ؟". استفسرت من القبطان. "حيثما يوجهنا الله العظيم".

كنت قد توقعت مثل هذا الرد، فالبحارة من العرب لا يكلفون أنفسهم عناء الرد بأي إجابة أخرى.

"مع ذلك، إذا قدر للرياح التي تحملنا الآن أن تستمر حتى هبوط الليل، فأين يمكن أن نقوم بالرسو؟ "

"حسب مشيئة الله، نرسو في خليج صغير يدعى ضبا، فهو يمثل مرسى ممتازاً".

"وهل سيكون لدينا مطلق الحرية في مغادرة المركب دون أن نتعرض لأية أخطار".

"الساحل هناك يقطنه البدو الذين يقامرون على ما تحمله السفن العابرة من خيرات وفوائد، فهم يقومون بتزويدها بالمياه والفحم والمواد الغذائية، وقد درجت العادة أن تقدم لهم، عند الوصول، بعض الهدايا التي تشتمل على الدقيق والبسكويت. أما بالنسبة للحبوب فهي تضفي عليهم فرحة غامرة إذ لا مجال لديهم لبذرها وحصادها.

"ومتى تعتقد أنه سيكون الوقت ملائما للإقلاع عن هذه الممارسة؟".

"سوف لن يكون ذلك، شيئاً جيداً، إذ إنه في حالة تحطم السفينة فهم الذين ستكون مقاليد الأمور بأيديهم فيما يتعلق بمصير الطاقم".

زد على ذلك فقد قيل: إن البحارة، وبسبب نزعتهم وميلهم إلى التخلص من هذا الابتزاز الدائم والتوقف عن دفعه، فقد قام بعض البدو بقطع حبالهم أثناء الليل وأنهم قد انتشروا على امتداد ساحل البحر، وبعضهم الآخر قد فوجئوا على حين غرة بتسرب المياه التي أغرقت سفينتهم، وقد اتضح لاحقاً أن البدو قد قاموا خلسة بالتسبب في اعتراض البحارة في مياه البحر لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الموت وعند حلول الظلام كنا قد بدأنا نقترب من دخول "ضبا".

وكانت إحدى النيران المشتعلة بوضوح على الساحل قد جعلتنا نعلم بوجود البدو. وقد قام اثنان من مجموعتهم بركوب البحر على متن قارب صغير مشيد من أربعة من جذوع الأشجار تم ربطها بعضها مع بعض بواسطة الحبال المصنعة من لحاء أشجار النخيل. وبمجرد اقتراب قاربهم الصغير من طرف سفينتنا "أبو جاموس" قام أكبرهم سناً بمحاولة الصعود على سطح السفينة بغرض تسجيل زيارة، بينما طلب منا إمدادات غذائية محددة. وقام إمام سفينتنا بتجميع شيء من تلك الأصناف المخصصة للزوار، ثم صاح منادياً بأعلى صوته:

"يا أيها الناس الذين أنعم الله عليكم، هلا قدمتم هدية وصدقة من أي شيء للأعراب، إذ إن المنطقة التي تتركز عليها أنظاركم تشكل إرثاً خاصاً بهم منذ أن منحها الله أجدادهم إبراهيم وإسماعيل".

وقد تمت مناولة حصيلة هذه الهدايا للبدو الذين استداروا عائدين إلى مساكن أسرهم.

٢٧ / ديسمبر ١٨٣٣ م

في صباح اليوم التالي كان البدو قد اختفوا، وكان من الممكن القول: إن هذا الساحل غير مأهول، لولا وجود بعض المخلفات والبقايا الخاصة بالفحم الحجري وحطب الوقود الذي كان ملقى بتنسيق على امتداد الساحل، والذي كان يقف دليلاً على وجود عمل حقيقي، وعلى وجود الرجال حول هذه المنطقة أيضاً.

فسألت أحد البحارة: "كيف تصادف ألا أرى أي شخص على الإطلاق في هذه الأجزاء، حتى ولو بغرض العناية بهذه الأشياء التي لا بد أن تكون ببساطة مملوكة لشخص محدد؟.

"إن أي شيء ملقى هنا يعد أمانة بالنسبة لعامة الجمهور، وتجري معاملته بوصفه شيئاً مقدساً سواء بالنسبة للسكان أو بالنسبة لطاقم الباخرة". "لكنه مع ذلك يعد شيئاً نافعاً وذا قيمة، ومن المتوقع أن يأتي بعض اللصوص أو يمروا من هنا، خاصة وأنت تعلم أننا نمر عليهم في كل مكان".

"هل تعتقد، إلى ذاك الحد ، بأن أحداً لن يلحظك ؟ يجب أن تضع في اعتبارك أن هناك رجلاً ذا بصيرة نافذة، يوجد خلف كل كتلة من الصخور، لا تخطئ بصيرته شيئاً دون أن يراه. وفي حالة قيامك بمجرد لمس أي قطعة من هذه الأشياء، فسوف تتم الإحاطة بك من كل جانب، وستكون العقوبة التي ستدفعها ثمناً لهذه الدمية التافهة أكثر بكثير من قيمتها السوقية الفعلية ".

منذ مغادرتنا الطور لم نعبر أبداً بأي منطقة بها مياه نقية. وقد تسببت الحرارة الشديدة في جعل كل ما نبتلعه يبدو شيئاً لا طعم له. وفيما يتعلق

بالإمدادات التموينية الخاصة بكل من البحارة والحجاج فقد نفدت. وقد أوضح القبطان بأننا سنحصل على إمدادات من نوع ممتاز في ضبا.

وقد تابعت البحارة الذين اعتادوا جيداً على حمل القرب المصنعة من جلود الأغنام، ووصلت بعد عشر دقائق إلى بعض الآبار الكبيرة التي كانت مشيدة من الحجارة وقد كانت بحالة جيدة للغاية، وكانت أعماقها تتراوح ما بين الخمس عشرة والعشرين قدماً وعرضها حوالي الثمانية أقدام.

وقد كانت العديد من أشجار النخيل تنمو على تلة مرتفعة، تبدو من مسافة ليست بالبعيدة من هناك. وقد كانت من عينات خاصة يطلق عليها العرب عبارة "دوم".

وقد شاهدنا باتجاه الشرق بعض الجبال الشاهقة التي كانت تنفصل بعضها عن بعض تاركة ممرات استغلها البدو بصورة جيدة. وقد قمت بتسلق إحدى القمم المجاورة، ولم أستطع أن أكتشف أو أتبين شيئاً آخر من تحتي سوى الروابي العارية التي تحتوى على كميات ضخمة من الأصداف المتحجرة.

وبمناسبة المكان الذي أقف فيه هنا، فقد شاهدت عدداً لا بأس به من الرجال يخرجون منه ثم يعبرون الروابي المنخفضة، وكانوا يسوقون بجوارهم كلاً من قطعان الضأن والماعز، وهي تعد نوعاً من العملات الحية التي تعود على أصحابها بتلك الأصناف التي يجرى تداولها عن طريق المبادلة، والتي يتم توفرها عن طريق السفن.

إنه لمن الأمور التي يستحيل تصديقها أن يقوم هؤلاء البشر، الذين لا يختلفون عنا في تكوينهم ونشأتهم، بطريقة أو بأخرى بتدبير أمر العيش

في بيئة شحيحة كهذه الرقعة من الأرض، وأن يكونوا، مع ذلك، ملتصقين ومتمسكين بأرضهم بهذا القدر من الثبات والصلابة. فهي أرض أجدادهم، وهم يعانون بمرارة أكثر منا ونحن في المنفى.

وكما هو الحال بالنسبة لتلك النباتات التي نجدها ضخمة حتى مع اعتدالها في كمية الغذاء والتي تقوم بالتسلق على تلك الصخور العارية كمن يسعى إلى حتفه، كذلك نجد الأعراب تبدو عليهم الفرحة والسعادة وهم يعيشون في تلك المناطق التي تفتقر إلى أبسط مقومات الخضرة، وقد واصلوا الاستمرار، دون توقف عبر العديد من القرون، والعيش في تلك الأماكن التي يمكن أن نهلك فيها بسبب المجاعة إذا لم تنقذنا معجزة إلهيه.

٢٨ / ديسمبر / ١٨٣٣ م

بالأمس، وبمجرد هبوط الليل، قام البحارة والمسافرون بالعودة إلى المركب كما تعود الطيور إلى أوكارها ، وبطلوع الشمس الآن عاد كل منا إلى المأوى الذي كان يشغله سابقاً. ومع ذلك لم يستطع أي منا أن يذوق طعماً للنوم في هذهِ المرافق الخلفية والمعزولة. وكان كل منا قد حمل معه بعض الأسماك الصدفية من اليابسة، والتي كان مضى عليها وقت طويل تتجول على امتداد الساحل، وقمنا بوضعها في إحدى زوايا الكابينة دون أن نتخذ الحيطة بالحد من نزعاتها وميولها الضارة.

وكنا على وشك القيام بإطفاء مصابيحنا والخلود إلى النوم لكن الحشرات، اعتقادا منها بأنها ما زالت قريبة من ساحل البحر، شرعت في الانتقام منا عن طريق اجتياح أسرِّتنا، بحيث استحال علينا التخلص منها كلية. وكانت حصيلة ذلك أن اكتشفنا أنه من الضروري البقاء في حالة من الجلوس طوال الليل وحتى طلوع فجر اليوم التالي.

وقد كان نتيجة ذلك أن استغرق المسلمون في الضحك، وهم تحت أغطيتهم، وكانوا يتهامسون بأننا نستحق كل الذي حدث لنا، بحيث لم ينتابنا أي إحساس بوخز الضمير عندما أدخلنا وسط هذا العدد الكبير من الحيوانات الكريهة.

وقد كان ذلك يبدو وكأنه نوع من مباراة الإياب[١] أو التعاد فقد كان المسلمون الطيبون هؤلاء ضحايا لنوع معين من الحشرات التي اعتادت الانتشار في أوربا وغالباً في أوساط المسافرين عن طريق السفن غير النظامية.

ونتيجة للحرارة وقلة العناية التي يوليها الحجاج لصحتهم الخاصة في تلك المساحة الضيقة، فإنهم يقومون بخلق نوع من التلوث طيلة الوقت وبطريقة مخيفة للغاية. وقد ظل هؤلاء الحجاج يشغلون أنفسهم باستمرار في صيد تلك الجراثيم الناقلة للعدوى، بينما كان البحارة يمتنعون عن هذا النوع من التعقب الفردي على أساس أنه من الأعمال السيئة، ويقومون بالقضاء عليها بطريقة جماعية ومكثفة، وذلك بأخذ جمرة ملتهبة من أحد المواقد يذر عليها مادة ثم استخدامها في لفها حول ثيابهم بعد أن يكونوا قد نشروها على جسور السفينة.

ومع كل ذلك النشاط فقد تأجل الرسو وواصلنا رحلتنا باتجاه جزيرة "نعمان" التي تشتمل على مرفأ صغير كانت ترسو فيه في تلك اللحظات بالذات اثنتان من المراكب في طريقهما نحو المغادرة إلى كل من السويس والقصير.

---

(١) كلمة "مباراة الإياب" هذه هي عبارة عن ترجمة مختصرة:، ومن زوايا التحدث بصفة عامة، فإنني أفضل أن تكون ترجمة العبارة "العدالة الخيالية" (أو العدالة الشعرية). (المترجم).

والآن لاح لنا في الأفق تكوين من الكتل الصخرية المائلة إلى الاخضرار والناتجة عن الشعاب المرجانية، وفي ذلك المساء كنا قد قمنا بالدخول إلى خليج يشابه تماماً ذلك الموجود في ضبا، لكنه كان أوسع منه قليلاً.

وكانت الغزلان، التي جذبها وجودنا نحو الخروج، قد تمكنت من القيام بالاستطلاع، لكنها قررت الهروب بصورة فورية تقريباً وبأقصى سرعة حملتها بها أرجلها إلى الداخل.

وقد قامت هذه المنحدرات الساحلية بإنتاج العديد من النباتات الملائمة للتكيف مع التربة شبه السوداء (Soda) وقد أظهرت التربة من كل جنباتها آثاراً غير مريبة تدل على أنها كانت جزءاً لا يتجزأ من المحيط، كما كانت الجبال على وجه التأكيد مليئة بالأسماك الصدفية والمخلفات المتحجرة للمخلوقات البحرية.

وحيث كان هذا الميناء شبيهاً بذلك الموجود في ضبا فقد كان يرتاده البدو أحيانا.

٢٩ / ديسمبر / ١٨٣٣ م

خيمت سحابة من الهدوء حتى الساعة الثانية بعد الظهر. وقد ظل البحارة بانتظار قدوم الريح دون أن يظهر عليهم أي نوع من نفاد الصبر، وذلك فقط مثل الصديق الذي كان يشعر بأن قدره يحتم عليه قضاء حياته مستمراً في ذلك الموقف. مع ذلك نادى القبطان قائلاً:

"لاحظوا الدخان الذي ينبعث من غليوني، نحن على وشك استقبال بعض الرياح على أشرعتنا ".

وقد بدأ سطح البحر يموج الآن، وبدأ الشراع الرئيس يرفرف، وبعد قليل

اكتشفنا "اصطبل عنتر" (حظيرة حيوانات تعود لعنتر)، وهي قرية كبيرة تقع على الطريق الرئيسة لقوافل الحجاج، وقد أبحرنا في خليج يشبه ذاك الخاص باليوم المنصرم.

وقام قطيع من الإبل بشق طريقه الآن وليس بعيداً عن ساحل البحر. قمنا بالرسو وذلك أثناء مراقبتنا للمشهد الماثل أمامي، حيث اكتشفت وجود شيء كان يتنقل عبر صدع في الصخور، لكن وبما أنني ما زلت كلية في حالة انعدام الوزن لم أتمكن معها من تمييز الفصيلة التي كان ينتمي إليها.

فسألت أحد الرفاق الذي كان واقفا بجواري: "هل حدث أن لمحت جسما غريبا عند قاعدة أحد الثقوب".

"يبدو ظاهراً هناك، في الواقع إنه يبدو أحد أنواع المخلوقات الغريبة، لكنني لا أستطيع ببساطة أن أحدد ماذا يمكن أن يكون".

"إنه يبدو كالبومة "أجاب أحد الأشخاص الذين سمعوا سؤالي.

"من ناحيةٍ أخرى أعتقد أنه ربما يكون ابن آوى" أجاب رفيق ثان. "وربما يكون ثعلباً" أضاف ثالث. أما بالنسبة لي، فإنني أعتقد أنه ربما يكون قطاً" أوضح الطبيب.

"سواء كان بومة أو ابنَ آوى أو ثعلباً أو قطاً، لا أدري أي خيار يمكنني أن أرسي عليه". أضاف الرجل الأخير. لقد كان واضحاً أن هناك محاولة أكيدة فيما يتعلق بالوصول إلى استنتاج في هذا الشأن.

"فالحيوان لا يتحرك، وعليه فإن طلقة يتم تصويبها جيداً من بندقيتنا سوف توضح حقيقة الأمر". كان على وشك أخذ سلاحه من يدي خادمه عندما قام القبطان، الذي كان قد انضم إلى مجموعتنا بدافع الفضول، بالصياح فيه قائلاً:

"توقف عن هذا، وإلا فسوف تكون على وشك أن تقتل رجلا". والآن تم توجيه تحذيرنا مباشرة وبصورة متبادلة إلى قبطاننا.

ما زال بعضنا في شك من أمره، مع ذلك فإن بعضاً منا، والذين كانوا يرون أن ما سمعوه قبل قليل هو الذي يمثل حقيقة هذا الأمر، قد عادوا ليروا أن من قبيل المصادفة إدراك القبطان لنا عند تلك اللحظة الحرجة.

وعندما أدرك البدوي بوضوح حركة زميلي المسلحة، رأى أنه من الأنسب له التراجع والانسحاب، وعليه قام بالانسحاب عائداً إلى داخل الكهف. وبعد قليل من وضع أنفه على النافذة وعلمه أن الخطر قد زال، خرج مرة أخرى وهو يمسك بإحدى يديه إبريقاً من الحليب ويقتاد بالأخرى إحدى الأغنام التي قام بحلبها في داخل كهفه. وقد اتضح أنه رجل هزيل وعجوز محدودب الظهر، وذو لحية متسخة، بيضاء كالثلج، ونظرةٍ متقدة وحادة كنظرة الوشق أو الفهد.

"يا صديقي الغزيز - بادرناه قائلين - 'لقد نجوت قبل قليل من أن تصبح ضحية خطأ قاتل، ونحن مدينون لك بتعويض عما سببناه لك من إزعاج ومضايقة ".

"لم يحن بعد أجل علي العجوز. لقد كان تصرفكم متمشياً مع ذلك، إن موتي لم يكن محدداً له في الكتاب أن يتم اليوم".

"هذه جائزة مالية نرجو منك أن تتسلمها مقابل العفو عنا وتطييب الخاطر بالنسبة لنا".

"البدوي الذي يحمل كيسا من النقود في جيبه كالرجل الذي يحمل إناء في يده في مواجهة نبع جاف وخال من الماء".

"ماذا تريد أن نفعل من أجلك ؟"

"أعطوني بعض الملابس المستعملة وكمية بسيطة من الخبز، وأتمنى من الله الكريم أن تصحبكم السلامة ".

"سوف نلبي طلبك بكل سرور، لكن دعنا نعلم لماذا تقطن بهذا المكان الذي يعد أكثر ملاءمة للثعلب أو ابن آوى؟"

" لماذا يجهد الآخرون أنفسهم ببناء مأوى يقوم الله سبحانه وتعالى بتوفيره لك وهو غاية في الاكتمال؟ هذا الكهف يضم أسرتي وقطعاني، ومقتنياتي الثمينة مهما كانت تافهة وضئيلة".

وبمجرد الفراغ من نطقه بهذه العبارة، قام هذا الأعرابي بإطلاق صيحة مدوية، ظهرت لنا بعدها مباشرة امرأة تخرج من الكهف، وهي عجفاء وذابلة وفي حلة سوداء، وكانت تمسك بيديها اثنين من الأطفال الصغار الذين يشكلون زوجاً وهم يرقبون نظراتها، ثم تبعها ثالث أكبر منهم قليلاً.

وطبقاً لتوجيهات والدهم، إذ كان هذا الرجل العجوز يرغب في رؤيتنا لمسكنه، قام هذا الطفل الأخير بالاستعداد لتقديم بعض الأطباق النادرة التي تقدم للضيوف.

لم يكن الجزء الداخلي من هذا الكهف مرتفعاً بما فيه الكفاية للسماح للشخص بأن يظل واقفاً. وقد انتشرت جلود الماعز على الأرض، بينما حلت بعض الأدوات الأخرى محل الأثاث. وقد قاموا بإحداث كوة عميقة في جدار الصخر ليقوموا بتعليق إحدى البنادق القديمة عليها. وتم اتخاذ ثلاثة من الأحجار الضخمة موقداً، كانت بوابة الدخول بمثابة مدخنة له.

وقد انتشرت العديد من الأغنام على أرضية المكان، كما كان هناك طفل

يبدو من شخيره أنه كان نائماً على أرجوحة شبكية مخبأة، وقد كان نائماً في جو يكتنفه الدخان الكثيف لدرجة يمكن لأي أحد أن يكون عرضة فيها للإصابة بأمراض العين إن لم يكن متعوداً على ذلك.

٣٠ / ديسمبر / ١٨٣٣ م

صحونا أثناء الليل على هبوب الرياح الشمالية العاتية، وكان سمعُنا قد تأثر بالأمواج المتلاطمة، التي كانت تصطدم مع السلاسل الصخرية محدثة أصواتاً عالية. ويعلم أولئك الذين أمضوا تلك الليلة وهم راسون بالمرفأ كم كانت هذه الهبوب تزمجر كالإحساس الشعري المخيف.

أما على اليابسة، فقد كانت هذه الأحاسيس القوية مختلفة جداً، فقد كانت تمتلك مسحة من العطف والكآبة. فالعطف بسبب وجود الإحساس بحسن الطالع الذي يلوح مبتسماً في وجوههم طوال تصورهم للكآبة والحزن الذي تم إخفاؤهم وحجبهم عنه. والكآبة؛ لأنهم يعلمون جيداً مدى الإحباط الذي يعيش فيه جميع من يخيم عليهم. وأياً كان الأمر في كلتا الحالتين، فإن هذه الظروف الخاصة تجعل كل شخص يعاني انفعالات عنيفة وطاغية.

مع كل ذلك فلم تعد الأمواج التي تتهادى على سطح الماء، في صبيحة اليوم التالي، توفر أدنى أثر لذلك التيار الجارف الذي كان من الأشياء المكروهة عند ارتفاع المد، حيث حلت الآن ظروف هادئة محل ذلك الجو العاصف.

أبحرنا من جزيرة "كامرين Kamerin" وواصلنا حتى رسونا بمرفأ صغير يدعى "عويش Aoeuch" حيث مررنا في طريقنا بإحدى سفن النقل العائدة لمجموعتنا، وقد بدا على المنطقة المجاورة ما يشير إلى خصوبتها، كما

أضافت حركة تنقل الحشود على المكان مظهراً من مظاهر الحركة والنشاط الذي يؤكد ذلك النوع من التأثير القوي الذي يمكن أن تمارسه السوق المضمونة للبضائع على البلد. كما لو أنها سوف تمنح مساعدة صغيرة من ذلك النوع الذي كنت أتصوره.

وقد تم تشييد اثني عشر منزلاً على ساحل البحر. وكان ارتفاعها حوالي الثمانية أقدام، وكانت تضم عدداً من السكان يبلغ الخمسين نسمة هم الذين اتخذوا منها مأوى لهم، واستقروا بها لمدة طويلة أثناء وجودهم بهذه القرية، أو هكذا كان يتراءى لي. وقد تجمع آخرون من البدو داخل المنطقة حيث كانوا يقيمون في ذلك المكان لفترة مؤقتة. وقد قاموا بتشييد خيامهم المصنوعة من جلود الإبل في المنطقة المجاورة "للعويش".

البدو يعانون الضعف والهزال، ومع ذلك فإن ملامحهم تبدو عادية ويبدون كأنهم يتمتعون بصحة جيدة. وهم يرتدون ملابس بيضاء وأحذيتهم مصنعة من جلود الأغنام أو الإبل. وهم يطلقون لحاهم وشعور رؤوسهم طويلة. أما أسلحتهم فتكون من البنادق القديمة الطراز والرماح والهراوات.

٣١ / ديسمبر / ١٨٣٣ م

أعلن القبطان أننا على وشك التغلغل في شبكة من المتاهات الحقيقية المتمثلة في السلاسل الصخرية من ذلك النوع الخطير للغاية. وقد قام الإمام بترتيل عبارات قوية متضرعاً ومناشداً الضريح المقدس الموجود بإحدى الجزر أملاً في أن تكلل رحلتنا بالتوفيق والنجاح[١]. وواصلت مركبنا سيرها قدما بهدوء حذر وسط تلك الكتل المرجانية.

---

(١) هذه اعتقادات باطلة فلا يجوز الدعاء إلا إلى الله سبحانه وتعالى ولا التضرع إلا إليه وطلب العون والنجاة منه. (المترجم).

وقد شكلت ملامح الجبال بالنسبة للجانب الأسفل من سطحنا إضافة إلى السلاسل الصخرية بالنسبة للجانب العلوي من سطحنا، الأفق الوحيد بالنسبة لنا. وقد برز الآن دفعة واحدة، خطر إضافي آخر يتمثل على وجه التحديد في تلك التيارات التي تتفاوت في استمراريتها طبقاً لاتجاه المد.

وقد كان البحر يزمجر في مواجهة المياه الضحلة مغطياً كل شيء برذاذه. بعد ذلك اتضح لنا، ونحن نعبر تلك المياه، وجود طبقة مخيفة من الصخور كانت تحف بسطح سفينتنا "أبو جاموس". وقد صارت التيارات الآن أشد قوة وعنفاً، كما صارت تندفع حولنا في سرعة مخيفة باتجاه هيكل السفينة المنخفض. ولأول مرة بدأ الاضطراب يظهر على طاقمنا، لكننا تمكنا من تفادى الخطر المحدق بنا بشعرة بسيطة. وقد وهب الحجاج أرواحهم لله سبحانه وتعالى.

أما القبطان والملاحون فقد رفعوا أصواتهم وأكفهم متضرعين إلى الله سبحانه وتعالى.

مع ذلك تمكن أحد الزنوج، الذي كان ممتلئ الجسم وذا قوة خارقة من الإمساك بذراع الدفة وجذبها بقوة مما جعل المركب تستدير لتلك الريح. وباستجابة المركب لهذه المحاولة تمكنا من النجاة.

الفصل الثاني

الأول من يناير - ١٨٣٤ م

كان العام الذي انقضى قبل قليل جديرا بأن يتم تصنيفه وسط المجموعة المتميزة التي كان لها أبلغ الأثر في حياتي بصفة عامة. إذ بدأ وأنا في موطني الأم، ثم ها هو ينتهي وأنا بإحدى المراكب العربية البائسة التي ألقت بمرساها في وسط المياه الضحلة الخطيرة، في خضم ذلك البحر المزمجر والرياح الشمالية التي جعلت الصواري والأشرعة تحدث صفيراً بصوت هامس كما جعلت عارضة الشراع تحدث صريراً، وكان مصيرنا يتوقف عليها جميعاً.

وبمغادرتي لضفاف قناة "لانجويدوك Languedoc" كنت قد سافرت عبر العديد من المحافظات الفرنسية لعدة سنوات، كما أعجبت خلال ذلك "ببانوراما" جبال سويسرا، وغادرت تلك المحافظات في رحلة بالمراكب عبر البحر الأبيض المتوسط الذي كانت مياهه الزرقاء الصافية تمثل ما يشبه السماء في منتصف النهار، بينما كانت مصر بنيلها ورمالها ما زالت بعيدة عني.

لقد كان ذلك المساء العاصف بمثابة الطالع لرسم قدري، فقد وجه إلي نوعاً من التحذير المقدم عن وجهتي المقصودة المليئة بالرعب والخطر الذي كان ينتظرني مستقبلاً.

كانت الرحلة الآن مخيفة كما هو الحال بالنسبة لمثيلتها في اليوم السابق، ومع ذلك كنت قد اكتسبت عادة التحديق باتجاه الصخور التي كانت متناثرة حول الطريق دون أن ينتابني أدنى خوف. وفي الساعة الثانية عبرنا جزيرة " طمبية Tembeia" المحاطة بعدد لا حصر له من طيور النورس، وفي المساء قام القبطان بالإعداد للرسو في "مُكلأ" أو ملجأ" عند "جبل حسن".

قلت مخاطباً الريِّس: " تبدو لي هذه الجزيرة وكأنها قاحلة"، كما هو الحال بالنسبة لجزيرة "تيران" و "طمبية "، ومع ذلك يبدو لي أن بمقدوري حصر بعض السكان الموجودين على شواطئها.

أجاب الريِّس: "أنت على حق" إن الذي تراه هي أكواخ مشيدة من الأخشاب والطحالب البحرية، وجميعها تنبئ عن أنها تضم بين جنباتها حوالي الخمسمائة من السكان.

"ولكن هل كانت الجزيرة تحتوى على أية ينابيع أو مصادر للمياه؟".

"لا، بل يقوم المواطنون بجلب الماء من البئر الرئيس على اليابسة، حيث يتم استغلال عدد لا بأس به من الأطواف الخشبية لهذا الغرض".

"ما دام الأمر كذلك، فيبدو لي أنه كان سيكون من الأفضل لو استقر سكان الجزيرة هؤلاء على اليابسة".

"لم يكونوا سيجدون ملاذاً آمناً أكثر مما يوفره لهم "جبل حسن". فهنا تكون ممتلكاتهم القيمة في مأمن من خطر تعرضها للسلب بواسطة البدو، مع الوضع في الاعتبار أن هؤلاء الرجال الموجودين هنا، والذين هم الآن على مرأى منك، ليسوا بمعدمين كما قد تظنهم. فالفضل يعود إلى تكوينهم الطبيعي في أنهم يقومون بتكديس جميع الأموال التي يحصلون عليها من

وراء صيدهم للأسماك والمرجان. ولهذا فإن كثيراً منهم يمتلكون المراكب التجارية التي تجوب المياه على سواحل البحر الأحمر.

"ولكن حتى في هذه الحالة يمكن أن يكون الأعراب القاطنون على اليابسة في وضع يمكنهم من رفض السماح لهم بالحضور لأخذ تمويناتهم من المياه".

"يمتلك كل هؤلاء القاطنين بالجزيرة مستودعات ضخمة بداخل أكواخهم تكفي لتأمين احتياجاتهم من الماء لعدة أيام، كما أن أطوافهم الخشبية تجد لهم دائماً وسيلة لشق طريقهم إلى اليابسة مرة أخرى".

وفي تلك اللحظة مر بجانب سفينتنا عدد من صائدي الأسماك، وهم يقبعون وقوفاً على أرجلهم بداخل قواربهم المنحوتة من جذع شجرة واحدة، وعرضوا علينا أن نشترى منهم بعض الأسماك.

وقد كانت تلك القوارب هشة وسهلة الانقياد لدرجة أنها كانت تكون أحياناً شبه غارقة، مع أنها لا تحمل أكثر من زنة الشخص الواحد.

ويقوم هؤلاء البحارة بقيادتها عن طريق توظيف اثنين من العمال المعتادين على استعمال أعواد التجديف. إذ يستقر كل منهم في أحد أطراف القارب ليقوم بالتجديف، كما أنهم يقومون بتفريغ المركب من الماء الذي يكون قد تسرب إلى داخله وذلك باستعمال آنية (قصعة) خشبية لهذا الغرض.

وعند القيام بإجراء مقارنة بين سفينتنا "أبو جاموس" وبين السفن الأوربية الرائعة، توصلت إلى خلاصة مفادها أنني كنت أبحر على مركب قابلة للكسر بحق، ومع ذلك فإنني عندما أحدق إلى الأسفل على هذه القوارب الخفيفة، كنت أحس وكأنني أركب على متن باخرة من نوعية متقدمة ومتطورة.

٢ / يناير / ١٨٣٤ م

بعد تلك الفترة من الهدوء والتي بدت وكأن كل صلواتنا خلالها لم تكن كافية للتأثير فيها بطريقة تسهل أو تحد منها، كنا قد تعطلنا عن الحركة في داخل دائرة من السلاسل الصخرية، بحيث تم حجز سفينتنا بغرض قضاء تلك الليلة في ذلك الموقع.

٣ / يناير / ١٨٣٤ م

باختصار وقبل ساعة من مغيب الشمس تم اتخاذ قرار يقضي بأن تقوم مركبنا "أبو جاموس" بالرسو في مكان مريح وباعث على الاطمئنان، أي في خليج مماثل لذلك الذي كنا تعودنا عليه فيما مضى. وكانت هناك باخرة ترسو قبالتنا في هذا المكان. وقد كانت هذه الظروف العارضة التي جمعت بينهما سوياً بمحض الصدفة تعد من المصادفات السارة في هذه الأماكن المقفرة والمعزولة.

وقد قام البحارة في هذا المساء بترتيب القيام بزيارات بعضهم بعضاً كما قام بعضهم بقضاء جزء كبير من الليل بصحبة البعض الآخر، وقاموا بالترفيه عن أنفسهم عن طريق تدخين الغليون وشرب القهوة. كما كانوا يقومون بتزجية الوقت في تبادل الأخبار عن آخر الموانئ التي تركوها وراءهم. وقد قام الرجال الأكثر تفهماً باستغلال فرصة هذا اللقاء بصورة جيدة.

أما بالنسبة للبحارة العاديين فقد غاصوا في البحر، بينما كانوا يلفون حول رؤوسهم تلك العمائم وهي عبارة عن قطعة من القماش تعامل على أساس أنها تعد مساوية لارتداء الملابس.

وقد كان هناك خمسة أشخاص، بدوا لنا من بعيد وكأنهم من الهنود، كانوا يتجولون جيئة وذهاباً على مؤخرة سطح المراكب الأخرى. ومع ذلك فإن طريقة لبسهم نفسها لم تكن تدع لنا أي مجال للشك في أنهم من الأوربيين، وأنهم من المحتمل أن يكونوا بالتأكيد من الإنجليز.

إن الفرنسيين قد اشتهروا وهم بالخارج بشخصيتهم النشيطة وقابليتهم للتأقلم، بحيث يعتادون ارتداء الملابس وممارسة العادات الخاصة بأولئك الذين يعيشون وسطهم. وعلى هذا الأساس فهم عرب في الصحراء، ومصريون في القاهرة، وأتراك في إستانبول. وقياساً على ذلك يقوم "جون بول"[١] في كل الأوقات بارتداء أحذيته ومعطفه الواقي من المطر وسترته الصوفية الرديئة.

وهو يرى أن من الضروري احتفاظه بكمية من السيجار، وفوق كل هذا وذاك، الشاي الخاص به. وحيثما انتقل إلى الهند أو تركيا أو أمريكا، فهو يظل على الدوام صورة طبق الأصل من ذلك اللندني، لن يتراجع قيد أنملة أو يساوم على أي من ذلك مطلقاً.

٤ / يناير / ١٨٣٤ م

ظللنا نحاذي شاطئاً رملياً منخفضاً، وقد انتصبت سلسلة من الجبال وهي تقف في مواجهة السهل الآخر. وقد بدأت في الظهور عند "العصر" أعداد معينة من منارات المساجد، بحيث أصبحت بادية للعيان على امتداد الأفق. وبدأت المنازل والأسوار تقترب شيئاً فشيئاً، وأعطتنا نظرة مبدئية عن تلك المدينة ذات الأهمية المتوسطة والمعقولة.

---

(١) يقصد بذلك الشخصية الإنجليزية التقليدية (المترجم).

والآن أطلت علينا نسمة هادئة. وإذا بالقبطان ينادي: " انتبهوا هناك حاجز على الجانب الأيمن من السفينة ". وقامت "أبو جاموس" بكل إذعان بالالتفاف في شكل ربع دائرة، ثم قامت بكل سرعة بعبور المياه الكائنة بين اثنتين من السلاسل الصخرية حيث كانت الأمواج تندفع مزمجرة في غضب. ثم نادى الريس مرة أخرى قائلاً: "ارم المرساة ". وعلى الفور تم إلقاء المرساة في المحيط، حيث هبطنا في ميناء ينبع.

وعند مشاهدة تلك المدينة قام كل حاج بارتداء أبهى حلة لديه من الملابس، وبمجرد وصولنا إلى الميناء بدأت القوارب بنقلنا في رحلات متتابعة نحو اليابسة.

ونظراً لعدم قيام الأتراك بوضع أية عبَّارة يقوم الناس عن طريقها بالعبور بطريقة مريحة، فقد قام أقل المسافرين ثراء بالهبوط في داخل الماء الذي وصل حتى منتصف أفخاذهم، بينما قام البحارة بحمل أولئك الذين بدوا غير قادرين على الخوض فوق أكتافهم لكي يحصلوا منهم على مكافأة[١] مالية.

أما بالنسبة للنساء، فقد كان من الملزم قيامهن بوضع الحجاب. وإنني أعتقد بكل صدق أن أزواجهن كانوا يفضلون أن يرونهن وهن يهلكن بالغرق على السماح لأي رجل بأن يقوم باحتضانهن بين ذراعيه بهذه الطريقة. وقد كان هؤلاء الرجال مجردين من التودد للنساء لدرجة أنهم لم تكن لديهم أية رغبة في تولي هذا العبء على عاتقهم.

---

(١) لا يفعل الأعراب شيئاً دون مكافأة "لا بقشيش، لا أعرابي "(المؤلف). وأن قول المؤلف: إن الأعراب لا يفعلون شيئاً دون مكافأة فليس في كل الأحوال، بل هم أكثر جوداً مع قلة ما يملكون، وليس طلب المكافأة لقاء أداء عمل معين خاصاً بالأعراب وحدهم (المترجم).

وقد قام هؤلاء الرفاق الشجعان بنشر أنفسهم في كل أرجاء المكان، في البازارات والمساجد، وآخرون في المقاهي والحمامات، وكان ذلك يتوقف على حاجتهم لتدبير بعض المواد التموينية اللازمة لوجباتهم، وكانوا يقومون بتوجيه صلواتهم لله عز وجل أو يقومون بإنعاش أجسادهم بالاستحمام للتخفيف عنها من مآسي رحلة السفر الطويلة بالبحر.

٥ / يناير / ١٨٣٤ م

ظللنا في ينبع بعض الوقت. وقد كانت هي أكثر المدن الساحلية أهمية بعد السويس. وهي محاطة كلية بسور جرى ترميمه حديثاً، وهو محروس بعدة أبراج مراقبة مزودة بالمدافع التي تم استيرادها حديثاً من مصر. وهي تحتوي على بوابتين تطلان على اليابسة، إضافة إلى عدة بوابات أخرى تطل على البحر من ناحية الميناء.

أما بالنسبة للأرض التي شيدت عليها، والتي تأخذ شكلاً مستديراً، فهي قاحلة. ومع ذلك فيجري تزويدها بالمواد الغذائية بواسطة البدو الذين يقومون بزراعة السهول والأودية المجاورة.

وقد قام المفرطون في الثراء من البدو القاطنين بهذا الجزء من الجزيرة العربية بالاستقرار في بقعة يطلق عليها "ينبع النخل" (أي ينبع المشهورة بأشجار نخيلها)، وذلك بغرض تمييزها كشيء منفصل عن تلك التي كنا نوجد بها ، والتي تحمل اسم "ينبع البحر" (أي ينبع المواجهة أو المطلة على البحر) . ويمتلك المواطنون أعداداً هائلة من صهاريج تخزين المياه، إضافة إلى ذلك يتم جلب المزيد من المياه النقية من الآبار الموجودة بداخل البلد.

ويعود الفضل إلى اكتساب ينبع أهميتها إلى المدينة المنورة التي يتوجه إليها المسلمون لزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد لاحظت الليمون ضمن البضائع المعروضة للبيع في أحد البازارات، كما لاحظت أيضاً الملح الأبيض الذي يتم تجميعه على الشواطئ الساحلية، إضافة إلى نوع آخر وجميل من الملح الذي يميل إلى اللون الوردي والذي يتم جلبه من الجبال المجاورة.

وتعمل المدينة كسوق ومركز تجاري لرجال الأعمال من تجار المدينة. والميناء عميق ومصمم بطريقة متقنة. لدرجة تعطي السفن القادمة ميزة الوصول بجوار المنازل بأعمدتها المائلة الضخمة.

مع ذلك نجد أن مدخل الميناء خطير إلى حد ما عند انحسار المد، وذلك ناتج عن كونه محاطاً بالصخور البارزة على سطح الماء.

وتتكون الحامية العسكرية التي تتولى حراسة مدينة ينبع من كتيبة تضم (٣٠٠) جندي نظامي من المشاة.

٦ / يناير / ١٨٣٤ م

بمجرد فراغ البحارة من انجازهم لأعمالهم تمت إعادة الحجيج إلى الباخرة. تم رفع المرساة وعاودنا الاستمرار في مواصلة رحلتنا مرة أخرى. وفي حوالي الساعة العاشرة تقريباً هبت من حولنا عاصفة وفي خلال زمن قليل كانت قد أحاطت بنا من كل الاتجاهات.

وكان يخيل لك وكأنك تتحرك على امتداد الشواطئ العاصفة في أوربا، وكان مقياس الحرارة قد سجل فقط (١٤ٌ) روميـر. مع ذلك، وعن طريق إمعان النظر في هذه الكتل الخادعة من الضباب تمكنا من إلقاء نظرة على أن الحقيقة القائلة باقفرار الشريط الساحلي قد تداعت ليعقبها انتشار كثيف من النباتات والخضرة، بحيث كنا نشاهد من وقت لآخر أشجار

النخيل التي كانت فروعها العالية تهتز وتتأرجح في مواجهة السحب المنخفضة العابرة.

عند عودة الجو إلى الصفاء العادي، تبدلت أحاسيسنا الإنسانية التي كان يعتريها الانقباض بالطريقة نفسها، والآن استعدنا أفكارنا لتتحصر في هذه البيئة المحدودة والخاصة التي كانت تحيط بنا. وكان الإمام قد تمكن من اكتشاف أحد الرفاق المطلعين والذي كان موجوداً على متن الباخرة، مع أنه لم يكن قد قرأ في حياته إلا كتابين فقط هما: القرآن (الكريم) وألف ليلة وليلة، وكان يحفظ بقلبه روايتين درج على أن يحكيهما عندما يكون طاقم الباخرة قد أنجز مهامه اليومية. وكان في كل مرة يكون فيها جالساً وسط مجموعتنا بالباخرة يقوم واحد منا بسؤاله، مثلما حدث في حالة "دينار" مع أخته "شهرزاد"[1]: "يا مولاي العزيز، إذا لم تكن قد نمت بعد، فهلا حكيت لي إحدى تلك الحكايات التي تعودت عليها".

وكان بمقدور المرء أن يتخيل جيداً كيف تم إدانة القديس الفاضل والحكم عليه بالموت، كما هو الحال في حادثة الأميرة ابنة كبير سلاطين جزر الإنديز، والذي تم منحه تأجيلاً مؤقتاً من تنفيذ الحكم فيه، وذلك حتى نستمتع جميعاً بسماع تأجيل تنفيذ الحكم مرة أخرى.

كان رواة القصص الشرقيون أناساً رقيقين وشديدي الحساسية في ربطهم لقصصهم، وإنني أجد نفسي متأسفاً، وبكثير من المرارة، لعدم تمكني من إتقان اللغة العربية بشكل جيد يتيح لي المشاركة في تلك الفرحة. فأنا كنت قادراً فقط على التقاط بعض العبارات المتناثرة أو تذكر بعض

(١) وهو أحد المراجع الخاصة بالطريقة التي كانت كل ليالي تلك القصص والحكايات تبدأ بها عادة.(المؤلف).

الأسماء عند تكرارها مرة أخرى، مثل هارون الرشيد ورئيس وزرائه جعفر، أو كبير الخصيان مسرور.

وفي إحدى المرات قام هذا الراوي بمداخلة من ينصتون له بأوصاف مبتورة بالنسبة للمدن والإمبراطوريات التي نمت على سواحل المحيط، وذلك بالحديث عن طريقة العيش التي كانت متبعة وأسلوبه بالنسبة لتلك الشراذم من الناس التي كانت تعيش فيها.

وأنا على قناعة تامة بأنه لو كان أحد الكوميديين المقتدرين قد ظهر فجأة وسط تلك الدائرة من المستمعين الخاصة بنا، مدعياً أنه قد برز من أعماق تلك الأمواج، فإننا كنا لابد سوف نعتقد أنه واحد من أولئك البشر الذين كانوا قد انفصلوا قبل قليل من قصرهم البلوري الذي تستند أرضياته وأسقفه الرقيقة على الأحجار الكريمة أو الخزف الصيني الرقيق.

في النسخة العربية لقصص ألف ليلة وليلة - كان يجب تلقائياً أن يرفق بها عنوان آخر - فهي إلى حد ما تعطينا صورة عن طريقة الحياة الفرنسية وأسلوبها أكثر مما تعطينا صورة عن العادات والتقاليد العربية - كما أنها لا تتصل كثيراً بالبربر. مع ذلك، وفيما يتعلق بالقطع الروائية المصرية، فهي لا تلقى قط إلا إلى تلك النماذج الشرقية. وقد كان لدينا نوع مشابه من الرواة على ظهر المركب، وهو حلاق من القاهرة كان ينافس في قدراته الشخصية هذا الإمام.

وقد كانت قصصه أكثر سحراً وتأثيراً، وقد كانت لديه القدرة على جعل مستمعيه يرتجفون ويرتعدون من الخوف، في الوقت الذي كان فيه أولئك الذين هم من عرب الحجاز يقومون بتبسيطها بطريقة مهذبة من أحلام اليقظة التي تجعل أرواحهم تشع بالفرحة والسرور.

وبهـذه الطريقـة تمكنا من نقل "راسين Racine" وكـورنيل " Corneille" لتعبرا إلى داخل الشرق، وبذلك كسبنا هتاف الجمهور العربي وتصفيقه لهذين المبدعين والتي كانت قد قوبلت بمنتهى الترحيب في المسارح الأوربية.

كان أولئك الذين يجتمعون للاستماع يتكونون من البحارة والحجاج الذين تكاد ظروفهم أبعد ما تكون عن الراحة، وكانوا جميعاً من عامة الناس الذين اعتادوا العيش بعرق جبينهم. أما الممثلون أنفسهم فقد كانوا مجرد أناساً عاديين، هما الحلاق والقديس (الإمام) الفقير. ومع ذلك فقد كانت هذه التشكيلة مسرفة في تعاطيها للشعر.

ولم يكن أولئك الرجال الذين لم يمروا بشيء جميل أكثر من هذا اللهو البريء أنيقين بأية حال أو من النوع الانتقائي، كما لم يكن لهم اهتمام كبير بالفنون أكثر من ذلك العدد الكبير الذي تتكون منه الطبقات العاملة في أوربا والذين يستمدون قناعتهم ورضاهم فقط من خلال احتسائهم الخمر في الحانات والنوادي الليلية. الأكثر من ذلك أنني كنت على معرفة بكثير من الناس الذين يصرون في هذا الشأن على تقدير قيمة الحضارة الشرقية على أساس أنها لا تقل بأي درجة عن حضارتنا الغربية بأي شكل من الأشكال.

٧ / يناير / ١٨٣٤ م

ابتعدنا الآن عن مرسى جيد في " Dja" التي كنا قد أمضينا بها ليلتنا. والشاطئ هنا محاط بالقفر وبقايا الأشجار الذابلة التي تبدأ من "رأس الحمه" " RAZ- el-Hama".

وعند حوالي منتصف النهار كان من المقرر أن نمر عبر خط الاستواء. ولم يكن العرب يمارسون عادة انحناء الرأس، وكانوا مخطئين في ذلك، لأنها كانت تحرمهم من الممارسة الهزلية المفرطة ومن روح الدعابة .

كان الجزء الداخلي من تلك البقعة يطالعنا بالعديد من المناظر والمشاهد الخاصة بالكثبان الرملية، المتحركة في الواقع، بينما أتاح لنا البحر فرصة إلقاء نظرة على قطعان الأسماك ومشاهداتها بكل وضوح، إذ كانت رؤوسها تظهر من وقت لآخر فوق سطح الماء في الأماكن الضحلة. وقد أفاد بحارتنا منها في معرفة الحد الأدنى من المرسى لسفينتنا.

٨ / يناير / ١٨٣٤ م

امتدت هذه المناطق الضحلة حتى "رابغ"، وهو ميناء يقع على امتداد خط العرض ٢٢,٣ْ شمالاً . وكانت تلك المدينة الصغيرة التي تحمل هذا الاسم قد شيدت على بعد حوالي ستة أميال من المكان الذي نحن فيه. ولكونها تقع بعيداً عن عرض البحر، فقد كانت توفر "بانوراما" سارة للغاية.

وقد كانت المنطقة المحيطة بها تحتوى على كمية لا يستهان بها من أشجار النخيل، ومع ذلك فإن من المحزن عدم الاحتفاظ بأية فكرة دقيقة عن مخططها، وذلك بسبب "السراب" الذي أعاقنا عن مشاهدتها بصورة كاملة. وهي تشكل النقطة التي جرت العادة بأن يقوم فيها الحجاج بارتداء ملابس الإحرام[1] والذي يتكون من قطعتين من القماش القطني منفصلتين بعضهما عن بعض وغير مخيطتين، تلف إحداهما حول الخاصرة بينما يتم

---

(١) (هذا التعبير الذي يحتفل فيه بتبديل الزي يوجد في الصفحة رقم (١٠) من هذه المذكرة). يعد الإقليم المحيط بمكة بمثابة شيء مقدس لدى المسلمين. واتباعا لتعاليم دينهم يقوم الحجاج عند وصولهم إلي هذه النقطة إلزامياً بترك ملابسهم العادية جنبا وارتداء ملابس الإحرام الذي يجب أن يكون ساتراً وألا يكون قد تم ارتداؤه مسبقاً. ويفترض أن يكون هذا التقليد معروفاً جيداً لدى قرائي، إذ يتم هذه الأيام تركيز المزيد من الاهتمام على الشرق وعلى ممارساتهم وأسلوب حياتهم. وسوف أعقب فقط على أن هذه العادة=

استعمال الأخرى في تغطية الأكتاف.

وقد قام المسلمون الورعون بالطلب إلى القبطان لكي يقوم بالرسو بهم على أرض جافة، وقد كانت لهفتهم شديدة للقيام بالاغتسال والتطهر هناك، لكن القبطان رفض ذلك كلية معلنا أنه، حسب التقاليد المتبعة، فإن الاحتفال بهذه الشعيرة يجب أن يتم على ظهر المركب في الوقت الذي كنا فيه جميعنا قبالة رابغ.

٩ / يناير / ١٨٣٤ م

الآن تم تركنا على ميمنة جزيرة "Oum- el- Mech" التي بتنا ليلتنا بجوارها.

وعند حلول الليلة الثانية كنا قد ألقينا مراسينا. بجوار "ثول" وهي مدينة صغيرة تقع بعيداً كثيراً عن البحر لدرجة لم يكن بمقدورنا أن نفكر بزيارتها.

١٠ / يناير / ١٨٣٤ م

في ذلك اليوم بذل كل منا محاولة كي يكون مستعداً وجاهزاً تماماً، كما يحدث في كل سفينة عندما تكون الرحلة قد شارفت على انتهائها. وقد برز كل منا على السطح مرتدياً أفضل ما لديه من ملابس بغرض الظهور بالمظهر اللائق وهو على الأرض المقدسة.

= قد لاقت قبولاً كثيراً لدى التجار العرب، ويبدو أنها كانت قد أرسيت بواسطة محمد (صلى الله عليه وسلم) أساساً بغرض ترويج التجارة في أرض آبائه (ملاحظة المؤلف).
وهذا يظل تفسيره الشخصي لفكرة الإحرام والذي لا يتفق إطلاقاً مع المفهوم الإسلامي للإحرام.(المترجم).

وقد قمنا نحن الأوربيين بتقليد ما يقوم به المسلمون، وقد قام كثيرون، داخل مجموعاتهم، بتقديم أنفسهم إلى الحلاق لحلاقة شعر رؤوسهم. وقد كان الحلاق أساساً من سكان القاهرة والذي كان يقوم بذلك حسب التقاليد المتعارف عليها بالنسبة لأولئك الرجال من هذا الجنس، إذ ينتهز الفرصة ليحكي لنا رواية في شكل تقرير موجز يمثل القيل والقال الذي كان سائداً وسط الحجاج.

وقد قال الحلاق: "إذا وصلنا إلى جدة اليوم فسيكون المشط وملحقاته في حاجة شديدة وماسة لخدماتي".

واستفسر واحد من مجموعتنا: "ولماذا يحدث ذلك؟".

"في البداية أقول: إن خادم أولئك النسوة الثلاث اللائي لم يحركن شيئاً أكثر من المومياء منذ صعودهن على متن هذه الباخرة في السويس، قد كان شاباً طيب المعشر وقد ألفته كثيراً. وليس هنالك شخص سواه قد تحدث لي في سرية تامة بأن زواجه سوف يتم القيام به بعد أيام قليلة من وصولنا على اليابسة".

"وهل هذا هو كل شيء؟".

"ولا قطرة منه: لقد عقدت زوجة أحد أصدقائي العزم على طلاق زوجها لأنه صار غيوراً إلى حد ما من ابنه الشرعي وهي تريد أن تحل محله زوجاً آخر، وهو على وجه التحديد ذلك البحار النشيط والذي كان في هذه اللحظة يرى جالساً في قمة الصاري".

"وذلك التركي العجوز ذو اللحية البيضاء، هل صحيح ما يقال عنه إنه سوف يضطر لطلاق كل حريمه؟".

"نعم إنه صحيح، إذ إنه منذ صعوده على متن الباخرة صارت نساؤه يقمن من وقت لآخر بالاستحمام اليومي دون أن يستترن عن المسافرين لدرجة أن الزوج لم يعد قادراً على حراسة زوجاته اللائي صارت عوراتهن مكشوفة، يراها آخرون غيره".

"لكن هذا ليس من العدل، فلو كان بالتأكيد عازماً على منع هذه الممارسة الكريهة، لكان بمقدوره أن يقوم بطلاء الكابينة الخاصة به في السفينة باللون الأسود، وفي هذه الحالة كان سيتم حجب زوجاته وسترهن جيداً وكأنهن خلف أسوار حريمه. أما الآن فإن النتيجة هي بقاء زوجاته دون أي أحد يمكنهن اللجوء إليه أو الاعتماد عليه وأيديهن خالية من المال، فهل يتوجب عليهن الاعتماد على سوء الطالع كلية ما دمن كن بعيدات للغاية عن موطنهن الأصلي؟". "ولماذا يحدث ذلك؟ يتوجب على الزوج، قبل أن يرفضهن أو يتخلص منهن كلية، أن يقوم بدفع مؤخر الصداق الذي حدد حين عقده عليهن. إضافة إلى ذلك، وبصرف النظر عنه، فما هو سوء الطالع الذي سيلازمهن من بين بقية الحجيج جميعاً في حالة فشلهن في الدخول في زواج جديد؟".

"أوه ! إذن فالأمر كذلك، ما زال يوجد وسط ظروفنا الزائفة من الراحة كثير من البناء المضطرب. عموماً هناك كثير من الخطط للزواج والطلاق التي تم الاتفاق عليها مسبقاً، وبالعدم، حتى دون أن نبدأ بالبحث والتحري عنها؟".

"نعم لكني لم أفرغ تماماً من حديثي حتى الآن. فهنالك هذا الفلاح المصري الذي يمضي كل يومه وهو يمضغ خبزه وجبنته اللذين هما من

الصلابة كالحجارة، والذي يرغب في التخلص من زوجته، فقط لأنها كانت في اليوم السابق قد مرضت واستفرغت على مائدته المكونة من (البيلاف)[1] وكذلك على ذقنه في الوقت الذي كانت تعاني فيه من دوار البحر".

الآن أذن الإمام لصلاة الظهر، وعليه أنهى الحلاق حديثه بغرض الذهاب للوضوء. وكنا ما زلنا حتى ذلك الوقت في مواجهة "أبحر".

وأذكر أننا كنا نستطلع من تلك النقطة نهراً يندفع بقوة ليصب في البحر، ولذلك فقد أصابنا كثير من الإحباط عندما أبلغنا القبطان بأن ذلك لا يعدو أن يكون أكثر من مجرد بوغاز ضيق يقوم بالتغلغل لعدة أميال في داخل اليابسة.

وقبل انقضاء زمن طويل أعلن البحار بأننا قد وصلنا إلى جدة، وبالتأكيد لم نضيِّع وقتاً في إلقاء نظرة على الأشرعة الطويلة للسفن الراسية وكذلك على منارات المساجد.

كانت المدينة نفسها تشع بكل المظاهر الخارجية التي تدل على الثراء الوافر الذي أدهشنا، والذي وجدنا أن هنالك ما يبرره. وبما أن المدينة كانت تمثل إحدى نقاطنا، فقد كان لزاماً علينا أن نمضي فيها فترة ليست بالقصيرة.

وفي الساعة الرابعة من الجزء المتبقي كانت "أبو جاموس" قد قدر لها أن تلقي مراسيها للمرة الأخيرة.

والآن قام الحجاج بالتحديق في تلك البقعة المقدسة وهم في حالة من

(١) هو طبق شرقي يتكون من الأرز والزبد. (المؤلف).

التأمل الروحاني، إذ كانت هي وجهتهم الأخيرة المقصودة بعد رحلتهم الطويلة والمشوبة بالمعاناة والأخطار.

وقد وجد كثيرون منهم أن بمقدورهم أن يقوموا ببساطة بالتحديق في هذه الرقعة المحددة من الأرض، وهم ينادون بأصوات غلبت عليها العاطفة الدينية، وهم يذكرون اسمها وعيونهم مغرورقة بالدموع.

وقد ظهر في ذلك المساء القمر وهو في شكل هلالي في السماء، ويعني هذا أن هذا هو اليوم الأول من الشهر بالنسبة للمسلمين. وقد أعلنت طلقات المدافع للمسلمين أن شهر شعبان قد انتهى، وأنه بظهور الهلال الجديد يكون شهر رمضان قد أطل وهو يحمل معه كل مسراته وكبحه لشهوات الجسد.

الفصل الثالث

شيدت مدينة جدة على حصباء رملية. وقد كانت منازلها العالية ومناراتها الشاهقة تقف سامقة مثلما تقف وسائل الإسناد المسرحي في مواجهة القماش الخلفي الذي يرسم لوحة لسماء لازوردية. وقد كان بمقدور المواطنين وهم يجلسون علي أسطح منازلهم كل مساء، أن يحدقوا في تأمل روحاني في انعكاس ضوء النجوم على سطح البحر الرقيق، أو أن يستلقوا وهم في حالة من النعاس على أصوات هدير البحر الذي يتحول إلى هيجان صاخب بفعل قوة هبوب الرياح الشمالية.

وخلال ساعات النهار يكون الميناء والطرقات بالمدينة عرضة لكثير من الازدحام، وتجتازها جيئة وذهاباً أرتال من المركبات الخفيفة، مشكلة نوعاً من وسائل النقل المتحركة التي تعبُر بين المدينة نفسها وبين السفن الراسية على البعد. وقد كان الأثر الإجمالي عموماً غاية في الروعة، ولكن مع بالغ التقدير لكبار السن من المسلمين، الذين لا يرون الاعتماد على المظاهر الخارجية، فقد تكون مظاهرهم الخارجية ونظراتهم خادعة بالنسبة لك، ولربما يكون المقصود من ورائها هو تحريرك من الأوهام فيما يتعلق بأفكارك السابقة التي قمت بتكوينها عنهم.

ويجب مقارنتها بالفرائح المقدسة التي جرى الحديث عنها في الكتب المقدسة، البيضاء من الخارج، والتي تظل خاضعة وعرضة للتعفن والفساد من الداخل.

وفي اليوم التالي لوصولنا تم إسكاننا بمنزل جميل ذي موقع يطل على كل أسطح المنازل المجاورة له. ومن الأبراج العالية تمتد البانوراما باتجاه الريف الداخلي حيث تطل هذه الظاهرة في كل يوم على، أو حول، الشوارع التي تعج بالحركة نتيجة لقدوم السفن التي تقوم بنقل الحجيج.

وخلال تلك الأيام المحددة التي جرى تمضيتها في وسط المهرجانات، التي كانت من المشاهد العادية في تلك الأوقات المبكرة عندما يلتقي الرفاق بعضهم مع بعض على أرض بعيدة عن بلدهم، حيث يتم تبادل التحايا بيننا نحن الأوربيين. مع ذلك فقد كان الحنين الذي يتطلع إليه المرء لاحقاً بعد أن يكون قد خلا إلى نفسه بعيداً عن رفاقه من الرجال، الذين يكونون في وضع مشابه له، وذلك بغرض الاستمتاع بكامل حريته، دون أن يضيع الوقت في المظاهر، فقد كانت كل مجموعة تتحلق مجتمعة في منزل معين، حيث كان الناس يكررون اللقاءات بعضهم مع بعض على فترات متقطعة ومتباعدة.

يمكن أن يكون العيش وسط مجموعات طائفية أو عرقية (كميونية) عملياً فقط على أساس المساواة التامة بين أولئك الذين قاموا بتأسيس زمالة حقيقية وجادة ، بينما كان الوضع وسط الأجانب الذين رسوا في جدة متمايزاً حيث كانت هناك طبقات من السادة والمستضعفين.

وكان الأوائل منهم يلتزمون بأن يقوموا باحترام الآخرين في حالة قيامهم بواجباتهم ومهامهم العادية. وتبعا لذلك فإن هذا الاحترام ينتهي بمجرد عودتهم إلى ممارسة حياتهم الخاصة. وعليه فإن الرجال الفرنسيين أو الإيطاليين، عندما يكونون في الشرق، ولمجرد شعورهم بأنهم من الأوربيين،

لم تكن لديهم الرغبة لتقدير نوع من السلطة واحترامه أو الانصياع له، وكان أقل الموظفين رتبة أو أهمية نادراً ما يقوم بتحية الكولونيل أو الجنرال أو الباشا إلا بتثاقل وتلكؤ شديدين.

ويصحب روح عدم الانقياد هذه الولع "بالكانكان" (رقصة فرنسية خليعة)، والقيل والقال المخزي. وتحت تأثيره لا تكون هناك ستارة على باب أي مقهى باريسي يمكنه ألا يقود إلى الإحساس بالزهو والغرور بالمكان بالنسبة للأوربيين الموجودين بالقاهرة، وإحساسهم بالمرح والنشاط والشفافية التي جعلت من العبارة الآتية مشهورة في مصر "أي مكان يوجد فيه اثنان من الفرنسيين، حتى ولو كانا في الصحراء، فإن ذلك يعني وجود العديد منهم".

خلال فترة إقامتي في جدة سنحت لي الفرصة لإقامة صداقات جادة وسط العديد من الأشخاص المتفهمين في تلك المدينة، وقد قوبلت منهم بالترحيب الجيد والحار، وكنا نتحدث بصورة محددة فقط في المسائل الدينية، وكنت عادة ما أرتب الحديث بصورة تسلط الضوء على طريقة حياة العرب والحالة الراهنة والمتعلقة بظروف حضاراتهم الخاصة.

وقد ساعدت ذقني التي أطلقتها وزيي الشرقي الذي كنت أرتديه عادة في تمتعي بشكرهم وترحابهم الحار، وكان ذلك بصفة عامة ينطبق على مواطني المدينة من شتى الطبقات الاجتماعية. وقد كانوا يميزون بيني وبين بقية الأوربيين الآخرين بصورة سريعة، إذ كان جميع الأوربيين الآخرين حليقي اللحى والشوارب، وكانوا يطلقون علي عبارة " cheikr-Frangi" شيخ فرنجي" وقد كنت أفضل بشدة عدم الاختلاف مع أي شخص عن طريق

مجادلته في آرائه أو الاعتراض على وجهة نظره. كما كنت أحترم عادات المواطنين وتقاليدهم وممارساتهم، وفوق كل هذا وذاك ديانتهم.

وحصيلة لهذا التوجه، الذي لم تكن هناك أية صعوبة في اتباعه ووضعه موضع التنفيذ، فقد تم منحي"حصانة" من الاحتقار، بل والكراهية التي كان المواطنون المتزمتون من سكان هذا الإقليم يلزمون أنفسهم بتطبيقها على كل شخص لا يكون مسلماً.

كنا على وشك البدء برحلة للتجول في وسط المدينة، لكن قبل أن نبدأ بذلك دعنا نسمع من لسان دليلنا عن تلك الظروف الشبيهة بالمعجزة التي أدت إلى نشوء مدينة جدة لكي يكون أول ما نبدأ به.

قال لي الأعرابي: "في يوم بعينه كان اثنان من صائدي الأسماك الوثنيين مشغولين بإصلاح شباكهما وترميمها داخل أحد الأكواخ الواقعة على شاطئ هذا البحر، وعندما حان الوقت المفضل للقيام بالصيد قام أحدهما بالخروج من الكوخ بغية نصب شبكته في الماء، وعندما التفت نحو الجهة الغربية شاهد رجلاً كان يقف منتصباً فوق جزيرة معزولة وبعيدة من الجانب المطل على الماء. فصعق لهذا الاكتشاف وقفل راجعاً إلى داخل منزله حيث أفضى بذلك لرفيقه".

فقال له الرجل الآخر: "حسنا، ليس هناك ما يدهش، فلا شك أن صائد الأسماك هذا قد وصل إلى هناك مبكراً أكثر منا. الشيء الذي يزعجني كثيراً هو الفكرة التي أعتقد على أساسها أنه سيؤمن صيداً أفضل من البحر، بينما نحصل منه نحن فقط على البذور والحجارة"(١).

(١) هذا هو تعبير عربي مشابه للمثل الفرنسي الخاص بالأصداف والمحار. (المؤلف).

"يبدو لي ذلك أقل احتمالاً، إذ أنه أبعد كثيراً في زيه عن أولئك الأشخاص الذين هم من طبقتنا ".

"وما هو في الحقيقة الزي الذي يرتديه ؟".

"إنه كزي مواطني مكة الأثرياء ".

"إذن ربما يكون ذلك الرجل ضحية إحدى السفن التي تحطمت، دعنا نحمل أنفسنا بعبوة ثم نذهب لإعادته مرة أخرى".

"مع ذلك لا شيء مطلقاً يمكن أن يوضح أو يدل على وجود أية مركبة، حتى ولو كانت خفيفة، بينما بالنسبة لملابسه فهي تبدو محترمة بشكل واضح وكأنها قد تمت حياكتها يدوياً بواسطة أحد الخياطين".

"في تلك الحالة من عدم اليقين أو التأكد التي كنا فيها، بدأنا نلقي بشباكنا في البحر، وسرنا نقترب من الجزيرة دون أن نبذل مجهوداً يبدو منه أننا نولي أمره أي نوع من الاهتمام، فهو سيقوم في نهاية المطاف بمناداتنا إن كان بالفعل في حاجة لمساعدتنا ".

"هذه عموماً فكرة جيدة، وقد يكون أسلوبنا في معالجة هذا الموضوع أفضل وأكثر جدوى بالنسبة لنا من ناحية العائد المادي، وبدرجة ربما تفوق عملنا في صيد الأسماك لفترة أسبوعين. وبالتأكيد فهذا الرجل يبدو ثرياً بحق، استناداً على الملابس التي يرتديها ".

قام صائدا الأسماك بجر قاربهما الخشبي على الشاطئ الحجري حتى وضعاه في البحر. وبينما شغل أحدهما نفسه بالتجديف، قام الآخر بجذب شباكه وتفقدها بين الفينة والأخرى. وقد مرا عبر مسيرتهما على بعض الأعشاب البحرية والأسماك الصدفية الفاقدة للحياة.

قال الرجل الآخر: "لدي هاجس قوي للتنبؤ بأن يوم صيدنا هذا لن يكون مبشراً بالخير. فمنذ أن بدأ ذلك الذي يدعي النبوة[1] يشجب معتقداتنا الدينية،

فقد صارت أوثاننا الساخطة تنتقم منا بسبب هذا التدنيس الذي أصاب قدسيتها، وعليه فلن تحتوي هذه الشواطئ قريباً على أية أسماك".

"ربما كان ذلك صحيحاً بأننا قد نعاقب بواسطة آلهتنا لو تركنا ذلك الرجل يبقى على هذه الجزيرة المنعزلة دون أن نمد له يد المساعدة ".

"مع ذلك فهي تعلم بأن هدفنا هو الذهاب إلى هناك لتقديم العون له".

"حسنا، ما الذي يمكن أن يؤخرنا الآن؟ فقط جذبتان للمجاديف وسنكون هناك".

"دع ذلك لي".

تم دفع القارب إلى الأمام بذراعين قويتين، فشق طريقه إلى الضفة وهو يدفع أمامه كمية كبيرة من المياه التي بللت حذاء ذلك الشخص الغريب غير المعروف.

وخاطبهما ذلك الرجل:" رجلان شجاعان " لقد جئتما بكل نبل وشرف لمساعدة أحد رفاقكما، ولقد لاحظت أن رحلة صيدكما لم تكن مثمرة. خذاني معكما فقط إلى اليابسة وستكون المكافأة التي سوف أمنحكما إياها كفيلة بتمكينكما من تعليق شباككما بمنازلكما والعيش في سهولة ويسر

(١) ورد في بداية هذه القصة التي يشير إليها الكاتب أن المتحاورين كانوا وثنيين، ومن المعروف أن المشركين كانوا يقولون بإدعاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم للنبوة وقد كذبوا فيما أدعوه حيث أظهر الله دعوته ونصر نبيهُ. (المترجم).

طيلة الفترة المتبقية من أعماركما".

قام صائدا الأسماك بوضع الأعرابي في زورقهما وقاما في عودتهما بنشر عباءتيهما بدلاً من نشر الشراع[1] وعند وصولهما إلى اليابسة قام الرجل الغريب بالسجود على الأرض شاكراً لله على إنقاذه له.

ومن خلال تصرفاته ونهجه علم منقذاه أنه مسلم. وقبل أن يكمل صلاته قال أحد الأعراب العائد من رحلته في صيد السمك لرفيقيه الاثنين:

"هل تعرفان يا صديقيَّ أي نوع من الرجال ذلك الذي قمتما بإنقاذه؟ وهل يجوز لي أن أخبركما بأنني كنت على الماء عندما قام بتعريفي بنفسه. وبعد محادثة قصيرة كأن قد سمح لشاله بالسقوط في البحر، وبعدها قام الماء فوراً بالانشطار إلى نصفين متيحاً له وسيلة واضحة للعبور، وقد وصل إلى الجزيرة التي وجدتماه فيها بقدمين جافتين لم يصبهما البلل. وقد عاد المحيط فوراً إلى مستواه الذي كان عليه سابقاً ".

وبمجرد توقفه عن الحديث برز الرجل الغريب، ثم قال موجهاً كلامه إلى صائدي الأسماك:

"كل الذي سمعتماه قبل قليل هو الحقيقة عينها. من أجل الهروب من الاضطهاد الذي وجهه ضدي أهل مكة، فقد صممت أن أسافر مهاجراً إلى الحبشة، وذلك بغرض إعطاء المزيد من الوقت لأحقادهم كي تزول. وقد فتح لي البحر نفسه ممراً لكي أعبر عليه، ومع ذلك فقد قررت أنا، بعد أن وضعت في الاعتبار الأعداد الكبيرة من البشر الذين ضحوا بأنفسهم نيابة عني وبسبب قراري هذا، أن أتخلى عن رحلتي هذه عند هذا الحد، وقد

(١) هو نوع من معطف عربي مصنوع من وبر الإبل (المؤلف).

شـعـرت أنني أكـثـر تصـمـيـمـاً من أي وقت مـضى لمواصلة الكفـاح ضـد خصومي. وعليه وبغـرض القيام بتخليد ما قمتما به نحوي من جميل يدوم ذكره أبد الدهر، فإنني على وشك أن أقوم بإرساء دعائم مدينة سوف تعرف باسم "جدة " وسوف تكونان أنتما من أوائل سكانها.

اعلمـا أنني أنا مـحـمـد رسـول الله، واسـجـدا لله الذي لا إله إلا هو واعبداه".

وقـد قـام صـائدا الأسـمـاك، بعـد أن غلبت عليهـمـا عـبـارات الرسـول وتصـرفـاته وبهـرتهم، بالإيمان بدعوته، فـأصـبـحـا بالتـالي من أفضل المؤمنين وأشـدهم صـدقاً وإيماناً. وعـاشـا سـعيـدين في هذه المدينة الجـديـدة، وكانا يعـتقـدان أنهـمـا بعـد وفـاتهـمـا سيـتبـوآن مكانهـمـا وسط الحـدائق والسـرر المرفوعة التي خصصت للمؤمنين ".

لم تكن جدة حينذاك تحتل الموقع نفسه الذي تشغله الآن. وشيئاً فشيئا تراجع البـحـر وانحسـر، وكان المواطنون دائماً يقومـون بتشـيـيـد منازلهم على ذلك الشريط نفسه من اليابسة الذي تتحسر عنه المياه، وذلـك أنه في حالة استمـرار انحسـار البـحـر على هذا النحـو ربمـا صـار من الممكن توقع نهـاية وصولهم على سواحل أفريقيا نفسها(١).

---

(١) هذه الرواية التي نقلها المؤلف عن نشؤ مدينة جدة تظل من الروايات الشعبيـة التي تحيكها المخيلة الشـعـبية عن تاريخ المدن، ولقـربها من مكة بل هـي بوابتها الرئيسـة، فقـد ربطت الحكاية نشـوء المدينة بظهـور الرسـالة الإسـلامـيـة وبرسـول هذه الدعـوة عليـه الصـلاة والسـلام وليس لهذه الحكاية مـرجعية تاريخية ولا ذكـر فيما ورد عن مـدينة جدة في كتب التاريخ (المترجم).

كان هذا هو التحليل الذي أعطي لي بواسطة سكان مدينة جدة. وقد بذلت كل ما في وسعي للاحتفاظ، بقدر الإمكان، بالطابع المحلي الذي كان العرب يحنون إلى خلطه مع كل أوصافهم.

خاطبني دليلي: "إذا كنت موافقاً فسوف نشرع في جولة حول الأطراف، وبعدها سوف نذهب مباشرة، حسبما ترغب فيه، إلى وسط المدينة ".

"هذا يناسبني بكل سرور، ولكن دعنا نبدأ مباشرة بالأطراف الشمالية التي لمحت فيها من على البعد ضريح حواء".

"حسنا، أوافق على ذلك، ولكن بشرط واحد". "ما هو".

"هو أنني لن تبلغ بي الجرأة حداً أسمح لك فيه بالدخول لأبعد من القبة التي ترقد فيها أمنا حواء[1] داخل ضريحها". "وما السبب في ذلك؟".

"أنت لست من المؤمنين الصادقين، وسوف أحاسب على ذلك حساباً عسيراً أمام الله في اليوم الآخر.

"إنني أحترم معتقداتك، لكن كان من الأجدر بي أن أعثر على وسيلة أخرى تتيح لي أن أضع نفسي في هذا المكان دون أن أكون سبباً في أية مضايقات لك".

"مع ذلك، فكل شخص سيكون مسؤولاً عما يقوم به من أعمال".

سألني دليلي: "هل ترى تلك البوابة ؟ إنها بوابة المدينة[2] التي يقع فيها قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم). وهي ليست البوابة التي تسافر عبرها القافلة حتى تصل إلى المدينة. أما طواحين الهواء المركبة على هذه الرابية

(١) الاسم العربي الذي يطلق على حواء Eve وهو "Eouan" (المؤلف).

(٢) باب المدينة. (المؤلف).

فـقـد تم تشـيـيـدهـا بواسـطة إبراهيم باشـا[1] على نسق تلك الموجـودة بالإسكندرية، ومن المؤكد أنه يزعم بأنها تمثل من كل الجوانب تلك الموجودة بموطنكم الأصلي".

"إنها بالفعل كذلك، الفارق الوحيد هو أن تلك الموجودة بوطني تحتوي فقط على أربعة أشرعة، بينما تلك الموجودة هنا تحتوي على ثمانية منها".

"بصرف النظر تماماً عن النقطة الخاصة بعدد الأذرعة يجب ملاحظة أنهم قد أجبروا على تركها كلية"، وذلك لعدم توافر العمال القادرين على إصلاحها وصيانتها. بالإضافة إلى ذلك فقد درج محمد علي[2]، خلال الفترة النهائية لوجوده هنا، على تقديم الخبز للجنود. وقد كان يدعي، فيما يبدو، أن نوعاً معيناً من الخبز المتصلب الذي يزن نصف رطل[3] هو أكثر فائدة لهم من رطل كامل من الدقيق.

وبناء على تأكيداته الجازمة هذه فقد كانوا يحكمون على الفائدة - أو القيمة الغذائية - الموجودة في حصصهم من المواد الغذائية الأساسية، ليس

---

(١) ربما يكون إبراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر الذي قاد حملته المشهورة على نجد عام ١٨١٨م عن طريق الحجاز وكان إضافة إلى كونه قائداً للحملة قد ولي مسؤولية إدارة شؤون الحجاز وغيرها من المناطق التي خضعت لحكم والده في الجزيرة العربية ومن غير المعروف تاريخ إنشاء هذه الطواحين الهوائية بها، وهل كانت قبل توجهه إلى نجد أم بعد عودته منها، أم أنشأها من جاء بعده من الحكام، فالأمر يحتاج إلى مزيد بحث. (المترجم).

(٢) هو محمد علي باشا والى مصر (١٨٠٥-١٨٤٩) وقد جاء بنفسه إلى الحجاز عام ١٨١٤م وقاد قواته ضد قوى التحالف العسيري النجدي، وتمكن بعد عناء شديد من هزيمة ذلك التحالف في معركة يناير ١٨١٥م والقضاء على سر قوة ذلك بالاستيلاء على عسير التي شكلت أقوى مناطق التحدي لحكمه وللحكم العثماني من بعده (المترجم).

(٣) الرطل من وحدات قياس الوزن (المترجم).

على أي أساس آخر سوى الوقت الذي يتم تمضيته في عملية مضغها وابتلاعها . وهو يبدو كأن شخصاً ما قد أعلن أن السبب في الأفضلية التي يوليها الكلب للعظم على اللحم ناشئة عن رغبته في شغل نفسه بمضغه بصورة مستمرة ومنظمة على مدار اليوم".

"هذا شيء مناف للعقل كلية " ، بل هو غير عادل أيضاً، لكنه يعد اقتصادياً، وبالطبع فقد كان محمد علي مهتماً فقط بالحصول على هذا الخيار الأخير".

كنا آنذاك نقترب من إحدى النقاط المواجهة لباب مكة (بوابة مكة). وقد كان عدد الحجاج الذين عبروا من خلاله في رحلتهم كبيراً، مثل عدد قطرات الماء التي تتكون منها المحيطات.

وقد اشتمل هذان البرجان على العديد من قطع المدفعية التي تم جلبها إلى هنا منذ مغادرة "تركجه بيلماز"(١) وقد زينت جدران الأسوار بمقتطفات من الآيات القرآنية التي كانت تستخدم بصورة لا متناهية لتعيد إلى أذهان المؤمنين كيفية احترام هذا الكتاب المقدس وتبجيله.

قلت مخاطباً دليلي: "لقد كنت أعتقد فيما سبق أن الأوربيين ليس لهم الحق في الاقتراب من هذه البوابة ". "أجاب قائلاً: " قبل غزو محمد علي

(١) هذا هو اسم قائد سلاح الفرسان الذي قام بتحريك الثورة في الحجاز وإشعالها. وقد أجبر على الجلاء عن هذه البقعة المقدسة قبيل وصول بعثتنا. (المؤلف) اتجه هذا القائد المتمرد على محمد علي باشا إلى السواحل العسيرية حيث تحالف مع أمير عسير حينذاك علي بن مجثل الذي كان بدوره يقود حرباً شرسة ضد قوات محمد علي في السواحل العسيرية واليمنية، ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الحلفاء مما اضطر الأمير علي بن مجثل إلى القضاء عليه وعلى جنوده (المترجم).

لم يكن يسمح للمسيحيين بالتعدي إلى ما وراء البازار (السوق). ومؤخراً قام بعض الزوار الإنجليز، الذين كانوا يرتدون زي بلدهم الأصلي، ببذل محاولة للسير قدماًحتى هذا الموضع، لكنهم صاروا هدفاً للرشق بالحجارة.

مع ذلك فإن بمقدور من يرتدون الزي التركي التجول والسير قدماً بكل حرية في كل مكان دون التعرض لأي عقوبة".

"دعنا نقوم بجولة سريعة في المدينة؛ لأن حرارة الشمس قد بدأت تتسبب في فوران دماغي، وكأنه قد صار يغلي بالفعل في داخل رأسي".

"سوف نأخذ الطريق الذي يمر عبر بوابة "باب اليمن" التي تشاهدها أمامك.

وقد كان يتم إغلاق البوابة من وقت لآخر بغرض مرور أقل عدد من الناس عبرها، ولم يكن هناك أي فيلق من فيالق الحراسة قد تم وضعه في هذه النقطة، شأنها شأن بوابات المدينة ومكة.

في ذلك الوقت من اليوم كانت الشمس تشتعل مثل الشهب المشعة من موقد بخاري وهي مسلطة على الأجزاء الخارجية البيضاء للمنازل، وكذلك الأطراف الخارجية للمدينة. وقد انعكست أشعتها من فوق الجبال على الشاطئ الرملي والخالي والمنعزل، على التلال الرملية التي كانت المزروعات فيها ذابلة، بحيث صارت تشكل ثقلاً لا يطاق بالنسبة لرئتيك، وتلف نظرك بصورة قاسية، بحيث يمكن لعينيك فقط أن تهربا من التمزق الناجم عن هذا المشهد المخيف، عن طريق التحليق في وسط البحر الأزرق اللازوردي الساكن الذي يمتد صفاؤه ليقوم بتزويد روحك نفسها بالنزر اليسير من الطمأنينة والجو البارد المنعش.

وفي الجـانب الشـمـالي من المدينـة تنتـصب بعض النبـاتـات والصـخـور الجلمودية واقفـة وسط الرمـال، متـخـذة شكل المسـاحـة التي تؤلف نوعـاً من النقلة أو الفـاصل بين الأجـزاء المجـدبة وتلك المخـصـصـة أسـاسـاً لنمـو النبـاتات. وفي هذا الجو الآخر، باتجـاه الجنوب، فإن الخط السـاخن يتكون من صحـراء كئيبـة ومـوحشـة يتـخللهـا هنا وهناك نمو الطحـالب البـحـرية الخضراء مثل العشب البحري، وقد تكدس فوق جنباته بعض الزبد الرغوي الذي يتم جلبه عن طريق حركة انتقال المد المستمرة.

مع ذلك، فقد تعلم سكان مدينة جدة كيفية استخلاص الفوائد وجنيها من هذه النبـاتات العقيمـة. فعلى سطحها كانوا يقـومون بإحداث تجـويفـات مشـابهة للحفريات أو الثقوب المجوفة لكي تطفو مع مياه البحر. ونتيـجة للتبـخـر تترسب كمـيـة من الملح في أسـفل هذه الأحـواض تكفي لاسـتـهلاك المدينة وتزيد.

أمـا في الواجـهـة الشـرقـيـة فقـد كانت الأطراف مـحـمـيـة بوسـاطة خندق مائي يبدو بحالة جيدة للغاية، لكنها كانت بحالة سيئة في الناحية الجنوبية والشمالية.

أمـا السـور الذي يحيط بالمدينة، فقـد كانت تتخلله القـلاع، التي تخـتلف حـالتهـا من واحـدة لأخـرى، والتي كـانت الأجـزاء الرئيـسـة منهـا مـدعـومـة ومحصنة بقطع المدفعية.

وقد شيـدت اثنتان من القـلاع وكانتـا شـبـه جيدتين عمومـاً، في كل طرف من أطراف الميناء الرئيس.

وقد شيدتا خصيصاً بغرض استغلالهما في مراقبة أمن الميناء وحمايته

وسلامته. وقد تمت تعلية القلعة الواقعة في وسطهما حديثاً وفي الفترة الأخيرة. كما أن هناك سوراً عملياً يقوم على امتداد الرصيف الخاص بالميناء يصل إلى ذلك الواقع في الناحية الشمالية.

وتتخلل هذا السور أربع بوابات تطل على البحر، وهو بذلك يقوم بتكملة نظام التحصينات الخاصة بمدينة جدة كلها. وقد درجت العادة على إغلاق كل هذه البوابات أثناء أوقات الصلاة، إذ أنه طبقاً للعرف والاعتقاد السائد، فإن أهالي جدة يعتقدون أن مدينتهم سوف يتم احتلالها يوماً ما أثناء الوقت الذي يكون فيه السكان متجمعين بداخل المساجد.

تتكون مطحنة البارود (الذخيرة) من مستودع متواضع ومعزول لحفظ الذخيرة، وهو يقع بين بوابة مكة والمدينة، وبالقرب من أطراف المدينة.

وهناك دائماً جندي يقوم بواجب الحراسة .

أما بالنسبة للمنطقة المحيطة، فهي مزدحمة بالمخيمات الشبيهة بالأكواخ والمشيدة من الأخشاب وجلود الإبل.

وبما أن هذه المساكن معرضة دائماً لحرارة الشمس في هذا الإقليم المتقد الحرارة، فإنها تكون عرضة للاشتعال بصورة عالية. وفي حالة حدوث أي حريق فإنه سوف ينتشر بصورة واسعة، وبالتالي تكون سلامة المدينة بكاملها عرضة للتأثر بشدة.

ومن جانب الحصن المواجه للطرف الشمالي لاحظنا على الواجهة المطلة على المياه بطارية من أربع قطع مقاس ١٨, وللغرابة الشديدة لم تكن تباشر أية رقابة أو حراسة على أحد ما على الإطلاق. وسيكون من البساطة بمكان بالنسبة للعدو أن يقوم بحصرها وتطويقها دون أن يعترضه أو يلحظه أحد.

كان عدد أهم المساجد الموجودة بمدينة جدة خمسة، وكان أولها يحمل اسم مسجد جامع السلطان حسن[١]. وقد كان مربع الشكل، وقد تم تشييده من الأحجار المرجانية الخالصة المنقوشة بصورة ناعمة. وفي ركنه الجنوبي ارتفعت المنارة بصورة معزولة، وقد كانت في أعلاها تظهر مائلة بطريقة واضحة وظاهرة.

وخلال فترة الحج كان يتجمع على هذه المنارة الرجال المتدينون والدراويش منشدين بأصوات عالية، ويرتلون بطريقة تميل إلى عدم الإتقان، بعض الصلوات أو بعض الآيات الفعلية والنصوص القرآنية أو الأذكار الخاصة التي تمجد الله الواحد الأحد.

وكانت فتراتها تمتد إلى حوالي ثلاث ساعات أو أربع، لكننا نحن الأوربيين نجد أن آذاننا قد أصابها الملل خلال هذه الفترة الطويلة من الإنشاد لهذه الطقوس الرتيبة والمملة.

أما من جهة الغرب، فقد كان المسجد يحتوي على درج يتكون من العديد من السلالم المبلطة في شكل قوس دائري يقود المتعبدين إلى داخل وسط هذا المبنى. بالإضافة إلى ذلك يوجد هناك القليل مما هو لافت للأنظار، إن كان هناك من ذلك شيء.

أما المسجد الثاني، والمخصص للشافعية[٢]، فقد كان يقع مباشرة على أحد أطراف بوابة مكة. أما الثاني الذي يوجد بجوار مكان وصول ركاب

(١) أي مسجد السلطان حسن. (المؤلف).

(٢) هذا الاسم هو اسم واحد من أئمة المذهب السني في الدين الإسلامي (المؤلف). هكذا ورد في الأصل، ولكن يبدو أنه مسجد عكاش المشهور في جدة والذي أتى على ذكره كثير من مؤرخي مدينة جدة (المترجم).

البحر فيطلق عليه اسم "عكات". وباتجاه وسط المدينة تماماً يوجد ذلك المسجد التابع للحنفية[1]. أما الخامس فيطلق عليه اسم "محمد". وهنالك مساجد أخرى أقل أهمية، علماً بأن بعضها، والتي لم تعد هناك حاجة إليها لأغراض العبادة، قد تم تحويلها إلى مستودعات للذخيرة بناء على أوامر محمد علي.

وسوف تمر في طريقك بمدارس للأطفال الصغار في جدة، وهي تقع تحت إشراف أحد الأئمة أو الشيوخ الذي يقوم بإلقاء دروسه داخل المسجد نفسه ورقابته. ولا تحتوي المدارس هنا على أي شيء غير عادي بالنسبة لأي شخص يكون قد شاهد تلك الموجودة في الجزائر أو القاهرة أو إستانبول. إنها تمثل دائماً مشهداً للصغار وهم يجلسون القرفصاء وأرجلهم مخلوفة على بساط عادي مصنوع من سعف النخل.

وهناك لوح خشبي مصقول بشدة يكون موضوعاً في منتصف غرفتهم بالضبط حيث تتم عليه كتابة دروسهم أمامهم. وهم يقومون بقراءة أجزاء من القرآن أو تجويدها بأصوات مرتفعة، بينما يهتزون باستمرار على هذا الإيقاع، وكأنهم بهذه الطريقة يستوعبون أكثر أو يحفظون في ذاكرتهم المزيد من دروسهم هذه.

ويتمتع الشيخ بمظهر صارم، وله نظرة قاسية، ويظل يراقبهم ويشرف عليهم في حزم، وهو يأخذ مجلسه وسط المدرسة وهو يمسك بيديه، وفي كل الأوقات، بعصا لكي يكون بمقدوره تأديب الطلبة المشاكسين أو المشاغبين ومعاقبتهم. وتبدو هذه المدارس ظاهرة من مسافات بعيدة بسبب

(١) مرة أخرى هذا اسم أحد أئمة المذهب السني الآخرين (المؤلف).

الأصوات العالية والمستمرة التي تبدو أكثر ملاءمة لأحد أسواق الأوراق المالية أو أحد الأسواق العامة.

ويقع البازار الكبير على طول أحد الشوارع العريضة التي تبدو مستقيمة بصورة مناسبة. أما المنازل فهي تظهر عالية وترتفع على ركائز، وهي مزينة بكثير من الأشكال الملونة التي جرى تصميمها طبقاً لتصور فردي. أما المستودعات نفسها فتتكون من عدة متاجر مشيدة على ركائز مزدوجة وتعلو سطح الأرض. وهناك تجار يقومون بعرض عينات من بضاعتهم فقط، لكن مستودعاتهم الرئيسة تكون موجودة في غرفة أو صالة بيع خلفية يمكن للشخص الدخول إليها فقط عبر مدخل يكون منخفضا للغاية (كالقبو) وضيقاً أيضاً.

وبينما يكمن حظ التاجر في أوربا في عرضه للبضائع داخل متجره، حيث يعد ذلك ضرورياً ولازما من أجل كسب الزبائن، فإن الأمر هنا يعد مختلفا للغاية، وتبدو الأشياء معكوسة تماماً؛ إذ يشكل العدد المعروض من البضائع نسبة ضئيلة للغاية من الثروة التي يمتلكها التاجر. وبالتأكيد فإن الخوف من إثارة جشع الفئات والطبقات الحاكمة يكون مسؤولا أيضا عن تزايد هذا الترتيب التقليدي ونموه الذي صار يشكل ظاهرة تقليدية.

المحلات التجارية مغطاة ومظللة بحصائر من القش الذي يساعد على حفظ البضائع سليمة دون أن تتلفها أشعة الشمس. ويقوم التجار بتخصيص مساحة محددة لأنفسهم يغطونها ببساط أو سجادة، حيث يتخذونها مكاناً لجلوسهم يرتمون عليها بكل ثقلهم ، وبحيث تكون أرجلهم مخلوفة ويشغلون أنفسهم بمضغ نوع من الجوز أو تدخين التبغ من أنبوبة طويلة.

ويخصص كل جزء من البازار لمجموعة مختلفة من المنتجات والحرف، بحيث يشعر الشخص، من كل الجوانب، بأن هناك نوعاً من الترتيب والتنظيم الذي يندر وجوده في أوربا ذاتها والتي يكون فيها سنان المطرقة لا يبتعد مكانه كثيراً أو يفصله عن غرفة بيع القبعات النسائية إلا فاصل رفيع للغاية.

بعد ذلك مررنا باتجاه الشمال، بالمخابز وأصحاب المطاعم الذين يقومون، مقابل مبالغ محددة، ببيع أنواع من الأطعمة الجاهزة والمطبوخة مسبقاً للجمهور، وخلال تقدمنا إلى الأمام قابلتنا محلات بيع الأسلحة وبائعو الخزف والأواني الزجاجية وأصحاب المقاهي.

بعدها تحركنا هابطين إلى الجزء الجنوبي حيث مررنا بمحلات بيع الفاكهة المجففة والزيوت والزبدة والأعشاب والفواكه والقمح والفول والبرتقال والعدس والأرز، وكل أنواع الحبوب المختلفة.

خارج هذا البازار يوجد سوق آخر أصغر منه حجماً، وهو مكون من ممرين على شكل أقواس حيث يقوم التجار ببيع سلعهم. وهنا يقوم خياطو الملابس ودابغو الجلود والنحاسون وصانعو الجراك وبائعوه وغيرهم بعرض خدماتهم، وفي الوقت نفسه أقاموا مساكنهم في المكان.

وفي كل يوم يقوم المُحرِّجون (الدلالون المعينون) بصفة رسمية بالصياح بغرض بيع كل الأشياء عن طريق المزاد العلني. وتعد الجماعات التي تتجمع هنا بعضها مع بعض شيئاً ضرورياً وأساسياً، وخاصة خلال موسم الحج. ويقوم هؤلاء الدلالون[١] بالتجول وسط هذه الحشود من البشر، وهم

(١) كلمة "دلال" تعني "المحرج" الذي يقوم بمهنته علنا وأمام الجمهور (المؤلف).

يلوحون بأيديهم عارضين الأصناف والسلع التي يريدون التخلص منها، ويقومون بترسيتها على المزاود الأخير في حالة الاتفاق على السعر. ويقومون بالحصول على ٥٪ من الربح على كل هذه المبيعات لكنهم ملزمون بسداد رسوم معينة للحكومة.

وبصرف النظر عن هذه الضريبة، فإن مستوى معيشة هؤلاء فيه كثير من البذخ والرفاهية. ويمكنك أن تلاحظ ذلك بوضوح من خلال بدانتهم. ودليلاً على مستوى دخلهم يمكن أيضاً ظهور ذلك بوضوح من خلال ملابسهم التي يرتدونها. وقد يحدث أحياناً أن بعض الأشخاص الأثرياء يتعرض لنقص في السيولة في فترات معينة فيلجأون إلى عملية امتهان مهنة "الدلالة" هذه.

وهنا، مع الامتنان للمنافسة التي تزداد وتنمو نتيجة للمناقصة، فيمكن أن يتم بيع سلعهم وأملاكهم بأسعار معقولة، بينما يقومون خلال بضعة أيام قليلة باستعادة هذه الأملاك والسلع لأنفسهم مرة أخرى وبالأسلوب نفسه.

وقد شاهدت القليل من الجند، وهم يبيعون أسلحتهم، وحتى بزاتهم العسكرية، وذلك بغرض شراء بعض العبيد أو الخدم الذين اعتادوا عليهم، بينما هناك آخرون جاؤوا يسوقون خدمهم إلى هذا السوق، حتى مع حبهم وتقديرهم الشديد الذي يكنونه لهم، وذلك بغرض سداد بعض الديون المستحقة لصاحب دَيْنٍ لا يرحم.

وعلى امتداد البازار كان من الملاحظ وجود كثير من المقاهي التي تعج بالناس سواء من المواطنين أو الأجانب الذين اعتادوا التجمع فيها. وقد كانت هذه الأماكن العامة للتجمعات مقامة تحت مظلات كبيرة مشيدة في

شكل عشة[١].

وفي مواجهة الطرف البعيد، وعلى كومة من الأتربة كانت هناك نار وقودها الفحم الحجري، تتقد باستمرار، وذلك بغرض القيام بإعداد القهوة وكذلك لإشعال دخان الغلايين أو الشيشة أو النارجيلة[٢] وقد جرى صف هذه الأصناف من الغلايين وترتيبها (وأدوات التدخين الأخرى) بشكل متناسق على امتداد البازار.

أما بالنسبة للأسِرَّة التي يتم الاضطجاع عليها، فقد كان يتم صنعها من فروع الأشجار التي صُنعت بطريقة خشنة ويتم تزيينها بطريقة مبسطة.

وقد كان يتم نثرها بغرض الاستعمال الداخلي خلال ساعات النهار، وبمجرد هبوط المساء كان يتم نقلها إلى الخارج.

وإلى هذا المكان يأتي المتعطلون والمتسكعون للجلوس والاسترخاء عليها، حيث يتم تقديم القهوة لهم بدون سكر، مضافاً نكهة القرفة والقرنفل والزنجبيل، ثم هناك الشربات وهو نوع من الخليط الذي يحتوي على الماء والتوابل المعدة لنقعها وشربها.

وهناك "سقاء"[٣] مثبت بصفة مستديمة في المكان، وعلى أحد الأطراف في هذا المكان توجد "قلة" مصنوعة من الخزف يتم استعمالها، طيلة الوقت،

---

(١) يطلق على مكان سكن الأشخاص العاديين عبارة "عشة" وهي تكون مشيدة من فروع الأشجار المغطاة بكاملها بالحصير أو جلود الإبل. (المؤلف).

(٢) هذه الغلايين "الشيش" الشرقية تكاد تكون معروفة جيداً في أوربا، وعليه فليست هناك من ضرورة لإعطاء تعريف أو وصف لها. (المؤلف).

(٣) هو إناء كبير لحمل الماء، مسامي (فخاري) يحفظ فيه الماء بدرجة من النقاء الحقيقي، ويعد من الأشياء الثمينة والقيمة في هذا البلد (المؤلف) ربما يكون الزير (المترجم).

في التزود بالماء البارد النقي.

أما الأسوار المحيطة بالمنطقة، فهي مزينة بالعديد من الصور التي تصور السفن الراسية وكل أشرعتها وحبالها منصوبة[1]. ويقوم أفضل أصحاب المقاهي حالاً بتعليق عدة قوارب صغيرة، وهي متدلية من أعلى السقف، وبكامل أشرعتها. ويقوم الشرقيون بالإعجاب بهذا النوع من الديكور الذي يضاعف افتتانهم وتعجبهم بأسلوب حياتهم السهلة والمبسطة، والذي يعيد إلى أذهانهم ذكريات الأخطار والمعاناة التي يكون رجال البحر عرضة لها باستمرار، والتي يحسون بأنهم باتوا على يقين بعدم تعرضهم شخصياً لها مستقبلاً أو حدوثها على الإطلاق.

أما صالونات الحلاقين، فهي تعمل أيضاً بمثابة مراكز للتجمع. وفيها يتم انتشار الأخبار وتناقلها أو حتى اختلاقها وتأليفها. وتعد الأشياء الآتية هي كل ما يلزم لممارسة مهنتهم ومزاولتها: لوحة إعلانية مكتوب عليها "حلاق"، منقوشة بأحرف نحاسية مفضضة، حزام جلدي طويل مربوط على خاصرتهم ويتدلى تقريباً حتى أقدامهم، كمية من شفرات الحلاقة، بعض الفوط القطنية للعملاء من الطبقات الفقيرة، وأخرى منها من الحرير للعملاء من الأثرياء، مرآة مستديرة مطلية بالفضة. هذا هو ما يلزمهم إجمالاً.

بالإضافة إلى ذلك فهم يتباهون بادعاء حيازتهم لإمكانيات دوائية جيدة، مع أنهم لا يمتلكون من قدرات سوى الجهل المطبق بهذا الموضوع.

ويمكن الاعتماد عليهم فقط في إمكانية قيامهم بوصف بعض دماء

(١) هذه المنحوتات هي من الأعمال اليدوية للفنانين الإغريق. (المؤلف).

الماعز بالنسبة لك، أو في أن يقوموا بسقيك، وعلى مسؤوليتك الخاصة، بعض الأدوية التي يظل استعمالها قاصراً فقط على العادات والتقاليد الشعبية، أو أن يقوموا في كل الحالات والأغراض، باستعمال عِدَدٍ أو أدوات معدنية خاصة وطبعها على جسم الشخص، بعد أن يجري تسخينها لدرجة الاحمرار[1].

تشتمل مدينة جدة على العديد من الميادين العامة التي جرى تصميمها وتخطيطها بما يكفي من الجودة. وأكثرها شهرة هو الميدان البحري الذي يشكل مسجد "عكاش" أحد جنباته. ويمكننا المرور باثنين آخرين ما زالا موجودين حتى الآن، أحدهما في مواجهة باب مكة، والآخر في قلب المدينة، لكنهما لا يحتويان على أي نوع من الديكور أو التزيين الذي يسترعي انتباهنا.

ومن بين أثرياء هذه المدينة ما زال الناس يذكرون رجلاً، كان قد أوعز وهو على فراش الموت، لبعض أهله بالقيام بعمل نافورة للعمل على إطفاء ظمأ الناس، كما هو الحال في القاهرة وغيرها من المدن الشرقية. وقد شعرت بعدم تماسك نفسي من التعليق على ذلك الحدث لدليلي.

فقال لي: هل تصدق بأن تعقيبك غير منصف أو عادل بالنسبة لسكان مدينة جدة، قد جانبك الصواب. إن أهالي القاهرة فاسقون بطبيعتهم، فهم يقضون حياتهم وسط المهرجانات واللهو، بحيث ينغمسون في الإكثار من شرب الخمور المحرمة شرعاً، وعندما يحين أجلهم فإن الخوف من محاسبتهم ووضعهم في نار جهنم يقلب أفكارهم رأساً على عقب،

(١) يبدو أن المؤلف يشير إلى أدوات الكي (المترجم).

فيستغرقون في التأمل الروحاني مما يجعلهم يتركون لأمين خزينتهم (الخازندار)[1] مبلغاً من المال بغرض استغلاله في تشييد نافورة قد تساعد المارة في إطفاء ظمئهم، وبها بعض الأكواب النحاسية التي تكون متصلة بالحنفيات الصغيرة.

وهذا لا يدل على عدم الإعجاب بهم وبسنتهم الحميدة في قيامهم بإرساء دعائم هذه الصروح الحميدة الدالة على البر والتقوى.

إنه وببساطة تامة يخرج عن نطاق الخوف من زلة القدم أو التعثر في هذا الجسر الذي يشبه الصراط المستقيم كحافة الموسى، والذي يجب على المؤمنين السير عليه واتباعه قبيل وصولهم مباشرة إلى جنات الفردوس.

"على الأقل، فإني أعترف بأن هؤلاء الأشخاص الذين كانوا على درجة من الفسق والفساد في حياتهم قد قاموا بعد وفاتهم بجلب فائدة كبيرة للأحياء أكثر مما يفعله أهلوهم وأقاربهم لتطهيرهم"؟.

"وهل يقودك هذا إلى الاستنتاج بأن الرذيلة أفضل من الفضيلة ؟".

"لا . أنا أسوق هذه الحالة فقط على أساس أن الرجل الصادق في حسن نواياه يجب أن يستمد من حسن نيته وطيبة قلبه تلك الأفعال الخيرة التي يقوم بها مرتكبو أفعال الشر والرذيلة نتيجة خوفهم من العقاب".

"إنه لكذلك بالفعل. فقد تطرقت بذلك إلى موضوع لم أقم شخصياً بالتفكير فيه".

لقد جرى تخطيط مدينة جدة بطريقة أفضل كثيراً من المدن المصرية، وقد كانت طرقاتها وشوارعها واسعة ومخططة بصورة جيدة وجميلة، كما

(١) التعبير العربي يشير إلى " أمين الخزينة ". (المؤلف).

أنها كانت عموماً منظمة ومشهورة بنظافتها، وخصوصاً خلال شهر رمضان المعظم؛ وقد كانت المنازل تتكون عادة من طابقين، وأحياناً من ثلاثة طوابق. وهي مشيدة من الأحجار البركانية المسامية المستخرجة من البحر، والتي تحمل إلى المدينة على ظهور الحمير. وهذه الكتل الصخرية تعد إلى حد ما غير ملائمة إذ أنها خفيفة أكثر من اللازم، وتفتقر إلى الصلابة، وبالتالي فإن المباني التي تستعمل فيها لا تعد متماسكة بصورة جيدة.

أما أسوارها، فهي تصير بيضاء اللون عند تعرضها بصورة مكشوفة للظروف المناخية، وتقوم بتوفير مظهر خارجي لهذه المنازل تغلب عليه الأناقة والجمال اللذان تفتقر إليهما من الداخل أحياناً.

ويقوم البحر أيضاً بتوفير نوعية متوسطة الجودة من الأسمنت لا تتطلب المزيد من الخلط والمزج قبيل استخدامها فعلياً بواسطة عمال البناء.

هناك العديد من المنازل التي كانت أبوابها ومداخلها مزينة بلمسة جمالية ناعمة تنم عن ذوق رفيع. وقد كانت هذه النقوش الجمالية تحتوي على أناقة وذوق لم أشهده في أي مكان بالجزيرة العربية.

ولقد أمضيت أحياناً العديد من الساعات وأنا أتمعن وأجوس في أحياء المدينة هذه التي توجد بها "الحريم" والتي كانت ذات ملامح فنية ومعمارية متميزة للغاية، مستغلاً الفرصة للظهور بمظهر من يقوم بالاستفسار العفوي خلسة. وقد توصلت إلى معرفة أن استخدام الخطوط المستقيمة والأقواس قد تم تجاهله في كل واحدة من هذه التصميمات. وفي واقع الأمر فإن الأقواس التي صادفناها هنا تشير إلى ارتباطها بصورة خفيفة بالنهج الهندي في الرسم أكثر من ارتباطها بالنهج العربي.

ولم يعمل المعماريون على تذليل معضلة تشييد درج السلالم بصورة حاسمة، حيث ظلت دائماً، وفي الغالب الأعم، أشد عتمة وظلمة. وقد كانت الأجزاء المختلفة من الشقة نفسها نادراً ما تكون في المستوى نفسه.

وقد ركز العرب بدلاً من ذلك على التنبؤ باحتمال تسرب الحرارة إلى داخل تلك المنازل، وفي هذا الشأن يمكن القول إنهم قد وفقوا تماماً.

أما جدرانها فقد كانت عبارة عن كتلة من خزانات الملابس والدواليب وأطقم أرفف مصنوعة من الأخشاب التي يتم طلاؤها ونقشها.

أما بالنسبة لأسقفها فقد كانت على المنوال نفسه، وعليه فإن ترتيب منازلهم بهذه الطريقة يحمل ذلك النهج الذي يمكن ربطه بالأسلوب العتيق للعصور الوسطى.

أما ألواح الأسقف الخاصة بالمنازل المملوكة للأشخاص الذين لا يتمتعون بالثراء على الإطلاق فقد كانت تتكون من الأعواد الخشبية غير المنجورة التي تشتمل على نوع من التعريشة المصنوعة من فروع أشجار النخيل. وفوق هذه يكونون قد قاموا بفرش عدد كبير من البسط، وبعدها يقومون بخلط طبقة من الأسمنت الذي تحدثت عنه مسبقاً(١)، وبالضبط كما جرت العادة على القيام به في فرنسا عند وضع طبقة الأسفلت.

وبالمرور على هذا الموضوع يسرني أن أعقب على ذلك بأن العرب لم يقوموا بعد بالدخول في أية شراكة تجارية بغرض الاستثمار في استغلال هذا المنتج.

(١) هنالك فقط حاجة في ترك الأسمنت دون المساس به، وفي الهواء الطلق لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، قبيل استخدامه عملياً (المؤلف).

وبغض النظر عن هذه الممارسة، فقد كانوا يستخدمون هذه المادة في تغطية الأسطح، وفي وضع مادة مثبتة أو مانعة للتسرب على خزانات المياه الخاصة بهم.

وإنني لم أستفسر عما إذا كان مجدياً، في مثل هذا البلد الذي لم يشهد فيه المرء أية مركبات أو عربات تجرها الأيدي، الاستفادة في استخدامه في أرصفة الشوارع.

ويتميز هذا النوع من الأسمنت تحديدا بخاصية عظيمة؛ ألا وهي تصلده في الحرارة بدلاً من تحوله إلى مادة رقيقة وناعمة كما هو الحال بالنسبة لأرصفتنا، والتي نكون قد ارتكبنا مخاطرة كبيرة قد تصل إلى حد فقداننا لأحذيتنا، في حالة ارتدائنا للصنادل أو الشباشب التي لا كعب لها، بدلاً عن الأحذية العالية الساق "البوت" كما يفعل الشرقيون.

وعلى افتراض أن بعض المصنعين أو غيرهم سوف يقرؤون هذا المقال، فهناك احتمال بأن تشهد، وفي الوقت المناسب، هذا الأسفلت العربي وقد تم عرضه في البورصة بالاشتراك مع أولئك الذين قاموا مسبقاً بالاستثمار فيه، وعندها سيكون ذلك أكثر اعتدالاً ما دام لن يعد من الضرورة بمكان قيامهم بأخذ طريقهم لنقله من جدة، والذي سوف يتطلب البحث بشأنه عن أقل العمال العرب تكلفة من ناحية الأجور، إضافة إلى آخرين ليسوا معروفين على الإطلاق لأولئك الناس الذين سوف يكونون - طبقاً للعرض - مدينين لهم بمظهرهم الثري وحظهم الممتاز.

لقد سبق أن تحدثنا عن منازل الأغنياء، ودعنا الآن ننتهز الفرصة للحديث عن تلك المنازل المملوكة للفقراء، والتي شيدت بتواضع بالقرب من

تلك التي سبق ذكرها. لقد انتشرت الأكواخ التي يطلق عليها العرب لفظة "عشة" حول كل المساحات التي تفصل المنازل المشيدة من الصخور البركانية عن الأطراف التي يقطنها حوالي نصف السكان الفعليين لمدينة جدة.

وهي مشيدة من هيكل خام تماماً ومحاطة كلية بالأغصان الرثة أو قضبان القش، كما يأخذ السقف شكل أهرام من أربع زوايا وبنوع قوي من الخيام أو غيرها من الحصير العادي، فكل شيء يعتمد على نجاح المالك في حياته.

وهنالك أعداد معينة من العرب لديها عدة "عشش" وفي هذه الحالة يقومون بترتيب الأمر بحيث تكون كل واحدة منها مواجهة للفناء الداخلي من الدار، وهنا تحدث العديد من المشاجرات المضحكة من وقت لآخر، والتي يتم منعها أو كبحها من بلوغ أعلى مستوى للمنازل النظامية، دون أن يكون من حق الذين يؤدون دوراً فيها أو يشاركون فيها أن يشكوا في حدوث ذلك.

كان السكان الأوائل لمدينة جدة من البدو الذين تركوا قبائلهم بغية التفرغ لمزاولة مهنة التجارة. وسرعان ما بدأت المدينة بالانتعاش، وجذبت إليها كل أولئك الذين كانوا يفضلون السكن المستقر على ذلك النوع من الحياة الذي كان يفرض عليهم هيامهم على وجوههم في الصحراء والذي كانوا يمارسونه حتى ذلك الحين.

وقد جلب ذلك النوع المستقر من العيش - مقارنة بذلك الخاص بالعيش في الصحراء - إضافة جديدة إلى ملامحهم المضطربة. أما بالنسبة لعنصرهم ومعدنهم الأصلي الذي كان يشكل منه ذلك العرق، فقد صار منذ

ذلك الوقت فصاعداً عرضة للتمازج والاختلاط مع العناصر القادمة من آسيا وإفريقيا، وقد فقد الآن جزءاً كبيراً من أصالته وغرابة أطواره التي كان يتميز بها[1].

ويمكن تقدير عدد السكان بحوالي (١٠,٠٠٠) نسمة، لكن هذا التقدير يظل تقريبياً فقط، إذ أن العرب لا يمتلكون مجرد السجل الخاص بحصر أعداد المواليد والوفيات[2]. وهم يتشكلون من عرب الحجاز واليمن، إضافة إلى الفرس والهنود أيضاً، ويستطيع المرء ساعتها أن يذكر ذلك الرقم الأساسي والواضح من الفلاحين الذين وصلوا إلى هنا من مصر تفادياً لتجنيدهم إلزامياً، إضافة إلى بعض الإغريق الذين تخصصوا في تجارة الحديد والأدوات المعدنية، وكذلك بعض الزنوج الذين حضروا إلى هنا من قلب إفريقيا. إضافة إلى ذلك يوجد عدد لا يستهان به من العبيد الذين يعملون في أعمال السخرة، والأحباش من كلا الجنسين بالمدينة.

وحتى فترة وصولنا بقريب كانت الحامية تتكون من الأتراك، لكن مجموعة من عمال الباشوات قد صارت الآن تنتمي إلى تلك الأمة.

كان عرب المدينة، الذين يركزون نشاطهم على التجارة، يتميزون بسحنة مختلفة كلية وأساليب وعادات سلوكية تختلف عن تلك السائدة وسط البدو.

---

(١) بقيت الآن في جدة مجموعة من الأسر العربية التي يعود تاريخها إلى الفترة الأصلية لقيام تلك المدينة. وقبل ثلاثين أو أربعين عاماً مضت تسبَّبت الأمراض المعدية والكوليرا التي حدثت في عام ١٨٣٢م في حدوث عدد كبير من الوفيات. (المؤلف).

(٢) بغض النظر عن ذلك كان عدد أولئك الذين يعيشون هنا يتفاوت طبقاً لوصول القوافل من الداخل إضافة أيضاً إلى السفن التي تصل من الهند. وفي ذروة مواسم الحج كان العدد يرتفع إلى٢٠,٠٠٠، ٣٠,٠٠٠، ٤٠,٠٠٠ وحتى يصل إلى ٥٠,٠٠٠ نسمة يبقون هنا لمدة طويلة سواء كانوا في طريقهم إلى مكة أو طريق عودتهم إلى بلدانهم. (المؤلف).

وكانوا عادة طوال القامة يتسم مظهرهم بالنحافة والبشرة الجافة، وكانت بشرتهم داكنة وممزوجة بمسحة برونزية. وقد حبتهم الطبيعة شوارب خفيفة مع ذقن مستديرة حول صدغيهم. وقد اعتادوا على السماح لها بأن تسترسل إلى حد ما، ومع ذلك فهي لا تصبح طويلة للغاية على الإطلاق.

أما بالنسبة لزيهم الذي يرتدونه، والذي يعد مماثلاً لذاك الخاص بالرجال ذوي المستوى العالي من الفهم في الجزيرة العربية، فقد كان إلى حد ما قريباً من ذاك الخاص بالأرمن: فهم يرتدون سراويل قصيرة تترك أرجلهم عارية، وقمصاناً واسعة تغطي كل شيء. بعد ذلك يقومون بارتداء حزام طويل مصنوع من الحرير أو النسيج القطني الرقيق إضافة إلى قفطان من القماش بألوان زاهية وبراقة، ثم عمامة بيضاء كالثلج وصنادل تم تصنيعها بمهارة لتكمل زيهم.

ويحمل كل المسلمين المولودين بهذه البقعة التي تعد مقدسة ثلاثة خدوش عميقة على الجلد تم إجراؤها بواسطة آلة حادة على كل من الخدين والجبين.

وقد قمت في يوم ما بطرح سؤال عن السبب الكامن وراء هذه العادة البربرية، فأجبت بما يلي:

"لا شك أنك تعلم أن الناس خلال فترة زمنية معتبرة كانوا يشقون طريقهم في شكل أرتال نحو مكة. بغرض زيارة الكعبة[1] (المشرفة). وقد كانت هذه العادة القديمة مفيدة بالنسبة للمسلمين الذين يقومون بها على أساس أنها تمهد وتسهل طريقهم إلى الله سبحانه وتعالى، إضافة إلى أنها

---

(١) لا شك أن قرائي يعلمون كثيراً عن الكعبة ومعتادون عليها، ولذلك سوف نكتفي بوصف قد يكون بسيطا ومختصراً. (المؤلف).

كانت من الأعمال المربحة لسكان الحجاز، والفضل يعود في ذلك إلى الأرباح التي يجنونها من الحجيج. وعلى أية حال نعود إلى النقطة الكامنة وراء كل ذلك.

فقد وجد السكان القاطنون في تلك الأراضي المقدسة أنفسهم عرضة لسوء طالع مخيف. فقد كان أولئك الأجانب الذين يسافرون إلى مكة، والذين لا يمتلكون ذريات خاصة بهم، يقومون بإغواء أطفالنا ويستدرجونهم إلى خيامهم حيث يغوونهم بواسطة الحلوى وأنواع المربى اللذيذة الطَّعْمِ كطُعم أو شَرَكٍ، وعليه عندما تشرع القافلة عائدة أدراجها يقومون بإغرائهم للركوب معهم على إبلهم، وبالتالي يتسببون في جعلهم يختفون عن أنظار والديهم حتى يقوموا بنقلهم مباشرة وبعيداً لصالحهم.

"باختصار، إنهم يقومون بأخذ أطفالك بالطريقة نفسها التي قمت بها أنت دون أدنى مسوغات أو إذن في حالة الأطفال الأفارقة"(١).

"مع ذلك هناك بالتأكيد فارق كبير: فقبل كل شيء هنالك اثنان من الأعراق أو السلالات التي أوجدها الله على الأرض أحدهما أبيض والآخر أسود. الأول منهما ولد حراً، والآخر صار عبداً(٢). فقد كان السود يعدون

---

(١) يلاحظ هنا تدخل المؤلف الذي لا يخلو من الخبث بل هو الخبث نفسه في محاولة تأكيد التهمة التي يوجهها الأوربيون دائماً للعرب والمسلمين بأنهم المسؤولون عن تجارة الرقيق والقيام بخطفهم لغرض الاسترقاق. ويحاول أن يتناسى أن بلاده ومعظم الحكومات الأوربية وصلوا إلى درجة لا تقاس بهم أية أمة أخرى في استرقاق للشعوب وخاصة الإنسان الإفريقي الذي مارسوا أبشع وسائل استرقاقه وتهجيره إلى العالم الجديد بالملايين (المترجم).

(٢) هذا رأي شخصي لا نتفق مع قائله، والحقيقة أن الكل ولدوا أحراراً ولم تقتصر العبودية على الجنس الأسود فقط (المترجم).

أنفسهم على قدر كبير من الرضا والقناعة بشراء البيض لهم وقيامهم بتربيتهم داخل منازلهم حيث يجدون أنفسهم في وضع أفضل كثيراً من بقائهم في موطنهم الأم".

"الآن قد شرحت بنفسك الأسباب التي تجعلكم أنتم الشرقيين تعلنونها بصورة متكررة وإلى الأبد، في كل مناسبة يثار فيها موضوع الرق والرقيق. وعليه يغدو من الصعب حثهم على إدراك خطئهم وفهمه وعدم مشروعيتها على الإطلاق"(١).

والآن استمر العربي مواصلا حديثه كالآتي:

"في البداية كأن الحجاج يخطفون أطفال الأسر الفقيرة لقناعتهم بأن لقطاءهم لا يسوون شيئاً. ولكن لجرأتهم في ارتكاب هذا الفعل عدة مرات دون أن يتعرضوا لأية عقوبة، فقد شرعوا الآن في سلب الأطفال الذين ينتمون إلى أسر قيادية تتولى الزعامة في الحجاز، وعليه فقد صارت بلادنا مهددة بأن تصبح يوماً ما جورجيا(٢) جديدة. وقد قام الأشراف والعلماء برفع عدة شكاوى إلى السلاطين، لكن المأساة ظلت مستمرة طوال

---

(١) شهدت بداية القرن التاسع عشر حركات نشيطة في أوربا تدعو إلى إبطال تجارة الرقيق، ومارست ضغوطاً قوية على حكوماتها تدعوها إلى الضغط بقوة على الحكومات التي ما زالت تقر مشروعية بيع الرقيق. قد استغلت بعض حكومات أوربا هذه المسألة لتسويغ تدخلها المباشر في بعض البلدان مما كان سبباً في استعمارها فيما بعد. (المترجم).

(٢) يقصد أن جورجيا تعد من أكثر البلاد التي كان يفد منها الرقيق الأبيض والذين أصبحوا في فترات تاريخية يشكلون عصب القوات المقاتلة في مصر والشام ومنهم تكونت دولة المماليك، فأصبح المملوك سيداً وأصبح يستجلب له مماليك من بلاد أجداده، ولم يصبح هذا الأمر يشكل نقيضاً للمالك والمملوك، بل أصبحت الأسر تقوم بجلب أبنائها إلى هذه البلدان عن طيب خاطر لما يتأملونه من مستقبل باهر لأبنائهم (المترجم).

هذه المدة. وأخيراً قام السلطان سليم[١] بتقديم النصح للمسلمين، والذي شمل تحديداً قيامهم بوضع علامة على وجوه أطفالهم. وقد وعد بإعادة كل أولئك الذين يحملون هذه العلامة الخاصة إلى ذويهم، بينما وجه تهديداً مفاده أن خاطفيهم سوف يخضعون لعقوبات صارمة ".

"وهل نجحت تكتيكاته تماماً؟ ".

"بعد جلد من تمت إدانتهم بصورة عُدَّتْ عظة وعبرة للآخرين لم نعد نسمع بأية أحداث محزنة وكئيبة عن هذا الموضوع.

وقد كان هذا هو الأصل والأساس فيما يتعلق بهذه الوسيلة المحددة التي ما زلنا نمارسها والتي واصلنا اتباعها بمحض التقليد أو العادة حتى بعد وضع حد لهذا الخطر بمدة طويلة ".

"وبأية طريقة تعدون أنفسكم للتطبيق العملي لهذه العملية ؟".

"في واقع الأمر هنالك بعض الأمهات اللائي يقمن بأنفسهن بهذه المهمة عن طريق عمل هذه الخدوش باستعمال الشفرة، الشيء الذي كان يتسبب في حدوث حمى للطفل في البداية، ومع ذلك فهم يصبحون بعد مضي عدة أيام وقد استردوا عافيتهم كاملة".

"وفي أي سن يتم إخضاعهم ؟ ".

"بدءاً من السن التي يكون الواحد منهم فيها قادرا بما فيه الكفاية على

---

(١) من المؤكد أنه يقصد السلطان سليم العثماني وربما يكون سليم الأول الذي استولى على مصر في عام ١٥١٧م وفي عهده ضُم الحجاز إلى الدولة العثمانية ولكن من خلال ما رجعت إليه من مصادر لم أجد ما يشير إلى هذه القضية ولا أعرف أيضاً متى انتهت عادة القيام بهذا العمل في الحجاز إذ لم تشر إلى ذلك أي من المصادر الحجازية التي اطلعت عليها (المترجم).

الابتعاد فقط بمسافة قصيرة عن منزل أسرته " .

"ويبدو أيضاً أنكم تقومون بوضع هذه العلامات على البنات، كما أنكم تقومون أيضا بختان الأولاد، وأنكم ما زلتم تجعلونهم يتحملون هذا العناء دون أي مكسب أو فائدة لأي واحد على الإطلاق؟".

"هذه المقولة غير صحيحة كلية، إذ أن هؤلاء الذين يحملون هذه العلامات على وجوههم يؤكدون بهذه الظواهر أو الملامح بأنهم قد ولدوا في هذه البقعة الطاهرة المقدسة، وعليه فإنهم أينما ذهبوا لأية بقعة يقطنها مسلمون، فإنهم يكونون على يقين تام بأنهم سوف يعاملون باحترام كبير وكأنهم إخوانهم في الدم، والفضل يعود في ذلك إلى تصنيفهم صحابة للنبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه".

يواظب الشيوخ والعلماء على صلتهم بالمساجد ويتعلقون بها، وعموماً تكون كل الشخصيات المتدينة ذات الأهمية متراصة بصورة مماثلة للغاية للعرب الأثرياء، فهم بالتأكيد لا يملكون، كما هو الحال بالنسبة للقساوسة الكاثوليك، أية ثياب كهنوتية محددة تميزهم عن الآخرين.

ومع ذلك، فقد لاحظت أنهم معجبون حقاً بارتداء زي أبيض فضفاض، وأنهم عندما يخرجون من منازلهم فهم يحملون دائماً عصياً رقيقة من الخيزران يتوكؤون عليها، وتمكنهم من طرد الكلاب الضالة عند اقترابها منهم .

وبدلاً من قبعة "الطربوش" السائد ارتداؤها، فهم يقومون بارتداء طاقية على الجزء الأعلى من رؤوسهم، وهي عبارة عن غطاء للرأس مصنوعة من قطع صغيرة من القماش من كل الأنواع والألوان المختلفة التي تم توزيعها

بمهارة فائقة مثل قطع من الفسيفساء. إضافة إلى ذلك، فإن غطاء الرأس المتعارف عليه هذا يعد بمثابة زي متبع بالنسبة لكل أهل الحجاز.

وبالنسبة للرجال من الطبقة المتوسطة، فإنهم يمتلكون، ضمن احتياجاتهم من اللبس، واحدة من أغطية الرأس (الطاقية) تلك إضافة إلى جلباب نادراً ما يقوم بتغطيتهم حتى ركبهم، علماً بأن السواد الأعظم يمتلكون فقط قطعة ثوب من القماش تغطي خاصرتهم، ويتم لفها حول ظهورهم، ويتم تثبيتها في مكانها بواسطة نوع من الحزام الجلدي.

ويرتدى التجار الهنود زياً من الملابس القطنية الرقيقة "الموسلين" المصممة طبقاً للزي العربي. ويتم تمييزهم بوصفهم هنوداً بوساطة عمامتهم الصغيرة التي تغطي الجزء الأعلى من رأسهم فقط.

إضافة إلى ذلك، فهم يمتلكون قواماً طرياً، أي نوعاً من الجسم النحيل والرشيق، غير المتوافر لدى المواطنين من أهالي البلد. كما لا تشاهد على وجوههم مطلقاً علامات الوشم "Tattoos" التي يتميز بها المواطنون الأصليون من أهالي الحجاز.

ولربما عُدُّوا من المرتزقة التافهين، لكنهم كانوا على قدر من اللطف وحسن المظهر. وبينما استقر بعضهم كلية في جدة، قصر الآخرون - على العكس من ذلك تماماً - إقامتهم هناك على الفترة المطلوبة التي يحتاجونها لتكوين ثرواتهم، وبمجرد نيلهم ما يبغونه، بطريقة ترضي طموحاتهم وتطلعاتهم، كانوا يعودون بكل حزم وإصرار إلى الهند وهم يحملون معهم ما جنوه من أموال ومدخرات.

أما بالنسبة للفلاحين الذين غادروا مصر وذهبوا إلى الخارج للعيش

هناك، فقد كانوا يحتفظون بكل الرقة بأسلوب حياتهم وعاداتهم وطريقة لبسهم التي كانوا يتبعونها في موطنهم الأصلي. كان البعض منهم يعملون كحمالين للأشياء الثقيلة وبعضهم، بوصفهم عمالة غير ماهرة، كانوا يقومون بمهام العمل في أعمال تفريغ السفن الراسية على الأرصفة.

أما بالنسبة للإغريق (اليونانيين) الموجودين في جدة، فقد كانوا شبيهين بأولئك الذين مررنا بهم في جزيرة "رودس" أو في موانئ الأرخبيل (الايوني).

أما بالنسبة للزنوج، فقد كانوا يقومون بالاتجار في نقل المياه. ولم يكونوا يمتلكون شيئاً سوى أسمال بالية كملابس يلفونها حول خواصرهم. وعليه كان بمقدور الواحد منهم أن يمارس في أوقات فراغه الأعمال الرياضية الخاصة ببناء أجسامهم، وكانت بنيتهم الجسمانية فوق كل شيء، تتمتع بالجمال الأخاذ.

أما بالنسبة للأتراك، فقد كانوا هم الأشراف الأعلى مرتبة والذين تنحصر مهامهم في وضع الأختام الرسمية على كل المستندات المختلفة التي كان يتم وضعها أمامهم للتوقيع عليها، بعدها كانوا يقومون بالتفتيش حول المدينة عن أكثر الأماكن مناسبة للراحة والاسترخاء فيها بغرض تدخين "النارجيلة " على حساب النفقات، إضافة إلى استنشاق نكهة قهوة البن.

وبالتجول في الطرقات كانت عباءات النساء تظهر في شكل زي موحد للجميع، حيث كن جميعهن يتدثرن بعباءات[١] واسعة وفضفاضة كان لونها

(١) هي قطعة رئيسة من القماش الناعم أو الحرير تضعها السيدات فوق ملابسهن العادية من الخارج (المؤلف).

مميزاً بصرف النظر عن شكل مرتديتها أو مكانتها. وكانت الفرصة تحين لهن فقط عندما يقمن بكشف خمار الحريم، وساعتها يغدو متاحاً التعرف على إفراطهن في الثراء من خلال حُليِّهِنَّ ومجوهراتهن.

مع ذلك، فإن هذا الزي الواسع الذي يشبه غطاء الخمار، والذي يحجب المظهر كلية، غير مغلق في واجهته الأمامية، فإنه بمجرد اللحظة التي تقوم فيها من ترتديه بجعل يديها تتحرف جانباً عن الإمساك به، فإنه ينفتح حينذاك، بحيث يظهر القميص الداخلي، المصنوع من النسيج القطني الرقيق أو من الحرير، فيمكن من إلقاء نظرة خاطفة عليه من خلال ذلك الجزء البارز مباشرة فوق التنورة. وأحياناً يكون مصنعاً من نسيج خفيف ذي لون أزرق أو وردي، مزود بحزام خاصرة مزركش بالذهب، ويكون متدلياً إلى أسفل بدءاً من العنق وحتى الصدر.

وبدلا من التنورة الواسعة للنساء المصريات، فقد تم استبدالها بتلك الخاصة بالنساء الهنديات والتي تبدو أقل اتساعاً، لكنها تكون مطرزة بشريط من الذهب يحيط بالساقين والكاحلين.

أما خمارهن، فهو مزين بالطريقة نفسها، وهو - عموماً - يتدلى إلى أسفل إلى ما يقارب الركبتين. وعندما يردن الخروج من المنزل يقمن بلف نقودهن ويعقدنها في المنديل على شكل صرة ملفوفة لأقصى درجة، كما تفعل النساء الأوربيات.

ولقد صادفت بالفعل، مع ندرة ذلك، نساءً كن يرتدين خماراً لا يتدلى إلى أسفل من ذقن الواحدة. ويعد هذا بالتأكيد أكثر أناقة من الزي السابق، والذي كان القصد منه أن يجعل الزي النهائي لا يمثل شيئاً أكثر من مجرد

خرطوم الفيل[1].

كانت صغار البنات من الأسر الثرية يتركن وجوههن كاشفة. وكن يرتدين فوق التنورة قميصاً داخلياً فضفاضاً، أطرافه موشاة بالذهب. ويرتدي عدد محدد منهن نجمة من المعدن نفسه على غطاء الرأس، والأخريات يقمن بتطويق "أعناقهن بعقود مصنعة من أغطية كبيرة محشوة بالنقود، ويُزْعَمُ أنها تستعمل بمثابة تعويذة ".

أما بالنسبة لملابس الأولاد الصغار، فقد كانت متشابهة كثيراً. فبالإضافة إلى العملات الذهبية التي تمثل الإلهة فينوس أو غيرها، من العديد من القطع الذهبية التي تمثل عدداً من الدولارات الإسبانية. فقد كان كلا الجنسين يزينان سواعدهما وسيقانهما بأطواق معدنية على شكل سلاسل صغيرة، أو خلاخل دقيقة مخيطة إلى منديل من الحرير، وعليه فقد كانت الأصوات التي يحدثها الرنين الناتج عن حركة سيرهم تبدو وكأنها تسبغ عليهم قدراً كبيراً من السعادة والرفاهية.

أما البنات الأكبر قليلاً، فقد كن يغطين أنفسهن بشالات أو بقطعة من منديل حريري. وكان يجب عليهن أن يقمن، في كل الأوقات، بعرض متباه لأكثر الألوان جاذبية كما هو الحال بالنسبة لأولئك اللائي هن تحت سن

---

(١) شاهدت وسط الحجيج بعض النسوة اللائي كانت أغطية وجوههن (خمرهن) مصنعة من قطع من القماش الناعم الشفاف والشبيهة بالشبيكة والخالية تماماً من أية فتحات لعيونهن. وقد كان بمقدور هؤلاء النسوة السير في الطرقات. والفضل في ذلك يعود إلى اختلاس النظر عبر الفتحات الصغيرة غير الملحوظة والموجودة في نسيج الأغطية. وقد كان يشاع بأن هذا الزي هو الزي الشائع في اليمن. وكانت هناك نسوة أخريات يحملن عدداً = من الخُمُرِ المصنعة من الشاش والتي كانت شفافة، وبالتالي كانت تسمح لهن بأن يسترقن النظر خلسة إلى الخارج دون أن يلحظهن أحد أو ينظر إلى وجوههن. (المؤلف).

المراهقة، وكن يلبسن تماماً كما تلبس أمهاتهن. وبصرف النظر عن حقيقة عدم قابليتهن للزواج إلا بعد بلوغهن سن الثانية عشرة، فإننا مع ذلك نلاحظ بأنهن أحياناً يتزوجن بالفعل عند سن السادسة من أعمارهن، وعندها يتم إسكانهن بمنزل الحريم التابع لزوجهن إلى أن يبلغن السن التي يصبحن فيها قادرات على ممارسة واجبات الزواج.

كان كل أولئك النسوة يمتلكن عيوناً كبيرة وعليها مسحة رقيقة من الكحل(١). وكن يقمن بتخضيب أظافر أيديهن وراحاتها والأجزاء الخارجية من أقدامهن بالحناء(٢). لكن الشيء الوحيد الذي لم يعتدن عمله في هذا الشأن هو وضع علامات على أجسادهن. وكنا جميعاً معجبين بأناقتهن ما دمن مضطجعات في مخادعهن في أوقات فراغهن، مع ذلك فقد كن يضحين ببعض هذا الجمال والأناقة عندما يخرجن للتمشي.

وعندما يخرجن إلى الطرقات فقد كن يرتدين في أرجلهن حذاء الكاحل المصنوع من الجلد المغربي الأصفر، ويضعن في أسفله صندلاً بدون كعب من اللون نفسه. وكن يقمن بنزع كل هذه الأحذية بمجرد عودتهن إلى منازلهن، حيث يتجولن في شققهن حافيات الأقدام، فقد كانت هذه الشقق مليئة بالبسط والسجاد الجميل.

أما بالنسبة للنساء العاديات من الطبقة الوسطى، فقد كن يرتدين عند خروجهن من منازلهن صنادل خشبية مزركشة ومزينة بشريط جلدي أو أزرار عادية تقوم بشبكها بإبزيم بأمشاط أرجلهن الغليظة.

---

(١) هو خلطة تجميلية مادتها الأساسية هي الأنتيمون والإثمد (المؤلف).
(٢) هذه المادة هي مستحضر تجميل أحمر اللون. (المؤلف).

لقد حظي سكان جدة بطبيعة تغلب عليها العاطفة، وقد اعتادوا على الزواج وهم في غاية الصغر، وكانت التجاوزات والإفراط في المعاشرة التي ينغمسون فيها مع نسائهم تصيب أحاسيسهم بالتبلد، مسببة لهم العجز الجنسي في سن يكون فيها الناس من البلدان الأخرى البعيدة عن خط الاستواء ما زالوا لم يحلموا حتى بمجرد الزواج.

وبالإضافة إلى عدد الزوجات الشرعيات اللائي يبيحهن القرآن فقد كانوا يقومون بشراء الزنجيات أو الخدم الكادحات ثم يجعلونهن يقمن بالاستجابة والخضوع لأكثر الوسائل البدائية المنفرة وذلك بهدف إشباع، ولو للحظة، ذلك العجز الذي فقدوه دون أن يكون لديهم أدنى أمل في استعادته أو تعويضه.

يعد مولد الطفل في الشرق عموماً أحد النعم الإلهية من الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك فعندما يقوم رجل في مقتبل العمر بإنجاب ذرية كثيرة، وفي حالة ما تصير إحدى خدمه حبلى، فهو يلجأ إلى تلك الممارسة التي تتيحها الأدوية العربية، والتي تعد شيئاً منافياً للأخلاق والمُثُل، بغرض إحداث عملية الإجهاض للجنين.

ولحسن الحظ، فإن هذه الحالات تعد نادرة للغاية، وهي تحدث فقط عندما يكون الأب غير راغب في حرمان سلالته من جزء من ثروته التي دأبوا على أن يأملوا في الحصول عليها، أو حتى في حالة ما تكون زوجاته الشرعيات شديدات الغيرة، ويرغبن في إلزامه بأن يقوم بإقناعهن بأنه لم يسبق له الانغماس في أي نوع من العلاقة مع أية أنثى.

وتعد هذه الممارسات غير الأخلاقية أقل ندرة في مكة نفسها، بحيث

يكون عنصر الحرمان أكثر انتشاراً. لقد شاهدت بصفة خاصة بعض الدجالين العرب، بل وحتى بعض الأطباء الأوربيين الذين تمسحوا باعتناق الإسلام، وهم يدلون باعترافات كاملة ومفصلة عن وسائلهم التي كانوا يطبقونها في مثل هذه الحالات طواعية واختياراً. وما دمت بعيداً كل البعد عن امتلاك مطلق الحرية في كشف كل هذه الأشياء لبصيرة القارئ، فإنه يعد كافياً بالتأكيد أن أقوم بمجرد الإشارة إليها. ويجب أن أضيف، إلى جانب كل ذلك، أن الأمهات لا يقمن دائماً بإخضاع أنفسهن وتسليمهن لمثل هذه الممارسات الذميمة. ولقد شاهدنا أحياناً بعض الأعراب، ولعدم إلمامهم أو معرفتهم بكيفية ستر هذه الحالات من الحمل غير الشرعي وتغطيتها، فيقومون بخنق خدمهم أو شنقهن أو توجيه الأمر بالإلقاء بهن في قاع البحر.

ويعاني أهالي جدة الغيرة شأنهم شأن غيرهم من الشرقيين. وقبل فترة من وصولنا كانت هناك امرأة وقعت في حب أحد معلمي الموسيقى، وهو فرنسي الجنسية وملحق بالعمل مع الفيلق السابع. وكانت تذهب لرؤية عشيقها بمنزله بينما كانت تلزم الحذر الشديد لتتأكد من تخفيها وتنكرها بحيث لا يلحظها أحد أو يتعرف عليها. ولكن، وحتى مع هذه التحوطات، فقد اكتشف زوجها هذه العلاقة الغرامية غير الشرعية. وقد تم وضع الزوجة الخائنة داخل جوال أو كيس وجرى تخييطه، ثم قذف بها في قاع البحر.

أما بالنسبة لعشيقها الأوربي (الفرنسي) فقد نجا بنفسه من الموت بقبوله شرط الدخول في الإسلام. وقبيل وصول الجيش النظامي تمت

إدانة إحدى النسوة الخليعات باستقبالها لأحد الكفرة بمنزلها، والذي كان من المفروض أن يقع تحت طائلة عقوبة الزنى نفسها، ولكن مع ذلك، ولأنه كان من المتعارف عليه أن محمد علي كان يسبغ حمايته الخاصة على الأوربيين بصفة عامة، فقد أغمضت الشرطة عينيها عن الموضوع[١].

وفي الوقت الراهن فقد قاموا بإصدار تحذيرات خاصة بشأن أولئك الذين أثبتوا الاستسلام لمشاعرهم نحو النسوة، وعليه نفترض مستقبلاً أن يقوم العرب، في حالة تخلصهم من قبضة الباشا وسيطرته، بعقوبات مخيفة ومرعبة تطبق على أولئك لقاء تصرفاتهم السلوكية.

وفي جدة، التي تشكل مركزاً ضخماً لتجمعات الأجانب المحرومين من بنات جلدتهم من النساء، فقد كانت أعداد الغاويات كثيرة في واقع الأمر، ويوم الوقوف بعرفات[٢] كن يتجهن في حشود صوب مكة، وهن مثلهن مثل شبيهاتهن في المدن الأوربية، واللائي يسارعن إلى الأماكن التي كانت تعقد بها سابقاً المجالس والمجمعات الكنسية للمطارنة.

---

(١) ما أورده المؤلف عن هذه الحالات التي أوردها أو رويت له لا تعد حالات شاذة ينفرد بها مجتمع مدينة جدة فقد تحدث في كل مجتمع وفي كل زمان ومكان لا سيما ومجتمع مدينة جدة يختلط به عناصر من غير أهلها من شعوب وجنسيات أخرى. إضافة إلى أن حدوث مثل هذه الأعمال التي لا تتفق مع قيم المجتمع المسلم قد حدثت نتيجة استعانة محمد علي باشا بفئات وأشخاص ينتمون إلى ثقافات وديانات لا تراعي حرمة الإسلام وأهله وفتح الأبواب مشرعة لكثير منهم وما أورده المؤلف من حوادث كان أطرافها من هؤلاء. (المترجم).

(٢) عرفات هو اسم جبل يقع بجوار مكة، والوقوف به من أركان الحج، وكما يعتقد بعض المسلمين فقد التقى به آدم بحواء بعد إخراجهما من الجنة بعد افتراقهما لمدة طويلة. وكلمة عرفات تعني في اللغة العربية "العرفان بالجميل" وعليه فقد أضيف هذا الاسم للشعائر كنوع من الإشارة لهذا الحدث. (المؤلف).

وفي الطرقات والشوارع كانت هؤلاء النسوة يظهرن بمظهر الاحتشام، ولأن الزي الذي كن يرتدينه عموماً لم يكن يبدو عليه أي نوع من الغرابة، فقد كان من الصعب التمييز بينهن وبين بقية النسوة. وكن عادة يقمن في تلك "العشش" التي سبق أن تحدثت عنها. وفي تلك الأحياء لم يكن يحاولن، ولو ببساطة، إخفاء أنفسهن أو التنكر في زي آخر، وكان مفهوماً ومتعارفاً عليه أي نوع من النسوة هن، وذلك من خلال ملبسهن وزينتهن المتبرجة وغير العادية والمغطاة بالخيوط والأشرطة البراقة واللامعة، لأنهن يتميزن بحبهن للمجوهرات والثياب البراقة، وذلك شيء تتوق إليه، لهذا السبب، النساء في كل مكان، وخاصة أولئك اللائي يعملن بمهنتهن.

قبل أن نختم هذا الموضوع نقول كلمة عن الحريم:

إن الأماكن الصعبة يوجد فيها كل شيء منحه الله تعالى للمرأة في شكل حب وجمال يصل إلى درجة الابتذال بغرض إشباع الغريزة الصرفة للرجل وشعوره بالاستمتاع. وبطبيعة الحال تعاني النسوة في بلداننا صعوبات جمة في فهم كيف يكون بمقدور النسوة أن يستمتعن بحياتهن دون أن يعانين على الإطلاق من تلك العين اليقظة والحذرة لحراسهن (الخصيان).

ومع ذلك، فقد تمكنت النساء المسلمات من اكتشاف وسيلة للمتعة والتسلية وهن في تلك الحالة من الوحدة والعزلة، وإذا افترضنا أن القانون قد نتج عنه فتح أبواب أولئك الحريم، فإنني على يقين من أن عدداً محدوداً فقط من أولئك النسوة سيكون راغباً في الحصول على حريته. وبدلاً من استجابتهن للعاطفة الجارفة لأزواجهن، أو الحاجة الناجمة عن الرغبة في تعليم أطفالهن، فإن المستوى المعيشي الذي يتمتعن به يوفر لهن كل المسرات وسبل السعادة بوصفهن زوجات وأمهات.

إن موضوع قدسية مكانة الأسرة هو تدينهن الصادق والملتزم، وأما "الحريم" فيعتبرن بالنسبة لهم بمثابة الملجأ والملاذ. وهن يبدون غير مباليات ولا يكترثن لشيء من حولهن أو أي شيء آخر يحدث خارج أبوابهن أو خارج أفقهن. ويجب أن تكون حدود حياتهن هنا؛ إذ لا يكن بحاجة للبحث عن أي شيء آخر يقوم بتحريك إحساسهن بالغيرة.

ومع ذلك فإن هذا النمط من الحياة لا يعد مثالياً أو متكاملاً للغاية. فإذا جربت المرأة أكثر من رجلٍ، فإن هذا الإحساس بالرضا والقناعة يكون في داخلها، علماً بأنها تبدو أيضاً في حاجة للعواطف والأحاسيس الموجودة في العالم الخارجي[1]. ويبدو الجانب الأول طاغياً على العوامل الجنسية في الشرق، أما الجانب الثاني فيبدو طاغياً في الغرب. وأياً كان هذا أو ذاك فإنه، إذا تم أخذ كل واحد منهما على انفراد، يبدو أنهما زائفان في واقع الأمر.

إضافة إلى ذلك فإن حياتنا مجتمعة، ولكي تبدو مليئة بالرضا والقناعة، يجب أن تكون مزيجاً من تلك العوامل الخاصة بكينونتنا ووجودنا البشري.

تستخدم الحمامات العامة في الشرق متنفساً للنساء، وهي بالتأكيد أماكن اللهو البريء المتفق عليها بالنسبة لهن. أما بالنسبة للحياة الجنسية في جدة فهو أمر شخصي وسري، إذ لا يوجد في المدينة بيت من تلك "البيوت السيئة السمعة". وعليه فإن النسوة من الحريم[2] (بيوت المحظيات)

---

(١) يظل هذا رأياً شخصياً لا نتفق مع كاتبه، خصوصاً أنه لم يوضح ما المقصود من التجريب هل هو في إطار الشرع أم خارجه (المترجم).

(٢) عند استعمال عبارة "حريم" (محظيات) لا يفرق العرب بين المكان الذي تقيم فيه هؤلاء النسوة أساساً وبين النسوة أنفسهن (المؤلف).

اللائي تربطهن بعضهن مع بعض علاقات صداقة أو قرابة، يقمن بتسجيل زيارات متبادلة إلى بعضهن بعضاً، وتتيح لهن هذه الزيارات قدراً من الترفيه واللهو يخرجهن عن عزلتهن المعتادة التي يعشن فيها.

أما بالنسبة لمساكنهن، فهي مفروشة بالبسط وبالسجاجيد التي وضعت عليها أكوام من الحشوات والمساند. أما خزاناتهن فهي مليئة بمخزون من المواد التموينية وغيرها من شتى أنواع الحلويات، كما أن القهوة متوافرة دائماً وتحت الطلب، وتكاد "النارجيلة" لا تنقطع لحظة واحدة.

وخلال ساعات السمر، طيلة الوقت، تقوم النسوة بالتشاغل بعملية التطريز والحياكة. وبالنسبة للأولاد الصغار يتم باختصار تربيتهم وتزويدهم بكل شيء بالاختلاط مع البنات الصغار، إلى أن يبلغوا سن المراهقة. وعند بلوغهم تلك السن تقوم أمهاتهم بترتيب أمر ذهابهم حيث ينشغلون بتصريف الشؤون الخاصة بآبائهم.

وفي مرحلة ما قبل ذلك، وعندما يكونون صغاراً للغاية، يتم وضعهم على السرير في أريكة قابلة للطي ومغلقة من كلا طرفيها بواسطة مقابض تجعلها تبدو كالأرجوحة الشبكية.

أما بالنسبة للبنات، فعندما كان يداعب النعاس أجفانهن يتم وضعهن بداخل ناموسية توضع بأعلى الأريكة، ويتم إزالتها في صباح اليوم التالي، بحيث يتم تحويل غرفة نومهن بصورة تلقائية إلى غرفة للجلوس.

لقد شاهدت هنا في جدة، ولأول مرة، بعض النسوة من هذا النوع وهن يؤدين صلواتهن في خشوع تام وهن نموذج للمسلمات المتدينات، وقد علمت بأنهن ينتمين إلى أسر المؤمنين الصادقين.

عندما يستقبل سكان جدة الأوربيين ضيوفاً داخل منازلهم، فهم يعاملونهم بكثير من الاحترام شأنهم شأن أمثالهم من المسلمين. ولقد أتيحت لي شخصياً الفرصة لزيارة كثير من الأشخاص الأثرياء، وأسوق أدناه شرحاً للكيفية التي تم بها الترحاب بي:

فمنذ اللحظة الأولى التي يقوم بها الشخص بالجلوس على الأريكة يقوم أحد العبيد بإزالة الغطاء عن أنبوبة النارجيلة الفارسية، يقدمها لك وهو ينحني في أدب. وقبل أن يتاح لي متسع من الوقت لرشف بعض النفثات من ذلك الدخان قام أحد الخدم بتقديم طبق وضعت أطقم القهوة وفناجيلها المصنوعة من الخزف الصيني إليّ، يصحبه في ذلك خادم جديد آخر، فقام هذا بصب القهوة وتقديمها لجميع أولئك الضيوف الموجودين على التوالي، كما قام الآخر بمسح أيدي بماء الورد، الذي نقوم نحن بصبه على وجوهنا، بل وحتى نغمر به كل أجزاء جسمنا. وبغرض التجفيف يقدمون لك منشفة من النسيج الهندي الرقيق الغنية بالمطرزات والتي يكون قد تم تجهيزها وإعدادها محلياً بوساطة حريم صاحب الدار. ويقف إلى جانبك أحد العبيد الذي يحمل في يديه وعاءاً معدنياً صغيراً يشتعل به وميض نار خفيفة يحتوي على خشب العود الذي ينشر عبيره في كل أرجاء الشقة.

وبالتالي، فإن هنالك بالتأكيد أناساً، يعدون، من كل ناحية، أكثر كرماً منا نحن أنفسنا، وفوق هذا، فعندما نقوم باستقبال شخص ما كأحد الضيوف بمنازلنا، فنحن نقدم له فقط كرسياً أو مقعداً، على اعتقاد منا بأننا نكون بذلك قد أوفينا بكل القوانين والأعراف التي يتطلبها أدب الضيافة.

وتكون العلاقات التي تطورت لاحقاً بين رب الأسرة وضيوفه الذين

قدموا لزيارته مبنية أساساً على الفهم المتبادل الذي يكون ذا طبيعة فكرية أو عقلانية، ويجلب تجاذب الأحاديث معه الفكاهة والمرح.

ليس لدينا أدنى فكرة عن تكلفة هذه الصداقات من النواحي المادية. وفي حالة ما يقدم لنا أي شيء من ذلك، فإن أدب اللياقة يملي علينا بأنه من الضرورة بمكان أن يقوم الضيف برفض قبول ذلك، بينما في حالة تصرف أي واحد منا في الشرق بهذا السلوك، فإن مضيفينا سوف يمتعضون ويضايقون بشدة من مثل هذا التصرف أو تلك النظرة.

خلال فترة اشتداد الحرارة ينتقل سكان جدة إلى الأدوار الأرضية من مساكنهم، في الوقت الذي ينتقلون فيه خلال فصل الشتاء إلى الطوابق العليا. أما بالنسبة للشقق التي كنا نحن الضيوف نُستقبل فيها، فتبدو جميعها متشابهة ولا تمثل شيئاً غير عادي، حيث يقوم العرب بتأثيث غرف استقبالهم ببساطة متناهية للغاية، ويحتفظون بكل أثاثاتهم المترفة في الأجزاء الخاصة بالحريم فقط، والتي لا يسمح لنا، نحن الرجال، بدخولها على الإطلاق.

مع ذلك فقد كان المسجد العائد للقنصل الإنجليزي[١] جوزيف ماهليم Joseph Mahlem يشكل الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة.

وفيما عداه كانت الأرضيات تفرش بالسجاجيد ذات القيمة المتدنية. وعلى طول امتداد الجدران التي كانت تنتشر فيها الوسائد، كانت توجد سجاجيد عادية للغاية هي التي تشكل البساط. وقد لاحظنا وجود بعض

(١) تشير معظم المصادر إلى أن أول تمثيل قنصلي لدولة أجنبية في جدة كان لبريطانيا، ولكن هذه المصادر تتفاوت في تحديد الزمن الذي بدأ فيه هذا التمثيل، ولكنه لا يعود إلى ما قبل بداية القرن التاسع عشر (المترجم).

الأواني على أرفف الدواليب، إذا كانت تعد ضرورية ولازمة لتقديم القهوة والشاي، إضافة إلى بعض القوارير المحتوية على العطور.

ولم يكن من النادر أيضاً أن تشاهد بعض الأرائك أو كراسي الجلوس الهندية الخاصة ذات الرائحة العطرة، والتي تعد بمثابة إرث قيم، يتم انتقالها وتوارثها بصورة منتظمة من الأب للابن.

ويستعمل هذا الجزء من المنزل غرفة طعام. وتتفاوت الفترات المحددة لتناول الوجبات طبقاً لشهية أصحاب المضيف الذين يتناولون معه الطعام.

أما بالنسبة للنساء فلا يسمح لهن مطلقاً بالمشاركة في هذا الحدث، حتى ولو لم يكن هنالك أي أشخاص غرباء. وفي حالة رغبة أزواجهن في تناول الطعام معهن، فإنهن يقمن بترتيب تقديمه داخل منزل الحريم نفسه. ويبدو من وجهة نظرهم أن بعض أطباق اللحوم المخلوطة بقطع من لحوم الدجاج وبعض الأعشاب كافية حسبما يرونه.

ويتم تقطيع كل أنواع اللحوم إلى شرائح صغيرة كما هو الحال في جميع البلدان الحارة، ونادراً ما تحتوى الوجبة على الشمام أو البطيخ العادي، ويفضل أغلب المضيفين الاحتفاظ بها للفترات التي بين تناول الوجبات. وعندما يستقبلون عدداً كبيراً على موائدهم ، فإن الأوقات التي يتم فيها ذلك، حسبما يقتضيه الذوق العام "الإتيكيت"، هي إما فترة الظهيرة أو العشاء[١]، وفي مثل هذه الحالات يقومون بتعزيز أسلوب طبخهم العادي بخروف كامل يتم طبخه على نار هادئة.

وتتم إحاطة ذلك الحيوان النبيل، المحاط بالأرز والذي نثرت عليه القرفة

(١) أي بعد أول صلاة تؤدى في تلك الأمسية. (المؤلف).

والفلفل والجوز والثوم والقرنفل، بكميات كبيرة من البيلاف (الطعام الشرقي) المغطى كلياً بالتوابل المعطرة أو المنكهة.

ويقوم كل ضيف بالأكل من الإناء الرئيس، وتقضي اللياقة بأن تكون أول لقمة يتم تناولها هو رب الدار شخصياً. ويمسك أحد الخدم أو العبيد الموجودين بجوار المدعوين وفي يديه بردق[١] (bardaque) يقوم بتمريرها على أولئك الراغبين في الشرب، ويقوم سكان جدة دائماً بالأكل بنهم، دون أن يكون لديهم أدنى أمل في ممارسة المتعة الكبيرة التي نجدها نحن من خلال تجاذب أطراف الحديث على مائدة الطعام. ومن خلال سيطرة هذه الحالة عليّ، فقد تولد لدي إحساس بأن لدينا دروساً كثيرة يمكننا أن نقوم بتعليمها لهم[٢].

ولقد تعرفت على كابتن ميناء جدة، الذي منحني كثيراً من المعلومات التي أتاح له وضعه ومركزه هناك أن يكون ملماً بها. وقد كان عبد الله (وهذا هو اسمه) واحداً من أولئك الرجال ذوي الأشكال والملامح الرياضية، الذين يمكنك أن تلتقي بهم من وقت لآخر في موانئ "الشرق"[٣] والذي يبدو وكأنه قد ولد لكي يمارس حياته في مراكب القرصنة.

وقد كان في كل الأوقات مسلحاً بعصا خيزران طويلة، بدت مناسبة ومفيدة لقيامه بمهمة الجلد. والويل لمن يعترضون على مزاجه الحاد!

(١) هي إناء فخاري مشكل كالقارورة أو الزجاجة. (المؤلف).

(٢) جرت العادة لدى الفرنسيين الجلوس طويلاً على المائدة ويجدونها فرصة لتبادل الأحاديث لأطول وقت ممكن، خاصة أثناء وجبة العشاء. (المترجم).

(٣) هي موانئ البحر الأبيض المتوسط المطلة على البلاد الشرقية مثل بلاد الشام والأجزاء الآسيوية من تركيا (المترجم).

فلسوف تحمل أكتافهم الدمغة الناجمة عن جلدهم بتلك العصا لفترة طويلة للغاية! إضافة إلى ذلك، فقد كان يكفي فقط أن يقوم برفع حاجبه، بحركة شبيهة بإيمائة أو غمزة، حتى يسود نوع من النظام والانضباط المثير وسط البحارة والحمالين الذين تقضي مهامهم التركز بصورة مستمرة في الميناء.

لقد وعدني بأن يأخذني في جولة على كل المرافق التابعة له، وعندما كنا في إحدى المرات في طريقنا نحو قاعدته البحرية، بعد أن تجاوزنا البازار، توقف فجأة، وجذبني من يدي، ليقول لي:

"هل سبق لك أن شاهدت مثل ذلك النوع من المبنى الواقع قبالتنا؟".

فأجبته قائلاً: "نعم، أذكر أنه كانت توجد هناك المخلفات القديمة للحصون والقلاع الحقيقية".

"أنت محق تماماً. فقد كان الأتراك هم الذين قاموا بتشييدها كوسائل دفاعية في مواجهة البرتغاليين".

وفي ذلك الوقت لم أعر صحة حدوث هذا الأمر مصداقية كبيرة، لكنني عند عودتي إلى أوربا اقتنعت شخصياً بصحته ومصداقيته. أضف إلى ذلك، أن كثيراً من الشخصيات الأكثر اطلاعاً وثقافة من عبد الله حول مادة علم الآثار، كانوا في بلدهم قد توصلوا إلى وجهة نظر مماثلة وبصورة موسعة حول هذا الموضوع. وعندما قام البولوني "لويس فارثيما" الذي شق طريقه من دمشق إلى مكة ، حيث وصل إلى مدينة جدة، من خلال وصفه الذي أدلى به فيما يتعلق بالمدينة، فقد أوضح بأنها لم تكن محصنة على الإطلاق.

فقد قال: "لم تكن هذه المدينة "[1] مغلقة وسط الأسوار والخنادق

(١) رحلات "لويس فارثيما" البولوني، ص (٤٦).

الواسعة، ولكنها كانت مع ذلك غنية بمنازلها الجميلة المشيدة على الطريقة الإيطالية. كان ذلك في عام (١٥٠٣م).

وبعد ذلك بعدة سنوات قام البرتغاليون، الذين كانوا في تلك الفترة تقريباً قد رسخوا أقدامهم في "جزر الأنديز"، وقد أعدوا خطة لتدمير كل من مكة والمدينة، وكان من المقرر أن تقوم أساطيلهم ببدء محاولاتها انطلاقاً من جدة.

ولانشغاله إجمالاً بهذا المشروع قام "ألفون" من "أبو قير[١] " بالإبحار في البحر الأحمر، وهو يتابع محاولته اليائسة الخاصة بالحصول على موطئ قدم في عدن عام ١٥١٣م[٢].

"وقام الحاكم - هكذا قال الآب (لافيتو) في معرض حديثه عنه - بدخول البحر الأحمر مخالفاً بذلك، إجمالاً، كل قباطنته وملاحيه، الذين لم يكن لديهم أي سبب بديل أو حجة يبديها لهم سوى أن ذلك كان يتم طبقاً لرغبة العرش.

وبمجرد إنفاذه لعملية الدخول قام بالسماح بإطلاق النيران بصورة عامة من كل قطعة من قطع مدفعيته، في شكل يوحي بنوع من الانتصار؛ لأنه كان أول أوربي يقوم فعلاً بالدخول إلى هنا مع أسطوله البحري.

ولم يكن هناك أحد قد حظي بذلك من قبله، في الفترة التي سبقت

---

(١) لعل هناك التباسا ما (فأبو قير)، أحد الموانئ المصرية على البحر الأبيض المتوسط لا الأحمر (المترجم).

(٢) تاريخ اكتشافات البرتغاليين وفتوحاتهم في الدنيا الجديدة، إعداد الكاتب آر. بي - جوزيف فرأنكويس - لافيتو، من بصحبة المسيح في ٨ سي - باريس ، ١٧٣٤، المجلد الثاني، ص (٢١٢). (المؤلف).

باكتشاف الدنيا الجديدة. ومع أنه قد تم تحذيره مسبقاً بكثير مما حدث بالفعل، لكنه إصراراً منه بأنه من المحتمل أن يموت أثناء ارتطامه بالصخور المائية الضحلة، فقد اضطر إلى تمضية الشتاء في جزيرة "كاميران"، ومن ثم لم يكن بمقدوره أن يمر بأي من جدة أو السويس، أو الإلمام بأية معلومات عن السفن التابعة لأسطول السلطان.

أما بالنسبة، للمسلمين فلم يغب عن بالهم الإلمام بنوايا البرتغاليين العدوانية تجاههم، ولقد علمنا، طبقاً لهذه الكلمات النهائية الموجزة في هذا المعبر المشار إليه، أنهم قد عقدوا العزم على بذل مقاومة مستميتة.

وفي عام ١٥١٦م كان الخطر الذي تعرض له سكان مدينة جدة لمدة ثلاث سنوات - استمرت حتى تاريخه - قد تنامى وانتشر بصورة عامة مرة أخرى.

كان "سواريز"[١] قد وصل الآن قريباً من مواجهة هذه المدينة، وكان ينوي الهجوم عليها، لكن حدث في عام (٩٢٠هـ)، الموافق للعام ١٥١٤من تقويمنا الميلادي، أن قام "الغوري"، حاكم مصر والجزيرة العربية، بالشروع في تشييد الحصون وإقامة الدفاعات بهذه المدينة.

ويبدو أنه خلال الفترة التي كانت هذه المنشآت الخاصة بالدفاع عن المدينة لم يكتمل بناؤها بعد، وتوقعاً لما كان يلازم السكان من هواجس تقودهم إلى الفرار في اللحظة نفسها التي تقع فيها أعينهم على الأساطيل الغازية قام "سليمان"، قائد القوات المسلمة بطمأنتهم[٢] وقد عمل الحذر

---

(١) لافيتو - المجلد الثاني، ص (٢٧٤). (المؤلف).

(٢) لافيتو - المجلد الثاني، ص (٢٧٤ - ٢٧٥). (المؤلف).

والحيطة التي اتسم بها "جنرالات" البرتغاليين على المزيد من طمأنتهم وتهدئتهم.

لقد كان صحيحاً أنه من الصعب التوغل في الميناء نفسه، إذ كان من الممكن الاقتراب نحوه من خلال قنال متعرج ومحصن بوساطة العديد من العقبات وبطاريات المدفعية.

وقد كان "سواريز" متخوفاً، إلى حد ما، من الهجوم عليه.

وفي الوقت الذي أضاع فيه فرصة ثمينة ووقتاً لا يعوض من خلال عدم تمكنه من اتخاذ القرار، قام سليمان، الذي كان يعرف جيداً أي نوع من الرجال كان ذلك الذي يتعامل معه، بإرسال اقتراح له بأن يقوما كلاهما بالمبارزة رجل لرجل. وقد كان "سواريز" ساخراً للغاية عند رفضه لذلك. فقد كانت تلك هي فرصته الوحيدة التي كان من الواجب عليه أن يكون جريئاً بما فيه الكفاية للقيام بالاستيلاء على المدينة وتحطيم أسطول الخليفة، والذي كان من المفترض فيه أن يدرك ذلك. لكنه إحساسا منه بعدم قدرته على أن يتحمل على عاتقه تلك المخاطرة، قام بالإبحار مرة أخرى، وبكامل أشرعته، صوب جزيرة "كاميران".

لقد سبق لسواريز أن قام بمحاولته الأولى نحو الهجوم في العام السابق، لكنه بوصوله إلى جزيرة "جيزان" التي تبعد مسافة ثمانية أميال من جدة نفسها، فقد أحس بأنه لا بديل له سوى التراجع والانسحاب.

وقد عزا "أندريه كورسال "Andre Corsal، الذي كان على رأس إحدى سفن هذا الأسطول، هذا التراجع والانسحاب إلى مجرد سوء الطالع، إذ صرح قائلاً: "لقد قضى الحظ بأن تتحول الرياح من مؤخرة السفينة إلى

مقدمتها، وبطريقة استحال علينا عملياً معها أن نتقدم في الإبحار أي خطوة إلى الأمام.

وقد تسبب ذلك في تراجع مخيف بالنسبة لنا، خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار أن جيش السلطان قد كان في ذلك الوقت بالتحديد يعاني النقص في المعدات والتجهيزات".

وبهذه الطريقة تمكن سكان جدة من النجاة من هذا الخطر الذي كان يتهددهم، لكن تجارتهم كانت قد عانت في خلال هذه الفترة الكساد والتدهور طبقاً لرواية "كورسال" الموضحة أعلاه(١). حيث أوضح قائلاً: "هنالك ثلاثة حصون أخرى في تلك البلاد التي يطلق عليها "مالابا" وهي "كانانو"، "كلكتا"،

"كوشين" كان البرتغاليون مازالوا يتخذونها نقاطاً لتحميل التوابل والزنجبيل وشحنهما بغرض ترحيلهما إلى البرتغال، ولا يرغبون بأي حال شحنها إلى أية موانئ أخرى، ولا حتى إلى عدن أو مكة، وذلك لأنهم كانوا مصممين على أنه - بدلا عن الذهاب إلى الإسكندرية - يجب أن يكون الشحن (خلال تلك السنوات) هو الوسيلة لخلق جيش على طول مجرى

(١) كانت أولى رسائل "أندريه كورسال" إلى اللورد " جوليان دي ميديكي" مكتوبة في "كوشين" بمدينة "جيريس" في ١٦/ يناير / ١٥١٥م وتتعلق بالرحلات التي قام بها الطرفان، وكانت مقدمتها باللغة البطليموسية، حيث جرت ترجمتها من التوسكانية (إحدى لهجات اللغة الإيطالية) إلى الفرنسية بوساطة أحد النبلاء ويدعى "جابريل سيميون" - ص (٣٢٢). وكانت الرسالة الثانية "لأندرية كورسال" وهو من الفلورنسيين، والمرسلة إلى الأمير المبجل، الدوق لورانس دي ميديكي، والخاصة بالإبحار في البحر الأحمر والخليج الفارسي، حتى مدينة "كوشين" في بلاد الهند، وقد كتبت بتاريخ ١/ سبتمبر / ١٥١٧ م - ص (٣٤٠). (المؤلف).

البحر الأحمر، حتى لا يتم شحن أي شيء على أية سفن أخرى، وبهذه الطريقة وحدها سوف يضطر المستهلكون إلى الذهاب إلى "لشبونة " بغرض تأمين احتياجاتهم من التوابل لا من البندقية".

وإذا كان بمقدور أحد أن يصدق رواية كورسال، فقد كانت جدة، في خلال تلك الفترة الثانية لظهور "سواريز" المفاجئ، محصنة من الجهة المقابلة لليابسة، لكنها كانت خالية من أية دفاعات أو تحصينات باتجاه الميناء الحقيقي، إذ أورد قائلاً:

"لم تكن هذه المدينة المذكورة أعلاه واسعة للغاية، لكنها كانت محاطة جيداً بالأسوار، ومليئة بالفتحات والثقوب الموجودة في جدران الحصون الحجرية. ويظل صحيحاً على وجه العموم بأنها لم تكن مقواة أو محصنة من الجانب المطل على ساحل البحر، إذ لم تكن به أية أسوار، مع أنهم قد بدؤوا في تشييدها منذ المرة الأولى التي قام فيها البرتغاليون بالظهور وهم يبحرون على شواطئ البحر الأحمر".

لقد كان المسلمون على علم بكل الظروف السلبية الخاصة بمرفئهم، وأنهم قد قاموا – دون شك – بالبدء في تحصين ذلك الجزء المطل منه على اليابسة، ونتيجة الخوف من أي إنزال بحري تتعرض له مدينتهم، فقد أصبحوا يدركون جيداً أنه يتوجب عليهم القيام بإعلاء الأسوار في الجانب المطل على البحر بعد المحاولات التي قام بها البرتغاليون.

وعليه فإن هذه القلعة التي أشاهدها أمامي الآن يعود تاريخها إلى حوالي العام ١٥١٧م.

وقد كانت مؤخرتها تستند على سور كان تابعاً في السابق إلى حصن،

وعند نهاية هذا السور كنا قد مررنا بواحد آخر جديد كانت له الملامح نفسها. وباتجاه وسط المدينة شاهدنا الآن بوابة قديمة تحمل ملامح الطراز المعماري العربي، ومع أنها ربما كانت تافهة من ناحية شكلها المتهالك، فإنها مهمة لكونها من مخلفات الماضي التي قد تزود علماء الآثار بالمعلومات السارة التي لا حد لها.

أما الحجارة المكوِّنة لها، فقد كانت منقوشة بطريقة تنم عن ذوق، وأنه ما زال بالإمكان، حتى الآن، التعرف على بعض الألوان المتبقية التي جرى تزيينها بها، والتي تعود إلى تلك الفترة من التواريخ السحيقة.

كانت هذه البوابة سابقاً تفتح على المرفأ الأصلي، وعليه فقد أطلق عليها اسم "باب البحر" (أي بوابة الميناء). وهي تقع حالياً على مسافات متساوية من الحصنين اللذين يقومان بحماية المدينة من جانب البحر، وعليه فهي تقع الآن على بعد حوالي (٢٠٠) متر من الرصيف الواقع على ساحل البحر.

وقد خيل إلى الحاكم أنه بمقدوره أن يستغل هذا الحطام بصورة جيدة، وعليه قرر القيام بتشييد سور جديد على قاعدة السور السابق، وقام بتشييد مستودع حكومي للبارود هناك[١] قال لي عبد الله: "لقد تم ترك الفناء الواقع بين الحصن القديم وهذا الحصن الجديد خلفاً باتجاه البحر، وتمت الاستفادة من ذلك بصورة مناسبة لتشييد المنازل التي تراها هناك، إضافة أيضاً إلى مسجد "عكا" (عكاشة) الواسع والفسيح".

"هل تصدق إذن " استفسرته قائلاً " بأن المياه قد تقهقرت وتراجعت باتجاه الغرب؟".

---

(١) يطلق على هذا المستودع عبارة " شونة " طبقا للتعبير عن ذلك باللغة العربية. (المؤلف).

"لا شك في ذلك. ولا شك أنك قد لاحظت هاتين البركتين الصغيرتين اللتين تقع إحداهما إلى الشمال والأخرى إلى الجنوب من المدينة، وتقوم حدودهما بتوضيح حدود البحر بالنسبة لك. وفي الفترة التي تم فيها تشييد الحصن بغرض حماية المرفأ وقد كانت المساحة التي يشغلها البحر أكثر عمقاً، وهذا يعنى أنها ما زالت متبقية، وقد ابتلعتها الأمواج".

"فيما يتعلق بهاتين البركتين، فإني أعتقد أنه كان من المفروض على الحاكم أن يقوم باتخاذ الترتيبات نحو ردمهما، لأنه عند انخفاض المد، فإن النباتات والأعشاب البحرية، والأسماك الصدفية إضافة إلى الأسماك العادية الميتة تتسبب في خلق رائحة كريهة تشكل خطراً على صحة المواطنين".

"لماذا تكون متلهفاً على القيام بتلك الأشياء التي يمكن أن تحدث في كل الحالات بصورة طبيعية وتلقائية؟ لماذا يعمل الرجال بكل جد في مهمة محددة يكون الله قد تعهد بإنجازها؟ دعنا نعتقد بكل تأكيد بأنه أفضل عملاً وأداء، مما يمكن أن تقوم به في أي وقت من الأوقات، أضف إلى ذلك بأنك ما زلت راغباً في أن ترى دليلاً وبرهاناً جديداً على أن البحر يقوم فعلاً بالانحسار والتراجع.

هل تلاحظ تلك المساحة الشاغرة الواقعة بين الأنقاض والتي لم يتم استغلالها بكاملها وشغلها بوساطة تلك المنازل، فهذا في حد ذاته مؤشر على مدى انتشار المدينة وتوسعها دائماً باتجاه الغرب مع انتقال السكان إلى ذلك الطرف من المدينة وجلائهم تدريجياً عن الجزء الشرقي".

"إن إعادة بناء ذلك الحائط الشرقي يبدو لي شيئاً لا غنى عنه، ففي

حالة الحصار لن يكون للحماية من بديل سوى الدفاع عن منطقة تعد مهمة وأساسية للغاية".

"إن بناء دائرة جديدة من الأسوار المغلقة يعد شيئاً ضرورياً وأساسيا، هذا صحيح تماماً، ولكن من أين تأتي الأموال؟ وبغض النظر عن ذلك، فإن سكان مدينة جدة سيكون لهم، في حالة الاستنفار، هدف مشترك مع جنود الباشا".

"نعم، ولكن عادة ما لا يبرهن التجار عن مواقف مادية ملموسة ".

"إن ذلك لا ينطبق بأي حال على مدينة جدة. فقد درج كل الناس هنا على أن يكون في منزل كل منهم بندقيتان، وعليه، ففي حالة الحصار تسند إلى كل حي من المدينة مهمة الدفاع عن جزء من تلك الأسوار العالية.

ويتم تطبيق حظر يمنع كل شخص من هؤلاء من الذهاب إلى الخارج لتقديم أي نوع من المساعدة لأي طرف آخر، إلا في حالة حدوث أي إخلال حقيقي أو يبدو أن التغلغل إلى داخلها من الغزاة قد أصبح أمراً وشيكاً ومرجحاً. والسبب في تلك الممارسة مرده إلى الإحساس بالغزو والغيرة بين سكان المدينة".

وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث على هذا النحو وصلنا إلى البحيرة الواقعة بجانب البحر.

ويتكون الجانب الخاص بالرصيف من العديد من العوارض الطويلة المغطاة كلياً بوساطة الألواح الخشبية العريضة المصنعة من أخشاب شجر التتوب.

وقد تم تشييدها على ارتفاع شاهق من البحر حتى في أعلى حالات

المد. ومن خلال ذلك قاموا بتشييد بعض الفواصل التي تقسمها إلى عدة أجزاء يفترض فيها أن تلائم أنواعاً خاصة من السلع والبضائع التي لا يمكن نقلها بأية وسيلة أخرى بخلاف ذلك. ويحدد هذا الترتيب والتنظيم الدقيق طريقة تفريغ هذه البضائع، إذ يتم نقل هذه الأصناف إلى داخل المدينة من خلال البوابات التي تستعمل في نقل هذه السلع على امتداد الجانب المحاذي للرصيف بصفة عامة.

ويعد المرفأ ثابتاً وقوياً عموماً، وبالتالي يكون ملائماً لاستقبال السفن الحربية.

ولقد شاهدت هناك سفناً تجارية قادمة من الهند لا تقل حمولتها عن (١٠٠٠) طن فما فوق.

وعندما كانت السفن تصلنا من السويس كان الخط الواقع على الشاطئ بكامله يكون مليئا بالمشاهد الخاصة بأشرعة السفن الشبيهة بحزمة من القصب التي تشكل كتلة مستوية ومتلاصقة.

وقد كانت تلك الأماكن المتناثرة في المياه تقع إلى الغرب من المدينة المعزولة، لكن كان بمقدورنا التعرف عليها عن طريق مدى الزَّبَدِ الناتج عن الأمواج المتلاطمة عندما كانت تهب على تلك الأجزاء.

وكان يتوجب على السفن أن تشق طريقها إلى الأمام وسط صفين من تلك الأشرعة، لتعبر من خلاله إلى جدة، حيث تقوم في النهاية، بالبحث عن مخرج بين الصخور باتجاه الجنوب، إلى "بوغاز"(١) مستقيم بصورة معقولة تكون مجبرة على الإبحار من خلاله لكي تقوم بالتوغل فعلاً داخل المرفأ.

(١) هذه كلمة عربية تعني "المضيق" أو "الممر". (المؤلف).

وتوجد على أحد أطراف المدينة بعض الضفاف الجديدة المكونة من الصخور التي تقوم، إضافة إلى سابقاتها، بصنع ما يشبه القنال الذي يجب أن ترسو فيه السفن ذات الحمولات الكبيرة.

أما السفن العربية "البغلات[١]" "baglas" فبمقدورها أن تلقي بمراسيها قرب الرصيف، وبعد أن يتم تفريغها تواصل تقدمها على امتداد ساحل البحر شمالاً. ويكون رسو السفينة العربية على بعد حوالي ميل واحد من الأسوار. أما بالنسبة للسفن الكبيرة فيكون على بعد حوالي ثلاثة أميال تقريباً. وفي كلتا الحالتين فقد كانت كلتاهما تبدو وهي في وضع "المكلا أو الملجأ" الحقيقي، ومع ذلك فقد كانت تقف وكأنها بداخل الميناء نفسه والذي يوفر حماية منفصلة من خلال بناء غير مكتمل من "القار" لم تكن أطرافه العليا تصل إلى مستوى سطح البحر، وهو يعمل فقط مثل الصخور الحجرية في حماية تلك السفن الراسية في جدة من الرياح والعواصف التي تهب على البحر.

وقد كانوا يضطرون إلى الاستفادة الكاملة من العديد من قوارب السفن في إخلائها وتفريغها من البضائع الأساسية. وقد كانت هذه الطريقة مرهقة ومكلفة، لكنها كانت توفر مصدراً للرزق لكثير من أفراد الطبقة المتوسطة الذين جبلوا على الأعمال الشاقة.

أما المساحة أو الحيز الذي كان يخصص لتلك العمليات، فقد كان ذا عمق محدود للغاية (ضحلاً)، وعليه فقد كان البحارة يضطرون إلى

(١) وهي كلمة عربية تطلق على تلك السفن ذات الطاقم الكامل من الأشرعة والتي تجوب البحر الأحمر (المؤلف).

استعمال قناة صغيرة، الشيء الذي لم يكن عملياً عند انخفاض المد.

وعلى المسافة الواقعة بين أسوار الرصيف وأكثر المنازل قرباً منها كنا قد مررنا بميدان مزدحم، وله طول أكبر من عرضه، يوجد فيه مكان صغير لبناء السفن.

ومن هنا كانت تنطلق بعض المراكب الشراعية المخصصة والمرقمة لاستعمال السفن ذات الحمولات الكبيرة، كما كانوا يقومون بعمل الصواري والعوارض الشراعية، وحبال الأشرعة، وغيرها من بعض البراميل الخشبية الكبيرة ذات الشكل المكعب والتي كان العرب يستغلونها جيداً ولأقصى حد ممكن - عندما يكونون على سطح المركب - في تخزين مياه الشرب النقية[1].

في هذه اللحظة بالذات كنت أقوم بمشاهدة بناء أحد هذه القوارب الشراعية، وكذلك أحد قوارب الصيد التي يتم تصميمها من كتلة خشبية واحدة. وإذا لم تكن الشموع موجودة في هذه المنطقة، فلقد كان من غير المجدي بناء مجرد تلك القوارب الخاصة بالتجارة الساحلية، إذ كان كل شيء يشق طريقه من هناك بحاجة للمرور عبر البوابة الضيقة في السور، والتي كانت تفصله عن البحر.

وبصرف النظر عن ذلك، فلم يكن هذا الميناء عميقاً بما فيه الكفاية، وعليه فإن السفن التي كانت تتطلب طلاءاً من (الزفت) وتلوينها، عليها أن تبقى جانباً على شريط من اليابسة والاستفادة من ارتفاع المد فيما يتعلق بإمكانية اقترابها بطريقة معقولة بالقرب من الشموع.

(١) مكان معدات صغار السفن. (المؤلف).

وبينما تبقى الأشياء متوقفة عند انحسار المياه، يقوم النجارون والحرفيون الذين يصبون (الزفت) بالشروع في محاولة تحريك المراكب وطرحها أرضاً على جانبها وفي زاوية ملائمة مع أعمالهم اليدوية.

ويواصل البحر انحساره، ويقوم هؤلاء البحارة الموجودون في جدة والذين ظلوا يشاهدون هذه الحركة لفترة طويلة، بتقدير أنه في خلال خمسة عشر أو عشرين عاماً، فإن عمليات إنزال السفن سوف تكون متاحة للاقتراب من جانب الرصيف الذي يقف هناك اليوم.

ونلاحظ خلال فترات انخفاض المد أن هناك ألسنة من اليابسة تمتد بعيداً عن الميناء، وهي ترتفع إلى أعلى فوق سطح المياه، تصنع فيما بينها بوغازاً ضيقاً يمكن استغلاله بوساطة العديد من العاملين في بناء السفن.

وفي اللحظة نفسها التي يعمل فيها انتشار هذه الضفاف الأرضية بإظهار ما يدل على إغلاق هذا الفراغ، فإن ذلك يكون هو الوقت الملائم بالضبط للقذف إلى أعلى بما يشبه الحاجز أو الخزان الذي يقوم برفع منسوب هذه المياه الضحلة إلى أعلى مستوى فوق المنسوب الراهن للمياه الذي يكون في أعلاه.

وسوف يتم ردم الفراغ الواقع بين هذا الحاجز وبين الرصيف نفسه مسبقاً. وعليه يتم تحويل الميناء إلى شيء يكون قريب الشبه بالقنال الواسع العريض الذي يكون بمقدور السفن ذات الحمولات الكبيرة أن تدخل إليه وتقف ثابتة فيه، ولطالما كان بمقدور هذا المرفأ أن يحتوي على ما يتراوح بين (٧٠) و (١٠٠) باع (الباع يساوى ستة أقدام) من العمق فإن الخوف من تراجع مياه البحر وانحسارها يبدو شيئاً غير وارد.

إن التوسع الذي سيكون بمقدور جدة تأمينه على غرار رأس الرجاء الصالح، في حالة تحقيق ذلك - إضافة إلى الأهمية التي يبدو أن الجزيرة العربية سوف تكتسبها تحت الحكومة الواعية والمتفهمة لمحمد علي - سوف تجعل من هذا التصور أو الحلم شيئاً يمكن أن يتم الوفاء به وتحقيقه بالنسبة لهذا المشروع الحيوي المهم، والذي لن يكلف كثيراً، إذ أن الحاجز أو السد لن يتطلب أكثر من دفعه أقدام قليلة.

سوف يحتوي هذا الجزء من البحر الأحمر مستقبلاً على ميناء بحري عميق بحق، وسوف يكون في الوقت نفسه ثابتاً ومستقراً.

وعليه سيكون بالإمكان تصميم المراكب وإنشاؤها هناك وإنزالها إلى البحر، وستكون جدة بمثابة مركز ذي أهمية بالغة عندما يحين الوقت للتعامل التجاري بين كل من أوربا والهند للعبور مباشرة من خلال برزخ قناة السويس.

الفصل الرابع

بما أن دليلي قد رفض أن يصحبني إلى ضريح حواء، فقد ركزت على فكرة القيام بترتيب زيارة إلى هناك بدون مساعدة من المسلمين، وبعد عدة أيام من وصولنا التقيت ببعض الأوربيين، حيث شرعنا سوياً في مسيرتنا قاصدين ذلك الهدف. وقد كان زينا الذي كنا نرتديه كفيلاً بأن يجعل كل شخص يعتقد أننا من الجنود العثمانيين الذين يغلب عليهم الورع والتقوى، والذين دفعهم إلى تلك النقطة إحساسهم الديني بالاحترام والتقدير للأم الأولى (حواء) والشكل الذي يمثلها، وكنا نرى بكل ثقة أن الحارس المشرف على ذلك الأثر لن يمانع في دخولنا إليه.

مع ذلك فقد كان بعض رفاقنا، الذين كان يغلب عليهم الخوف الناشئ من تزمت سكان جدة، يعتقدون أن من الحكمة عدم المغامرة في محاولة بدت لهم بالغة الخطورة، وقد صور بعضهم لأنفسهم بأننا نقوم بمخاطرة قد تكون نتيجتها ضرب أعناقنا أو دخولنا في الإسلام.

لقد كانت القبور التي تضم رفات بعض الشخصيات المهمة بمدينة جدة تقع في الطرف الشمالي الشرقي من المدينة، وفيما بدا شبيهاً بالأم التي تتوسط بنيها، كان يقف ضريح تم نحته بطريقة جيدة وتعلوه القبة. وقد تم اكتشاف بوابة الدخول إلى هذا الأثر الصغير على الطرف الشرقي، وقد تم عمل نافذتين في الجدران لكي تسمحا بدخول الهواء وضوء الشمس إلى الداخل. وكان هذا هو الضريح المشهور لأمنا حواء أو كما يطلق عليها العرب.

وكان رجل كبير السن، يشبه القديس، وذو ملامح تتسم بالهدوء والرزانة ولحية مسترسلة يجلس على وسادة صغيرة في ظل القبة. وكان يوجد بجانبه مصحف نصف مفتوح وقُلَّةٌ أو جَرَّةٌ[1] مليئة بالماء. وكان يحمل في يديه شيئاً كالمسبحة يضم بعض التمور المجففة، يقوم بين الفينة والأخرى بتناول حبة منها.

كان ذلك الرجل يشبه القديس المتصل بهذا الأثر أو الضريح. وكان جبينه العريض في حد ذاته يبدو شاهدا يدل على أنه يتمتع بطبع تغلب عليه الوسطية والاعتدال.

وقد كان بكل تأكيد يمثل واحداً من أولئك الذين يعيشون كلياً من أجل أفكارهم ومعتقداتهم العميقة أكثر مما يعيشون من أجل شهواتهم، وتتحكم فيهم عقولهم أكثر مما تتحكم فيهم بطونهم.

وبمجرد أن ألقينا نظرة عليه نهض وتقدم نحونا قائلاً: "لقد أتيتم إلى هنا، دون شك، لزيارة المقام الذي تم تشييده بواسطة المخلصين فوق ضريح أمهم".

"نأمل أن تكون لطيفاً وتتيح لنا الفرصة بمشاهدته".

"هذه مهمتي الأساسية طوال النهار، وما عليكم إلا أن تتبعوني".

وقمنا بالدخول، لكننا كنا نعتقد بفكرة مفادها التشبث بأحذيتنا، ولم يكن ليفوت على المسلم الحقيقي القيام بتركها وراءه عند بوابة الدخول. وقد كانت هذه واحدة من الأخطاء، وبالتأكيد لو كان هناك خطر يترتب على اكتشاف أحد المسيحيين بذلك المكان، لكنا عرضة لتوقيع أشد العقوبة علينا.

(١) هذه كلمة عربية تطلق على آنية حجرية لحفظ الماء (المؤلف).

مع ذلك، وبما أن هذا (الشيخ) العجوز كان منهمكاً ومشغولاً للغاية بتلاوة أدعيته التي يقوم بترديدها دائماً في مثل هذه المناسبات، فلم يبد عليه ما يشير إلى أنه قد أولى هذا الأمر أي قدر من الاهتمام.

وخلال هذه الفترة كنت أقوم بتزجية الوقت في فحص المخطط الحقيقي للجزء الداخلي من الضريح.

وقد كانت الجدران مغطاة ببعض النقوش والآيات القرآنية. وفي الوسط تماماً، وعلى ارتفاع ست بوصات من البلاط الذي كان يغطي الأرضية، تم تشييد الشكل الضخم للضريح. وكان يتكون من الحجارة السوداء مع تجويفة بسيطة في الوسط تماماً. وقد ارتفعت أربعة أعمدة خشبية صغيرة من كل زاوية حيث تم وصلها بعضها مع بعض بوساطة قطعة متقاطعة الشكل وذات زاوية حادة على (الإفريز)، وهي تقوم بدعم شكل شبه أسطواني عادي كانت أجزاؤه المجوفة مشكلة لكي تكون مواجهة دائماً للشمس، وفي واقع الأمر فقد تم نحتها بواسطة البنائين حتى تكون منحرفة عن محورها.

أثناء ذلك كان الشيخ العجوز، وهو يرانا نقف من حوله مجردين من أبسط دليل يمكن أن يبرهن على خشوعنا أو إحساسنا العقدي بالموقف، وبعد أن تأكد بأنه قد طرق أذنيه بعض الحديث الذي لم يسبق له أن سمعه إطلاقاً من أي حاج آخر، شكَّ في أننا لا بد أن نكون من الأوربيين. ومع ذلك لم يبدُ عليه الانزعاج من هذا الاكتشاف، فقد كان الأمر هو مجرد قيامنا بملاحظة هذا الانطباع على ملامحه، وهو عبارة عن التعبير الذي يدل على ذلك الإحساس الذي يمكن أن يحدث لأي شخص عندما يكتشف بأنه قد سمح لنفسه بأن يتم خداعه.

وقد بدا راضياً ومقتنعاً بأن يقوم بختم أدعيته، وقد بدا على درجة عالية من الصبر والتحمل أكثر مما كان يمكن أن ينتج عن رد الفعل لدى أي ناسك إيطالي في حالة قيام أي مسلم بالدخول (من خلال استخدام الحيلة والخداع) إلى الضريح المقدس لمريم العذراء.

وعندما كشفنا له عن هويتنا قال بكل عدم اكتراث "مليح (هذا لا يهم) إن حواء هي أم البشر جميعاً". ثم واصل حديثه قائلاً:

"لقد تمت زيارة هذا الضريح، في كل الأوقات، من قبل الرجال من شتى الأمم والأجناس. وبصرف النظر عن ذلك، فإن طوله يبلغ أربعين ذراعاً وهو يقف بمثابة الصرح العظيم".

"لقد تم تشييده بمجرد أن تم إجبار الوهابيين[١] على التخلي عن السيطرة على الحجاز[٢]. ولقد تم تشييد هذا الضريح في الموقع نفسه، بالضبط في منتصف سرة حواء، فقد كانت الجثة طويلة للغاية إذ كان رأسها في المدينة وأقدامها في إفريقيا.

ولقد سمعت عن بعض التقارير التي تشير إلى أن محمد علي[٣] قد قام

---

(١) هذا اسم لطائفة دينية وعسكرية كانت في الفترة الأخيرة قد كونت لنفسها شهرة واسعة في الجزيرة العربية. (المؤلف).

(٢) من المعروف بأن الدولة السعودية الأولى وفي عهد الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود قد تمكنت من الاستيلاء على الحجاز في عام ١٢١٧هـ / ١٨٠٣م وأزالت كل مظهر من مظاهر البدع والاعتقادات التي لا تمت إلى الدين الصحيح بصلة ومنها ضريح حواء الذي اعتقد البعض بأنه فعلاً قبر حواء أم البشر، وهو اعتقاد لا تدعمه الحقائق، فأحيط بهالة خرافية ومنح قدسية اعتقد بها البعض (المترجم).

(٣) يقصد محمد علي باشا حاكم مصر والذي استعادت الدولة العثمانية على أيدي قواته سيطرتها على الحجاز وإجلاء السعوديين منها في عام ١٨١١م (المترجم).

بإرسال أموال لإحاطة كل المقبرة بسور، لن يكون الحاكم[1] مبطئاً أو متلكئاً في أن يقوم بوضع ذلك موضع التنفيذ.

وقبيل مغادرتنا للمكان قمنا بإعطاء هدية للشيخ، ولم تكن لديه الرغبة في الاحتفاظ بتلك القروش، فقام بتوزيعها على الفقراء الذين تجمعوا من حوله عندما رأونا ندخل المكان.

ومع ذلك، لم يمنعهم ذلك من طلب الصدقات منا، وعند رفضنا لتوسلاتهم قاموا باستغلال الموقف بطريقة ماكرة عندما قالوا:

"أيها السادة، مهما كانت المسافة التي تفصل بيننا اليوم كبيرة، فإن ذلك لن يغير شيئاً من حقيقة واحدة مفادها أننا جميعاً أبناء أم واحدة". إذا طلب منك إخوتك أن تسدى إليهم معروفاً أو صدقة فهل تكون عاجزاً عن منحهم بعض النقود البسيطة ؟

وعند مغادرتنا المكان الآن ونحن نخلف وراءنا تلك المقبرة، أو ما يمكن وصفه "بيتر لاشيز" Peter Lachai" الخاصة بجدة، اتخذنا الطريق المتجه جنوباً بغية تسجيل زيارة خاصة بالناس العاديين.

وقد ظهرت أمامنا مجموعة من المقابر البيضاء التي يمكنك أن تقول عنها إنها كانت منحوتة من نوع الصخور نفسه. وقد كان أكثرها جاذبية تلك التي كانت مزودة بقطعة رأسية من الحجر كانت تقف منصوبة فوقها. وقد كانت تلك هي المخصصة للرجال.

أما بالنسبة لتلك الخاصة بالنساء، فإنها أكثر اختلافاً، حيث كانت نادراً ما ترتفع عن سطح الأرض.

---

(١) كان حاكم الحجاز خلال هذه الفترة التي يتحدث عنها المؤلف هو أحمد باشا ابن أخت محمد علي باشا. (المترجم).

ولم يكن هناك شيء أكثر ملاءمة في هذا المكان من أن نتذكر بأننا جميعا لسنا سوى مسافرين نغادر هذا العالم للانتقال إلى عالم آخر نجتمع فيه مرة أخرى بمن سبق وغادروا قبلنا. وهنا بدت لنا صعوبة شديدة في أن نرى أي أثر لأي خضرة أو نباتات.

وكانت هناك فقط بعض الشجيرات المتناثرة، والتي يكتنفها الغبار، هي فقط النباتات الوحيدة التي تنمو في هذا المكان الذي يعد مأوى للموتى.

بالإضافة إلى ذلك لا يحق للنصارى أن يُدفنوا في مقابر المسلمين. وفي حالة وفاة أي نصراني يتم دفنه في إحدى الأهوار (بحيرة ضحلة) والتي يمكن مشاهدتها جنوب جدة. وقد تم اختيار موقعها هذا لأنه يعد منفصلاً عن اليابسة الرئيسة بوساطة البحر. وقد كنت معجباً كثيراً بهذه المقبرة، والتي تهب عليها أمواج البحر بصورة مستمرة خلافاً لتلك المقابر العارية والمعزولة كلياً والتي تضم رفات المسلمين.

وتقع بين هاتين المقبرتين، وإلى خارج بوابة مكة، بعض المساكن الخاصة التي لا قيمة لها، والتي يمكن عند ملاحظتها أن يعتقد المرء أنها ضاحية من ضواحي مدينة جدة. ويعقد هناك سوق صغير يؤمه البدو إجمالا وبصورة مكثفة.

ومن تلك النقطة المحددة تنطلق أغلبية القوافل في طريقها نحو الداخل. أضف إلى ذلك أن إمدادات الفواكه تأتي إلى هنا من الطائف ومن وادي فاطمة. وفي كل صباح عندما يتم فتح الأبواب على مصراعيها يقوم الحمالون[١] بنقل هذه الأشياء إلى البازارت الكبيرة بغرض بيعها إلى الباعة

(١) هي كلمة عربية تشير إلى بائع الجملة، أو من يتعامل على أساس نسبة مئوية معينة من الصفقات الفعلية (المترجم).

والسماسرة من الوسطاء.

بعد ذلك مررنا بمجموعة من الأكواخ المثيرة للدهشة والاستغراب، والتي يمكن أن تتأفف الكلاب لدينا في أوربا من اتخاذها مساكن لها[١].

ويمكنك أن تتخيل تلك الأغصان الخشنة والجافة وقد تم إلقاؤها بكل بساطة على الأرض حيث يتم تغطيتها بقطع من القماش والخرق البالية أو البسط والسجاجيد القديمة التي قام بعض المسافرين بالقذف بها دفعة واحدة لاكتشافهم بأنها صارت ممزقة وغير صالحة للاستعمال، وسيكون بمقدورك عندئذ أن تكون فكرة بسيطة عن هذه المساكن المتدنية الحال، والتي تقوم أسر بأكملها بالنمو والاختلاط بداخلها طبقاً للآية الكريمة من الكتاب المقدس.

هناك توجد المساكن الخاصة بعنصر زنجي معين تطلق عليه عبارة "تكروني". وبالتأكيد ليس هنالك من طائر في الهواء أو أي حيوان متوحش في الغابات لم تكن لديه القدرة على تشييد ملجأ وملاذ أكثر راحة من تلك الخاصة بهؤلاء المتشردين. وقد كان كل ما يتعلق بهم ممعناً في القذارة، بل يندر أن يؤهلهم شيء للمشاركة في أي من الأنشطة التي نسهم فيها مع بقية بني البشر.

وعلى أية حال، فالأمر سيان بالنسبة لهؤلاء الزنوج سواء كانوا أكثر مثاراً للاستغراب والتعجب من لومهم. ونتيجة لما جبلوا عليه من طبيعة لطيفة وجذابة، فقد كانوا يقطنون وسط أناس يجمعون بين السخرية والشره،

(١) نود أن نذكر هذا الكاتب أن دولته ونظراءها من دول الاستعمار قد كانت السبب المباشر والرئيس في إيصال بعض سكان الدول العربية إلى هذه الحالة التي يصفها الذين هجروا مواطنهم الأصلية وخاصة ذلك النوع من السكان. (المترجم).

والذين يقومون بغشهم وإفقارهم، كما أن عاطفة الحنين إلى الوطن الأم تقوم بإكمال ما بدأه سكان جدة من غش وخداع.

مع ذلك، وبفرض جعل الفقرة السابقة أكثر فهماً ووضوحا، دعنا نعدد في كلمات قليلة طبيعة هؤلاء السكان الغرباء.

ولنستمع إلى ذلك السرد الذي قام "الجلاب"(١) بشرحه لي، مع الوضع في الاعتبار أن مهنته الأساسية تجعلنا نتأكد من قدرته وكفاءته حول الحديث عن هذا الموضوع.

قال لي أحد العاملين بتجارة الرقيق يوماً ما: "هؤلاء الناس" يقطنون في إحدى المناطق الإفريقية الواقعة فيما وراء "دارفور". ويطلق على هذه المنطقة عبارة "تكارنة"، وهي تعني بطريقة أدق تفصيلاً اسم " برنو". وبما أن الأرض هنا ليست خصبة للغاية، وبما أن كل أنواع المنتجات برهنت على عدم ملاءمتها لحاجات سكان المنطقة، فقد عملت الحكومة، بغرض تخليص نفسها من التضخم السكاني المتزايد، على إخراج عدة آلاف من هؤلاء الزنوج كل عام بدعوة إرسالهم إلى مكة لأداء فريضة الحج.

وكانت قوافلهم تبدأ في رحلتها وهي تشق طريقها عبر مناطق "دارفور" و"كردفان". وبما أن هذه البلاد كانت مفصولة بعقبات من الأراضي الصحراوية فقد كان هؤلاء الزنوج يعبرونها سيراً على الأقدام، ويقتاتون على بعض المواد التموينية التي قاموا بوضعها داخل سلال صغيرة تتدلى من كلا طرفيها بحيث يستقر الجزء الأوسط منها مركزاً الحمولة كلها على أكتافهم.

(١) تعني التاجر الذي يتعامل فقط في تجارة الرقيق (المؤلف).

كما كانوا يقومون أيضاً بحمل قوارير جلدية (قرب) من الماء. وعندما كانوا يؤقتون خروجهم في فترة معينة تهطل فيها الأمطار الموسمية، كانوا يجدون طريقهم إلى التزود من الماء من الشقوق أو أجزاء الصخور المجوفة، أو من مجاري الأنهار.

وخلال فترة أدائهم لشعيرة الحج يقومون ببيع كل أنواع العروق والنثريات والبقايا التي جاؤوا بها من موطنهم الأصلي، ويقومون بتوزيع أدوات السحر والتعاويذ التي تحمي الزنوج من كل أنواع الأمراض وتعمل أيضاً بمثابة جرعات للمحبة.

وكثير من هؤلاء الرجال من الشيوخ ذوي المعرفة والاطلاع. ويعتقدون أن بعض الآيات القرآنية المعينة، والمكتوبة على رقع من المخططات، بمثابة شيء يجلب حسن الطالع، الشيء الذي يمكنهم من إكمال رحلتهم وإنجازها بطريقة موفقة وناجحة. ومن كردفان يشقون طريقهم إلى "الخرطوم" أو إلى "دنقلا"، وفي هذه الأثناء يرتبون أمر وصولهم إلى ميناء "مصوع" في الحبشة أو إلى "سواكن" عندما يعبرون الصحراء الخاصة بقبائل البشاريين.

وبمجرد وصولهم إلى الموانئ الموجودة على بحرنا، يتم ترحيلهم بدون مقابل على العديد من السفن حيث يحطون رحالهم بمدينة جدة".

خاطبت الجلاب: "يبدو لي" أنه يصبح محتماً أن يتحلى الشخص بشجاعة نادرة وفوق العادة إذا كان الشخص عرضة للمخاطرة بحياته في تلك الصحارى التي نادرا ما يجرؤ الشخص على مواجهتها عندما يكون لديه، لاستخدامه الخاص، تلك الجمال العربية الأصيلة والأدلاء ذوو الخبرة الواسعة.

ومع ذلك، فهل تستطيع القوافل العديدة البقاء على قيد الحياة في تلك المجاهل الخطيرة التي يعبرونها، لفترة تبلغ حوالي الخمسة عشر يوماً، فقط على قطرات من الماء لإطفاء ظمئهم ؟".

"إن الشجاعة المستمدة من الإيمان القوى تعد أكثر قوة" من كل المعجزات.

إضافة إلى ذلك فهم لا يتحركون جميعاً في مجموعة واحدة، وإنما يتحركون على التوالي وبالتتابع، في مجموعة وتشكيلات صغيرة تتراوح ما بين (١٥٠) و (٢٠٠) رجل، وهم يحملون الشعار الخاص بقبيلتهم، وهم لا يذهبون قط متجاوزين حدود الإقليم أو البلد المعني دون أن يكونوا قد حصلوا مسبقاً على الوسائل التي تمكنهم من مواصلة حجهم".

"من الملاحظ أنه ترافقهم أحياناً بعض النسوة، لكن من النادر أن يتم إلزامهم بحمل أي شيء آخر بخلاف بعض القرب المليئة بالماء والمخصصة لاستعمالهم الشخصي فقط. كما أن مواطني تلك المناطق التي يمرون عبرها وسكانها يشعرون بحاجة ماسة إلى تفادي الالتقاء بهم عندما يكونون وحدهم خلال تلك الرحلات. والسبب في ذلك أن قبائل "التكارنة" قد يتخذونهم سجناء ويجبرونهم على التخلي عن بعض الكميات من أمتعتهم التي يحملونها.

ولم يكن هؤلاء الزنوج يتمتعون بقطرة من الإنسانية تجاه أولئك الأشخاص ذوي الطالع السيئ. وقد كان من الضروري أن يواصل المتسولون هؤلاء مسيرتهم قدماً حتى تلك المناطق أو المرحلة التي يكونون فيها على حافة السقوط أرضاً وهم يعانون من التعب والإرهاق".

"ذلك بالتأكيد من الأشياء التي تتجاوز حدود الإنسانية والعدالة والتي تقلّ- واضطراراً - من عاطفة الناس النبلاء والكرام نسبة للظروف التي تجابه "التكارنة" في الحجاز ".

"ومن جدة يتوجهون إلى مكة، وبعد انتهاء مراسم الحج تتوجه أعداد محدودة منهم عائدة إلى موطنهم الأصلي، بينما تظل الأكثرية منهم، وهي تستعيد في أذهانها تلك المشاق والأخطار التي عانوها في رحلتهم السابقة، ولا تشعر بأية رغبة في اتخاذ القرار بالمجازفة برحلة أخرى بالعودة إلى موطنهم، وبالتالي ينتهجون سياسة الاستقرار والإقامة في كبريات المدن في منطقة الحجاز.

وهناك يكيفون أنفسهم لممارسة أحقر المهن والأعمال التي لا يكون أي واحد من العرب على استعداد للقيام بها، وينتهي بهم الأمر في نهاية المطاف إلى أن يصبحوا أكثر توحشاً، للدرجة التي يحتفظون فيها بما لا يتعدى المظهر الخارجي فقط للآدمي".

"مع ذلك فقد نما إلى علمي أن هناك بعض "التكارنة" قد كانوا غاية في الذكاء كما هو المعدل الطبيعي وسط غيرهم من الزنوج الآخرين، وأحياناً يتجاوزونه لأكثر من ذلك".

"وقد كان من حسن الطالع لبعضهم في أن يظلوا مجتمعين سوياً ويعيشون تحت حماية بعض الأشخاص الأثرياء الذين يأخذونهم إلى منازلهم للقيام بخدمتهم قبل أن تتسبب مآسيهم وإحساسهم بالحنين إلى موطنهم في عودتهم وهم أحط قدراً ".

أما بالنسبة للنسوة اللائي ما زلن يحتفظن باستقلالهن، فيتجهن إلى

امتهان صناعة الفخار، حيث يقمن ببيعه في البازارت. أما أزواجهن فيواصلون استخدام أساليب كسب العيش نفسها التي مارسوها واكتسبوا خبرة فيها خلال رحلتهم المضنية، وبخاصة أساليب السحر والشعوذة نفسها، وبيع عروق المحبة، أو العمل بمهنة "السقا"(١). ولا يمتلك العديد منهم أية مساكن من أي نوع .

وعادة ما يقومون بالاستلقاء أرضاً في الخارج بغرض الراحة، ويقومون أثناء ساعات النهار بالاستلقاء للنوم تحت وهج الشمس ودون أن يتعرضوا بصورة واضحة لأية أمراض".

"أما بالنسبة لأولئك الذين يقفلون عائدين في طريقهم مرة أخرى إلى ديار "البرنو" فعادة ما يصلون هناك في أعداد قليلة للغاية. وأحياناً تقوم الأعاصير والأتربة بابتلاع قوافلهم، أو يقضون نحبهم بسبب انعدام مياه الشرب، وبهذه الطريقة يكون الهدف الحقيقي المقصود من قبل حكومتهم قد تحقق".

ويقع بين مساكن التكارنة هذه وبين ضريح حواء مساحة كبيرة ذات شكل مربع يتكون من أربع حوائط من الطين لكل واحد منها بوابة دخول خاصة به، وقد مررنا بهذا الميدان المسوَّر أثناء سيرنا. وفي اليوم الأول من "البيرام" (العيد) الصغير (عيد الفطر) يتجمع كل سكان مدينة جدة بعضهم مع بعض في هذا الميدان المسوَّر(٢).

أما أولئك الذين يحضرون متأخرين، فيتوجب عليهم بكل بساط بساطة

---

(١) يقصد بهذه الكلمة الأشخاص الذين يحملون المياه. وتعد هذه الكلمة معروفة جيداً سلفاً بالنسبة لقرائي. (المؤلف).

(٢) يبدو أن المؤلف يعرف مصلى العيد (المترجم).

البقاء خارج السور لكي يفسحوا مجالاً لدخول واحدة أو أكثر من الأسر المعروفة.

وفي اللحظة التي تسبق شروق الشمس يتجمعون سوياً لأداء الصلاة في جماعة على أولئك المتوفين، وهم يكبرون بأعلى أصواتهم. وتستمر هذه المراسم الساعة ونصف الساعة، حيث تصل إلى نهايتها بخطبة يلقيها "القاضي".

يلي ذلك تفرقهم جميعاً، حيث يعود الرجال إلى المدينة، أما النسوة فيواصلن زيارتهن للقبور بغرض الانتحاب فوق قبور أقاربهن.

تحركنا مرة أخرى باتجاه الشرق، شاهدنا بعض الصخور المستديرة الضخمة التي انحسر عنها البحر وقد تآكلت بوساطة أمواجه المتلاطمة عبر فترة يمكن حسابها، مع كل الاحتمالات، بآلاف السنين.

أما قاع البحر الذي كان صائدوا الأسماك، فيما سبق يرمون بشباكهم فيه، أو تلقى فيه مراسي السفن ويتم ربطها فيه، فقد أصبح الآن يشكل مجرد بؤرة أو مستنقع تتراكم فيه المياه لفترات طويلة بعد موسم هطول الأمطار. ومن أحد جوانبها تمتد منطقة المستنقعات هذه قدماً إلى بعض أشجار التنوب. وهنا تقوم بعض الطيور "القماري" وغيرها من أنواع الطيور الأخرى بالاستراحة على أغصانها، حيث يجذبها إلى ذلك المكان قرب توافر الماء.

ويقوم بعض الجنود من الجيش غير النظامي الذين يعيشون على البيلاف (وجبة شرقية من الأرز واللحوم والتوابل)، دون شك، كوجبة رئيسة، بمحاولة الاختفاء وسط كثافة أشجار السنط، وهم يحاولون الحصول على صيد من هذه الطيور بغية الحصول على وجبة خفيفة منها.

وتراهم يحملون في إحدى أيديهم مزماراً من ذلك النوع الذي يستعمل في نداء الطيور، وفي اليد الأخرى بندقية، وعادة ما يعودون ، في أغلب الأحيان، إلى خيامهم وقد تزودوا جيداً بهذا النوع من المواد الغذائية.

لقد كان ذلك ضرباً من تمضية أوقات الفراغ فقط بالنسبة لهؤلاء الجنود، أما بالنسبة للعرب فقد كانوا يبغضون أساليبهم هذه، لأن هؤلاء الرجال ليس لديهم أدنى تقدير أو احترام لهذه الطيور التي حظيت، على امتداد منطقة الحجاز، بحماية خاصة من الرسول (صلى الله عليه وسلم)[١].

وقد كانت تلك البركة الصغيرة من المياه العذبة، إضافة إلى أشجارها الذابلة واثنتين أو ثلاث من أشجار النخيل التي توارت وتم ابتلاعها داخل المدينة نفسها، والتي كانت توجد بالقرب من المسجد - وهي التي تشكل إجمالاً الحياة النباتية في مدينة جدة !.

وبما أنني سبق وأن تحدثت عن "التكارنة"، فدعنا الآن نعطي نبذة مختصرة عن أناس آخرين لا يقلون في استقلاليتهم وزهوهم بأنفسهم عن أولئك الناس الأذلاء والخاضعين الذين سبق ذكرهم في بادئ الأمر.

يلاحظ المرء في جدة نوعاً من الرجال البالغي الأناقة والذين يتجولون في طرقات المدينة وبازاراتها، وهم يجلسون، يطالعونك بنظرات حادة من على أسِرَّة[٢] المقاهي. ويبدو لون بشرتهم وكأنه شديد السواد بصورة تشابه

(١) نحن المسلمين نعلم أن حرم مكة المحددة أبعاده بدقة يحرم فيه الصيد، أو التعرض للأشجار، وهذا حكم حرم مكة ولا تدخل جدة ضمن الحرم. ومع ذلك فإننا نقدر لأسلافنا سكان جدة اهتمامهم بالحياة الفطرية من طيور وغيرها وغيرتهم على حمايتها (المترجم).

(٢) هي عبارة عن كنبة تأخذ شكل الأريكة (المترجم).

لون الزنوج الحقيقيين، ولكن تبدو عليهم مسحة خفيفة مائلة إلى الحمرة الحقيقية وألوانهم متدرجة بشكل خفيف.

هؤلاء الرجال الغرباء هم من مواطني "سواكن"، وقد عبروا إلى جدة لما تشكله روابطهم التجارية بها من مغريات بالنسبة لهم[1]. وهم كجنس يعدون من العناصر المزهوة بنفسها كثيراً، إذ تجدهم يمشون بطريقة رزينة وسط أولئك السيئي الطالع الذين تزدحم بهم طرقات جدة وشوارعها، حيث إنهم الوحيدون الذين يحتفظون على الدوام بالملامح الأكثر نقاءاً وسط كل المآسي التي تحيط بهم، فأزياؤهم البيضاء الأنيقة تحمل دائماً مظهراً خارجياً يدل على الدقة والانضباط اللذين يؤكدان على كفاءتهم وتفوقهم من حيث الذكاء.

وهم ينتعلون أحذية أو في أغلب الأحيان صنادل على طريقة لبس أهالي جدة نفسها، لكنها تبدو أدق وأكثر ذوقاً، ولها لسان من الجلد يبلغ طوله حوالي مقاس الإصبعين، وهو يفصل الجزء الأدنى من أرجلهم، ويستمر إلى أعلى أقدامهم، ثم يتواصل إلى الأمام تزينه بعض الأربطة والسيور إلى أن يصل قريباً من مقدمة أصابع أرجلهم الكبيرة. وكانوا ينتطقون أحزمة جلدية، وينشرون على أكتافهم وشاحاً أبيض، يثبتونه بألف طريقة وطريقة (بأشكال مختلفة)، ولكن على الدوام بشكل أنيق. وتنبئ ملامحهم وسلوكهم بأخلاقهم النبيلة، التي تمتزج لديهم بمسحة من الغرور مصدرها اعتيادهم على إصدار الأوامر للعبيد الذين يتجرون بهم.

(١) من المعروف بأن الضفة الإفريقية للبحر الأحمر بما فيها من مدن وموانئ مثل سواكن وطوكر ومصوع ودهلك وزيلع جميعها تابعة إدارياً لولاية جدة وتدار بواسطة حكومتها وتجبى ضرائب هذه الموانئ والمدن إلى خزانتها (المترجم).

ولم يحدث في أي وقت من الأوقات أن قام أي واحد من هؤلاء الرجال، وهو بعيد عن موطنه الأصلي، بالاضطرار أو اللجوء إلى التسول.

إنهم أحرار في كنف موطنهم الأصلي، لكن مدينة سواكن تخضع لحاكم تركي يعينه باشا مصر، وهو اليوم يحمل اسم محمد علي شأنه شأن باشا مصر[١].

ويتجر هؤلاء الغرباء مع جدة، كما يقومون أيضا بجلب "بلاليص"[٢] الزبده، بكمية تصل إلى ثلاثة أرباع إجمالي استهلاك تلك المدينة.

ويعد موطنهم الأصلي غنياً بأعداد وفيرة من الهُجُن البشارية الأصيلة، ويرسلونها إلى هنا عَبْر البحر أو أنهم يتجهون بها براً إلى مصر سائرين بمحاذاة ساحل البحر الأحمر حتى مدينة القصير.

وتختلف أشكال سحناتهم عن سحنات العرب. أما رؤوسهم فهي مكسوة بغابة من الشعر الطويل المجعد، الأسود كأنه قوادم الغراب.

أما أنوفهم فهي عريضة، أما الذقن فهي طويلة بصورة حادة، ولهم عيون تشبه عيون الصقر، في الوقت نفسه الذي تمثل فيه الغطرسة ورقة التعبير، إذ إنها تشكل مزيجاً غريباً من الفطرة السليمة، واللامبالاة والغرور. أما بياض عيونهم فهو في غاية الصفاء، ويمنح نظراتهم بريقاً نادراً (لا يمكن مقارنته بشيء).

---

(١) بعد أن تمكن محمد علي باشا من إحكام سيطرته على الحجاز وأجزاء أخرى من الجزيرة العربية بل وسيطرته على بلاد الشام وتحديه السافر لحكومة السلطان العثماني أصبح هو الحاكم الفعلي لكل ضفتي البحر الأحمر بما في ذلك السودان ولكن عادت سواكن وغيرها من موانئ البحر الأحمر على الطرف الإفريقي إلى سلطة ولاية جدة بعد القضاء على سلطته في عام ١٨٤٠م (المترجم).

(٢) هي اللفظة العربية التي تطلق على " الجِرَار" (جمع جرة). (المترجم).

أفواههم متوسطة العرض، وأسنانهم شديدة براقة مدهشة. وأعضاء جسدهم طرية ونحيفة، ومع ذلك فهي قوية مفتولة العضلات.

ويتم ضفر كل شعر الرأس في جدائل وبعناية شديدة، ويتم تمشيطه في شكل العديد من الخصل المتراصة إحداها إلى جانب الأخرى. ويتم وضع عود قصير طوله حوالي ست بوصات ويُستخدم ذلك العود لإعادة ترجيل الخصلات المشعثة. عندما تتناثر أو يختل نظامها وتنسيقها، ويقومون بوضع الزيت على رؤوسهم مع إضافة بعض الزبد أو أية مادة دهنية بديلة، لكي يقلل من حدوث الصداع لصاحباته، وعندما يخلدن إلى النوم يقمن بإسناد رؤوسهن على وسادة خشبية، حتى لا يضطررن إلى تمشيطه بين الحين والآخر.

وتُعَدّ هذه الطريقة في تصفيف الشعر مثاليةً بسبب طرافتها، ولكن تلك الطريقة تأخذ دائماً وضعية واحدة بسبب خشونتها فتفقد الشعر حركته التي تعد من عناصر الجمال في ضفائر الشعر لدى الشعوب القوقازية.

جاء عدد من سكان مكة المكرمة لزيارتنا.

وقد أتيح لي الوقت الكافي لكي أقوم بتقويمهم على مهل. ويعتقد هؤلاء العرب الذين يقطنون في هذه المدينة المقدسة، أنهم بالطبع، أفضل شعوب الأرض، لذلك ليس من الصعب أن نلحظ عبر ملامح اللياقة الرائعة الآثار الواضحة لأنفة لا يستطيعون إخفاءها.

وكانت عيون أولئك الذين قابلتهم سوداء، ذات نظرات ثاقبة، وبشرتهم سمراء، وشفاههم غليظة وأفواههم عريضة، مما يدل على أن أنسابهم الأصلية قد اختلطت بأنساب الزنجيات والجواري اللواتي يعج بهم الحريم

في هذه المدينة المقدسة. لقد كانت أحاديثهم صاخبة، ومرحة ومليئة بطرف مسلية. إنهم ذوو مزاج عصبي ونزق.

إن الدم الإفريقي الذي يجري في عروقهم، يجعلهم قادرين على مكابدة لواعج الهوى، ونعلم أنهم يقدرون كل التقدير عاطفتي الحب والحماس للدين؛ الافتتان بالنساء وعبادة الله سبحانه وتعالى.

ومع أنه يبدو أن المشاعر المعادية للمسيحيين لدى بعض سكان مكة وجدة الأصليين قد بدأت بالانحسار، إلا أن مشاعر التعصب لم تشهد لدى عامة الشعب في هاتين المدينتين أي تغيير ولم يجد الشيبي أفندي حامل مفاتيح الكعبة المشرفة أي حرج في إرسال بعض الهدايا الثمينة إلى بعض الأوربيين من أفراد الحملة، وتلقى منهم في مقابل ذلك بنادق من ذوات الزناد، ومناظير مقربة ما زال العرب بعيدين كل البعد عن معرفة طريقة تصنيعها.

من المعروف أن الشرقيين يؤمنون بالقضاء والقدر إيماناً مطلقاً، ويقولون عندما يصابون بمرض "لماذا نتناول الأدوية؟" إن الله هو قضى بذلك، وهو سيشفينا إن وجد في ذلك خيراً لنا، وإلاّ هل يمكن لقدرات الإنسان أن تقف في وجه مشيئته؟ ومع ذلك فإن رجالات المدينة المقدسة يطلبون على الدوام مراجعة أطباء الحملة العسكرية، وكانوا يقومون أحياناً أيضاً بإرسال أبنائهم، فواحد كان يشكو من وعكة في صدره، وكان هناك واحد آخر مصاب بحصوة، فقام الأطباء على الفور بإجراء عملية جراحية له قاموا فيها باستخدام المشرط.

ولم يكن قد مضى وقت طويل للغاية منذ أن قام أحمد باشا القائد الأول للحملة في الجزيرة العربية، والذي كان لديه القليل من الثقة بإلمامنا نحن

الأوربيين بالعمل الطبي، وأثناء وجوده بمكة، لم يكن لديه أدنى تردد في المجازفة بحياته عن طريق تسليم نفسه لأحد العابثين من الأعراب "الكوكس QUACKS " إضافة إلى بعض الممرضات الإناث الطيبات، اللائي لم يكنّ على علم بأبسط قواعد علومنا الطبية ومبادئها.

ومع ذلك، وبعد أن اكتشف أن محاولاتهم لم ينتج عنها أي مردود أو علاج إيجابي ذو نفع بالنسبة له، قرر بعدها أن يسافر إلى جدة. وقد كان الفريق الطبي العامل مع الجيش مسروراً للغاية بمعالجته حتى شفاءه الكامل ومنذ ذلك الحين بدأ يفكر في تقويم عادل للطب وبطريقة أقل ازدراءاً مما سبق.

وفي تلك الفترة كان قد قبل تلبية الدعوة للغداء مع الأوربيين العاملين بالجيش، الذي كان يمثل السيد شديفو، كبير الأطباء والذي كان فيما سبق تلميذاً من تلامذة البارون لاري و م. ماري ويدعى بكر أغا، والذي كان سابقاً أحد جنود الإمبراطورية (النابليونية)، وهو الآن برتبة "ميجور" وهو ملحق بهيئة القيادة ويمثل دور المعلم الخاص لرئيس هيئة القيادة، مع ذلك.

قبل المضي قدما، يكون من الأفضل أن نسرد لقرائنا سيرة عن حياة قائد الحملة هذا.

أحمد باشا هو ابن أخت محمد باشا لأمه. وقد كان والده، الذي أطلق عليه لاحقاً اسم مصطفى بيه، يعمل في بيع الجبن والفلافل في متجر صغير بالقاهرة إلى أن أتى نائب الملك نفسه[1] لإخلاء ذلك المكان الذي كان والده يقوم فيه ببيع التبغ، حتى يدخل في خدمة جيش السلطان.

---

(١) يقصد محمد علي باشا، وكانت المصادر الغربية تطلق عليه نائب الملك أي نائب السلطان العثماني على الديار المصرية. (المترجم).

وقد تصادف أن قام بعض الكتاب المأجورين، الذين كانوا يبحثون عن طريقة لرفع مقامه، والذين كانوا في حيرة من أمرهم نحو إنكار أن محمد علي لم يكن سوى شخص آخر بخلاف ابن سمسار بيع التبغ، فقاموا بتلفيق قصة زائفة مفادها أن والده قد كان في واقع الأمر أحد أثرياء تجار الجملة بالخلافة الإسلامية، والذي كان يتاجر على أساس البيع بالجملة.

وبغرض تقويم السجل وإعطائه ما يستحقه لم يقم أحمد باشا بمتابعة هذه الرواية الخاصة بمداهنة خاله وإرضاء غروره، وإنما اعترف، بدلاً عن ذلك، لكل أولئك الذين رغبوا في الإنصات إليه، بأن والده كان مجرد بقال عادي يتاجر في بازار بعاصمة مصر وكبرى مدنها[١].

وكان أحمد باشا آنذاك يبلغ من العمر (٣٤) عاما. وقد كان وضعه متواضعاً ودون الوسط، وقد كان يؤيد الرأي الصادر عن فئة قليلة من الأتراك الذين كانوا يقومون بإطلاق لحاهم، كما كان ظاهراً على ملامح الرجال من جند الجيش النظامي. وعندما فكر محمد علي في القيام بتطبيق الضبط والربط على جنوده استناداً على النموذج أو الطريقة الأوروبية، أصدر أوامره إلى جنوده للقيام بحلق لحاهم والسماح لشواربهم بالنمو والاسترسال، ولقد تقرر بأن أولئك الجنود الذين لن ينصاعوا لهذا الأمر لن يتم التوصية أبداً بترقيتهم إلى رتبة أعلى.

(١) معلوم أن محمد علي نفسه كان ابن تاجر تبغ، في موطنه الأصلي ألبانيا، قبل قدومه إلى مصر مشاركاً في الجيش العثماني بدرجة عسكرية متدنية لتحريره من الفرنسيين. مع عدد من رفاقه أنأووط ألبانيا، إلا أنه ميز نفسه بدهائه وحكمته ومكره مستغلاً الظروف التي كانت تشهدها مصر والدولة العثمانية لمصلحته فأصبح واحداً من أبرز قادة القرن التاسع عشر. (المترجم).

مع ذلك، وبدلاً من أن يحثهم على ذلك بضرب مثل جيد بنفسه، لاحظ محمد علي أن إبراهيم باشا نفسه قد احتفظ بلحيته مطلقة للأسباب التي ذكرها، وهي أنها قد تم مسحها وتمريغها في المدينة وفوق قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأنه قد أخذ قَسَماً على نفسه منذ ذلك الحين بأن يدعها تنمو حتى آخر يوم في حياته.

ولقد قابلني في الجزيرة العربية أحد الضباط والذي كان يفضل أن يظل متوقفاً في رتبة ملازم ثان، التي كان فيها، أفضل من موافقته على حرمانه من لحيته. وعندما قام باشا مصر بإصدار أمره قام كل ضباطه بالهمس فيما بينهم عما إذا كان رئيسهم يود إهانتهم والإساءة إليهم أو تجريدهم من شرفهم، وقد بدا واضحاً أن الأمر يتطلب شيئاً بسيطاً إضافة إلى ذلك لإثارة العصيان(١).

مع ذلك، فقد تم اتباع هذه العادة، منذ ذلك الوقت، بطريقة جادة، وكان المجندون الجدد يسلمون أنفسهم للحلاق ليقوم بالعناية بهم بالموسى، ودون أي تلكؤ أو إبطاء.

لقد كانت لحية أحمد باشا سوداء طويلة للغاية ومرتبة إلى حد ما في شكل خصلات. أما عيناه فقد كانتا من اللون العادي المألوف، وتنمان عن روح طيبة، وهي بالتأكيد روح تحمل في طياتها القدرة على تحمل المحن والشدائد لكنها لا تفهم معنى لكلمة "الاستقالة".

أما حالته الصحية فقد كانت معتلة، وقد كان يعانى انحناءاً في الظهر،

(١) تشابه هذه القصة رواية "حبال حسار" التي تم قطعها بواسطة نابليون وكذلك أغلبية الإصلاحات التي أدخلت على روسيا بواسطة "بطرس الأكبر". (المؤلف).

وكان رأسه غالباً ما يكون مطأطأ إلى الأسفل متدلياً ليصل قريباً من صدره.

وقد كانت حلاقته شعر الرأس العادية على الطريقة التونسية وهي التي تشكل طريقته المتبعة في الحلاقة، أما بالنسبة للعمائم الطويلة التي كان الأتراك معجبين بها بطريقة غير عادية في تلك الأيام فقد اختفت.

وعندما حظر محمد علي قيام قواته المسلحة بارتداء الشالات الكثيفة على رؤوسهم واجهته تلك المعارضة نفسها الشبيهة بتلك التي حدثت عندما قام بإجبارهم على التخلص من لحاهم. وبالنسبة للباشاوات والقادة، واعتقاداً منهم بأنهم خارج نطاق ذلك القانون، فقد أحسوا أنهم مستثنون من واجب الانصياع له.

ونتيجة لما أحس به إبراهيم باشا من غيظ شديد تجاه هذا التصرف، فقد قام باستدعائهم جميعاً إلى منزله في وقت محدد. بعد ذلك قام بترتيب وضع بعض الحراس "الكواس" في الغرفة التي تتلو غرفته الخاصة مباشرة، وقد خولهم بعد ذلك صلاحية اعتقال الضباط المخالفين لهذا الأمر ونزع عمائمهم الطويلة من على رؤوسهم.

وفي صباح اليوم التالي، حسبما جرت عليه العادة بالنسبة لهذا التجمع، حضر كل الضباط من ذوي الرتب العليا، دون أن يدور بخلدهم أي شك، أياً كان نوعه، وهم يركبون على خيولهم المطهمة الرائعة، حيث ترجلوا عنها وأودعوها لسائسيها(١).

وبمجرد مرورهم عبر أولى الردهات الكبيرة، والتي عادة ما كانت تكون

(١) "السياس" هم الأشخاص المخصصون للاعتناء بالخيل (المؤلف).

مضاءة بصورة جيدة، كانت دهشتهم شديدة للغاية عندما وجدوها يخيم عليها الظلام الكامل وقد كان "الكواس" معتادين على هذه الحالة من العتمة أثناء خدمتهم هناك، فقاموا بوضع ما تلقوه سابقاً من أوامر موضع التنفيذ بسرعة بالغة، ثم تسللوا وتواروا خلسة عائدين بغنيمتهم.

بعد ذلك قام بعض العبيد بالدخول مباشرة، في عجلة شديدة، حيث سمحوا لضوء النهار بالدخول إلى تلك الغرفة. وقد أدرك الزعماء والقادة، الذين راودهم الخوف على حياتهم في بادئ الأمر، الآن بأن الهدف الرئيس من وراء ذلك كله هو تجريدهم من تلك العمائم، فقاموا لحظتها بإخضاع أنفسهم والانصياع لكل ذلك دون أدنى احتجاج أو تذمر. وبعد ذلك بقليل ظهروا أمام إبراهيم باشا وهم برؤوس عارية، وعليه تمت المقابلة بينهم بصورة ودية متبادلة وكأن شيئاً غير عادي لم يحدث. وقد يكون الأتراك فقط هم بالتأكيد القادرون على تلبية رغبات رؤسائهم.

لقد كانت شخصية أحمد باشا تؤكد على أنه من ذلك النوع من الرجال الذين ولدوا للانغماس في ملذات الحياة المنزلية أكثر من أن يغوص بنفسه في شؤون الدولة أو التنفيذ الفعلي لممارسة السلطة القيادية على الجيش.

وكان عندما يتأمل بنفسه في ملامح شخصيته وتركيبتها الداخلية يقوم بالشكوى إلى زملائه ورفاقه الذين يتمتعون بثقته فيما يتعلق بالواجبات والمهام والصلاحيات المرهقة التي يلزمه وضعه، وهو في قمة السلطة، الوفاء بها، وقد كان يراوده الاشتياق إلى الانفراد والراحة بصحبة الحريم.

وفوق هذا وذاك لم تكن تنقصه البراعة أو الذكاء، بقدر ما كان ينقصه التصميم والعنف والقوة في تنفيذ رغباته.

وقد كان من الواضح حبه للنساء وتعلقه بهن. وقد كان من أفضل الأشياء المحببة لديه، عندما كان يقيم بالقاهرة، أن يكون بعيداً وبصحبتهن، وهو بعيد كل البعد عن شؤون الحياة الأخرى. وقد كان هناك قليل من الأتراك الذين يملكون قصراً أو منزلاً جذاباً مثل قصره. وقد أنفق على ذلك أموالاً طائلة، كما أنه قد قام بتزيينه بكل الأثاثات الضخمة والجميلة التي لم يكن الذوق الشرقي يحلم قط بتحقيقها.

وعندما كان يتلقى تدريباً في المعسكر "بقنا"[1]، والتي أجبره فيها خاله على العيش بالموقع، كان يتظاهر بأنه قد خلد إلى النوم بخيمته في الوقت الذي يقوم فيه بالهرب خلسة، حيث يتبعه بعض مماليكه المقربين، فيدخل إلى القاهرة سراً. وهناك يقوم بتمضية الليل مع حريمه، وقبل أن تدق الطبول، يكون قد عاد طوعاً إلى معسكر التدريب. وقد أمضى هذا القائد أحلى أيام حياته في منطقة الحجاز، فقد أرسله محمد علي إلى مكة، حسبما درجت عليه بديهته الحاضرة، هو صغير للغاية في سنه، وذلك حتى يقوم العرب، باعتبارهم له بمثابة الرفيق وابن البلد، في عدم وجود صعوبة أو مشقة في إخضاع أنفسهم لسلطته.

وقد كانت هناك شائعة مفادها أنه قد كان يعيش حياة فاسقة وخليعة للغاية أثناء وجوده بتلك المدينة المقدسة، فقد كان يرسل دعوات لأصدقائه الذين كانوا يحضرون سوياً إلى تلك المآدب السخية والمترفة والتي لم يكن سيل الخمور والمشروبات الكحولية ينقطع فيها أبداً، وبمجرد انتهاء المأدبة كانوا يجدون طريقهم إلى حريم جيرانهم المتغيبين عن البلد. واليوم تغيرت شخصيته بشكل تام.

(١) "قنا" اسم قرية ليست ببعيدة عن القاهرة، كان محمد علي قد أقام بها معسكراً كبيراً لتدريب جيشه الناشئ آنذاك (المؤلف).

وقد أسهمت كل من سنه واعتلال صحته، إضافة إلى الإرهاق والشطط الذي أصابه من جراء العمليات الحربية، والمردود العكسي تماماً لحملاته العسكرية، ومأساته الكامنة في بعده عن القاهرة، كل هذه العوامل قد لعبت دورها في تغييره وتحوله بشكل تام، فقد صار ورعاً، وكان يحلم فقط باللحظة الحاسمة التي يكون فيها قادراً على تخليص نفسه من المسرح السياسي المصري.

كانت الشمس على وشك المغيب، وكانت تلك هي الساعة التي ينشط فيها العرب ويكونون في حركة دؤوبة، بمعنى بذلهم كل الجهد لأعمالهم ومؤسساتهم التجارية. حضر الباشا بنفسه في قاعتنا الرئيسة، وكان زيه الذي يرتديه عادياً للغاية، فكان يرتدي بدلته النظامية[1] الخضراء والخالية من أي حلية، وكان حزام خاصرته من الحرير، وكأنه قد تم تصنيعه في إحدى الورش بسوريا. وكان بصحبته "الشيبي أفندي" كما تبعه شريف مكة. وكان كلاهما يرتدي الزي العربي.

وقد أحضر أحمد باشا معه قرابة ثلاثين ضابطاً ومملوكاً أو "كواس" الذين كانوا لصيقين به.

وكان بعضهم يحمل " نارجيلته"، وعلبة كبيرة تحتوي على كل الأواني الضرورية أو اللازمة لإعداد القهوة، وقدحاً من الفضة، بينما كان الآخرون يحملون مناديل المائدة الموشحة أطرافها بالحرير بصورة مستديرة مع بعض الفراغات التي تم تطريزها بأطواق ذهبية، إضافة إلى كأس فضية وجرة عميقة من الماء، حيث كانوا يقفون بها وقفة جميلة على الطريقة الشرقية

(١) كلمة نظامي تطلق على "الجيش المنتظم" أو النظامي (المؤلف).

بغرض غسل أيديهم وأفواههم بعد تناول الطعام.

وكان بين الضباط "أمين بيه" الذي كان مشهوراً للغاية، وهو زميل أحمد والذي كان قد تلقى دراسته في أوربا، وكان معجباً بنفسه، وتبدو عليه نظرة لطف وظرف حقيقية تضفي على وجهه مظهراً متميزاً عن غيره. وهو ورع تماماً مثل رئيسه، وربما كان أقل صبراً. وسوف يكون هو دون غيره الذي سوف يستقبلنا بكل الحرارة والترحاب في مكة عندما أقوم بالدخول إلى تلك المدينة بطريقة رسمية بصحبة "م. كومبس" بغرض مواصلة رحلتنا إلى الحبشة.

أما بالنسبة للضابط الذي كان برتبة "كولونيل" فهو مصطفى بيه الذي كان مسؤولاً عن قيادة الفيلق الثالث. وهو في واقع الأمر رجل جاهل ومغرور ومتغطرس. وهو يحمل شكاً عميقاً في كل جانب من جوانب الحياة لا يكون مبنياً على الإيمان بالعقيدة الإسلامية، ويقوم بزيادة إعجابه بالتراخي إلى أقصى حد.

أما بالنسبة للشيبي أفندي، فمع أنه لم يكن في الواقع من الأشراف، فإن أصوله تعود إلى ذرية ذات نسب أقدم وأعرق من أحفاد الرسول (صلى الله عليه وسلم)[١]. وهو حارس مفاتيح الكعبة المشرفة، وقد توارث هذه المسؤولية أباً عن جد في كل أسرته، الشيء الذي يجعله أهلاً لأن يحظى باحترام كل مؤمن صادق وتقديره.

(١) الثابت تاريخياً أن مفاتيح الكعبة كانت - ومنذ العهد الجاهلي - مع بني شيبة وبعد فتح مكة أراد بنو هاشم أخذ تلك المفاتيح، ولكن الرسول عليه السلام أعادها إليهم امتثالاً لقول الله عز وجل في سورة النساء: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها). فالرسول عليه السلام لم يعط المفاتيح لبني شيبة، وإنما أعادها إليهم (المترجم).

والشيبي رجل متوسط القامة، وممتلئ الجسم جداً، يتمتع بسحنة يغلب عليها اللون المائل إلى السمرة الشديدة، وتغطي ذقنه وخديه نتف من الشعر الخفيف، وعيناه سوداوان ومعبرتان تؤكدان لك أنه رجل ذو سلطات، ويبدو إلى حد ما على درجة قليلة من السخرية والدهاء. ويغطي رأسه بطاقية مصنوعة من قطع من المواد التي جلبت من الخارج، حسبما أوضحناه سابقاً، ويبدو متشحاً بشال كشميري أبيض وكثيف.

أما بالنسبة لعباءته فهي مصنوعة من مادة حريرية مطرزة بأشرطة سوداء وصفراء، وقفطانه مصنوع من قماش لامع يميل إلى اللون الأحمر ، أما ساقاه فهما عاريتان، ويشكل صندله العربي الشيء الوحيد الذي ينتعله في رجليه.

أما بالنسبة لأسرته التي تذكرني بأجداده القدماء، من الشيوخ الأجلاء، فهي تتكون من ثمانية أبناء وسبع بنات، ولسوء الحظ فإن أكبر أبنائه، والذي كان من المفروض أن يتولى مهامه بحكم الوراثة، مصاب بالكساح ومحدودب الظهر.

ويقوم الشيبي باستلام كل الصدقات من جميع المسلمين الذين يقومون بزيارة الكعبة المشرفة. وفي أوقات الحج تتزايد أعدادهم لتصل إلى أكثر من (١٠٠,٠٠٠) شخص يفضلون كلهم في الواقع القيام ببيع أغلى ممتلكاتهم وأثمنها، مثل غليوناتهم، حتى يقدموا صدقاتهم للبيت العتيق.

ويقوم عِلْيَةُ القوم، اعتماداً على كرمهم وسخائهم بتقديم أفضل ما لديهم إلى (القديس بطرس) ؟ مكة.

ويقوم الشيبي أفندي كل عام بتجميع الأغطية الحريرية السوداء، التي

تشكل إجمالاً الغطاء الخارجي للكعبة، حتى يمكن استبداله بتلك التي يقوم المَحْمَل بجلبها معه من القاهرة.

أما ثروته الشخصية فقد كانت كبيرة. وخوفاً منه من أن يقع فريسة أو ضحية لجشع الأتراك، فقد كان دائماً يبذل أقصى اهتمامه لكبح الأسباب التي يمكن أن تقودهم إلى ذلك وبكل حماسة من جانبه.

وهو يعتمد هذه الأيام كلية على أحمد باشا الذي يكِنُّ له إعجاباً خاصاً وعميقاً، وذلك بفضل ما يتمتع به من خصال كريمة، وكذلك بسبب المهمة السامية التي يتحملها على عاتقه.

ومنذ زمن ليس ببعيد قام هذا القائد بتقديم هدية له هي مركبة جذابة للغاية، تم إحضارها من باريس عن طريق القاهرة خصيصاً لاستعمال الشيبي الشخصي.

وعليه فإنك تجد هنا وسائل المواصلات ذات الاستعمال الأكثر شيوعاً في أوربا، وقد تم جلبها وكأنها شيء جديد بالنسبة لحياتهم الدينية في الشرق. وبالتأكيد فإن العرب يفضلون القيمة التي تحظى بها هذه المركبات المريحة، إذ أنها توفر الراحة واليسر من خلال ما توفره من ظل في مواجهة حرارة الشمس الحارقة، ومقاومتها للأعاصير والأتربة، والتي يمكن للشخص وهو بداخلها أن ينام أو يدخن أو يتجاذب أطراف الحديث مع النسوة أو مع أصدقائه، وخلال هذه الأثناء تقوم القوة الساحبة من تلك الجياد المطهمة النجدية السريعة بنقلك بسرعة الريح.

ومن جدة إلى مكة كان الطريق السريع، القائم الآن، ثابتاً بما يكفي لقطعه بهذه الطريقة السريعة. وفي حالة ما يرغب سكان مكة الأثرياء،

لاحقاً، في نقلهم إلى أي مكان آخر بهذه الطريقة، فسوف يكونون بالتأكيد بحاجة إلى تسوية الممرات والطرق الموجودة بمنطقتهم وتمهيدها، وسوف يستفيد الناس جميعاً من ذلك بطبيعة الحال، إذ أنه نادراً ما تكون الأشياء التي تم عملها لإفادة مجرد عدد قليل من الناس، قد تحولت لكي تصبح أكثر فائدة ونفعاً لكل شخص بمفرده. فكم هو عدد إداراتنا (مقاطعاتنا) التي كانت هناك في فرنسا، والتي كانت تحظى بكل المستويات الممتازة، التي لم يكونوا ليصلوا إليها أبداً لولا أن العربات والمركبات الخاصة بعِلْيَة القوم كانت في حاجة لقيادتها على طريق مريح وممهد قدما، حتى تصل إلى القصور الفرنسية الريفية ؟.

وعند وصول الباشا وبينما كان مستعداً للجلوس على المائدة، قام أحد مماليكه بالانحناء حتى لامست ركبتاه الأرض، وكان يحمل في إحدى يديه صحن غسيل معدنياً كما كان يقوم بصب الماء بيده الأخرى على يدي سيده. وفي هذه الأثناء قام مملوك ثان، كان يتابع العملية نفسها، بتقديم منشفة لسيده حتى يستخدمها في تجفيف نفسه.

لم يقم الشيبي أفندي باتباع أي طقوس بهذه المناسبة، وإنما قام بالجلوس على المائدة بطريقة معتدلة. وقد تم تقديم الطعام على الطريقة الفرنسية، مع اختلاف واحد فقط، ألا وهو أن أحداً لم ير أثراً قط للخمور.

دعنا الآن نحاول تصوير عوائق وعصبية العرب والأتراك، الذين كانوا يجلسون على كراسيهم الهندية الطويلة، وأرجلهم متدلية صوب الأرض، وهم في حضرة تلك الأواني والمعدات التي تضم الملاعق الجميلة والشوك والسكاكين والكؤوس وكل ما تضمه هذه المائدة المنمقة.

وهناك كانت لنا عادات لتذكر تلك الرواية المطابقة لخرافة "الذئب وطائر اللقلق"، وبالتأكيد أنه لولا قيام "لافونتين" الطيب بالطرق على ما تستحقه عادة خلق الأجزاء من إطراء فقط بالنسبة لمثل هذه الحيوانات، فلكان قطعاً قد أطلق على قصته هذه عنوان "الأتراك والأوربيون"، لأنه قد كان واضحاً بأن الأوربيين الذين اتخذوا مجلسهم منذ الوهلة الأولى في مواجهة "الصينية"(١) قد وجدوا أنفسهم وهم في راحة تامة مثلهم مثل ضيوفنا الذين غمرهم الفرح في هذا اليوم.

وفي هذه الأثناء كان الشيبي أفندي غير قادر على أخذ كميات بسيطة، بينما كنا نحن الأوربيين، بدلاً من القيام بالتهام كل شيء دفعة واحدة، نسلي أنفسنا ونتلذذ بقطع بعض الشرائح ووضعها في أطباقه، حتى يقوم بالتقاطها بالشوكة، وهي عملية ليست من السهل النجاح فيها من أول وهلة.

وقد كان المكّاوي(٢) السيئ الحظ يمتلك نوعاً لا يمكن تخيله من الجهل وعدم البراعة، لكنه مع ذلك كان يحتفظ في كل الأوقات بحس شديد من المرح والدعابة، وكان هو أول من يضحك على نفسه، وعدم كفاءته في هذا الشأن.

وبمشاهدته لأحد الفرنسيين يقوم بخدمة نفسه في تقطيع بعض الفلافل بالسكين، قام بغمس أصابعه داخل آنية للملح وقام بوضع بعض الملح على شفرة خنجره، ثم قام بنثره على طبقه بتلك الطريقة.

وعندما حان وقت إعلان الباشا عن حاجته لبعض الشراب قام مملوكه بتقديم كأس معدنية له، فرفضها وقام بنفسه بالتقاط إحدى الكؤوس

---

(١) هي إناء ضخم من المعدن يقوم الشرقيون بتناول طعامهم فيه (المؤلف).

(٢) هؤلاء هم سكان مكة أنفسهم (المؤلف).

الزجاجية التي كانت موضوعة على المائدة، وبعدها قام كل الضيوف بتقليد هذا النموذج.

أما بالنسبة للحديث، فمع أنه لم يكن له موضوع معين في البداية، فإنه أصبح الآن أكثر تفاهة رغم عدم وجود الخمر... فقد كانوا يتحدثون غالباً عن السياسة والدين. وقد كان الشيبي أفندي يمتلك كل القدرات التي يتمتع بها الرجل الصبور، وعندما كان بصحبة مجموعة صغيرة كان في واقع الأمر يضحك أثناء اتخاذه مقدمة لحديثه عن العقيدة الإسلامية.

وقد كان يؤكد لنا من حين لآخر، أنه لو كان يجد طريقة لذلك، لكان قد أخذنا بنفسه إلى مكة، مع أنه يعتقد في قرارة نفسه بأن مشاعر الناس سوف تكون معارضة لذلك وستظل كذلك إلى فترة طويلة قادمة.

عند الفراغ من تناول الطعام، كانت هنالك منضدة قد تم وضعها في إحدى الغرف الكبيرة الملاصقة لغرفتنا. وقام رجال الباشا والعرب الآن، يصحبهم الشيبي أفندي، بالانتقال ليتخذوا لأنفسهم مجلساً هناك بطريقة متقاربة.

وفي الشرق، عندما يتم الترحيب بالقائد، كان من المتعارف عليه أن يتم إكرام الخدم، إضافة إلى ذلك فقد كان من الواجب توفير العلف والإسطبلات للخيول والجمال التي تنقل الرجال وأمتعتهم.

وفي صالة الاستقبال الرئيسة يقوم كل شخص بالتدخين وشرب القهوة. وقد قام أحد الكيميائيين الإيطاليين، الذي كان مشهوراً بحذقه وبراعته، بممارسة بعض الخدع اليدوية والحيل التي تشيع منها الحيوية والنشاط. وقد أدت ممارسته لتلك الحيل والخدع إلى دهشة الجميع وإشاعة جو من التسلية والمرح في الوقت نفسه.

وقد كان الباشا هو الشخص الوحيد، الذي كان من حين لآخر، يقوم بالتشكيك في طبيعة هذه الحيل.

أما بالنسبة للشيبي أفندي فلم يتأثر كثيراً بكل ذلك، كما أنه لم يحاول فهمه وإدراكه، فقد كان يصعد على كرسي عال بينما كان يهمهم ببعض الاستفسارات الحادة التي تنم عن الدهشة والإعجاب، مع الرغبة في مشاهدة المزيد، إلى حد ما، مما كان يحدث بالفعل على المنضدة التي كان يستخدمها ذلك الساحر أو المشعوذ، مع ذلك يمكن أن يقال عنه: إنه كان قد غلبت عليه براعة ذلك الإيطالي الساخر.

الآن وصلت الألعاب إلى نهايتها، وقام الشيبي، وكأنه يحاول الاسترخاء وإراحة نفسه بعد الطاقة والمجهود اللذين بذلهما، بالتمدد بكامل طوله على الأريكة. وبعد ذلك بقليل تم سماع بعض الموسيقى الحالمة الصادرة عن رجل من سفوح الجبال، كان يقوم بلعب بعض المقطوعات الصغيرة على آلة بيانو جلبت إلى هنا من الهند والتي قام الشيبي بشرائها بمبلغ (١٥) "تالاري" من كل من م.م.ماري وشديفو. وتأثراً بصوت الموسيقى المنبعثة من هذه الآلة قام بعض الفرنسيين بالبدء في الرقص ثم قلدهم في ذلك الأتراك والعرب.

ونتيجة لذلك استمتع كل شخص عموماً بالخطوات والإيقاعات الأوربية النشيطة ومن بعدها بالحركات البطيئة والمبهجة للرقصات الشرقية.

أما بالنسبة للأوركسترا فقد زيدت الآن بإضافة "الماندلين" الإيطالي.

وقد أحدث هذا الجو العام أثره في أن أعاد إلى الأذهان، وبالنسبة لأولئك الذين هم الآن فيما وراء البحار في الشرق، تلك الذكريات البعيدة المرتبطة بموطنهم الأصلي وأرض آبائهم إضافة إلى العواطف والأحاسيس المرتبطة بجذورهم وعاداتهم.

أما بالنسبة للعرب والأتراك فلم تكن لديهم تلك الأذن الموسيقية فيما يتعلق بهذا النوع من الإيقاع، بل إنه ليس لديهم أدنى استيعاب لها.

وفي اليوم التالي لم يكن لسكان جدة، غنيهم وفقيرهم، طويلهم وقصيرهم، الرجال منهم والنساء، من حديث سوى عن هذه الوليمة المحتفى بها. وعندما كان العرب يلتقون في الطرقات كان أحدهم يقول للآخر:

"هل سمعت بالأخبار ؟"

"لا، ماذا حدث ؟"

"ولا حتى بالأخبار الحيوية الجديدة ؟"

"لا"

"جيد إذن فاستمع إليَّ: لقد قام اثنان من المسلمين الذين يتمتعون بالثراء والسلطة، والذين عرفوا بانتمائهم الوثيق وإخلاصهم لعقيدتنا الإسلامية بتناول الطعام مع الأوربيين، وبالتالي فقد خالفوا القاعدة وتناولوا الملح "والملاح" مع الكافرين".

"ومن يكونون هؤلاء الرجال ؟"

"أحمد باشا والشيبي أفندي"

"الله، الله، واأسفاه، هذه محنة ! إن وقت الابتلاء العميق المنصوص عليه في القرآن الكريم قد أصبح ماثلاً للعيان وحتى هنا. ما هي الفائدة التي يمكن أن نجني من هذه الكارثة التي تسبب فيها هؤلاء النصارى عليهم لعنة الله، الذين وصلوا إلينا كحشود الجراد بهدف الإلقاء بأنفسهم على أراضينا المقدسة بغية تدنيسها؟".



الفصل الخامس

لم يتمكن ثلاثة من الأفواج الملحقة بحملتنا من الالتقاء سوياً ببعضهم في المكان نفسه على الإطلاق، وذلك بسبب قلة مياه الشرب العذبة. وقد كان الفوج الثالث قابعاً تحت الخيام تحت أسوار مدينة جدة، أما السابع فقد تم إيواؤه بمكة، والسادس عشر قد ضرب خيامه في "بحرة"، وهو أحد الأودية العريضة التي تقع على الطريق الممتدة من الميناء حتى المدينة المقدسة.

وقد عزم الطبيب المسؤول على تدبير أمره نحو باتخاذ احتياطات محددة لبعض الوقت، حتى يتمكن بذلك من تنظيم الخدمات الصحية بشكل عام.

وقد رتبت أمري لكي أكون في صحبته. وفي خلال فترة معقولة من الوقت قمنا بتوديع أصدقائنا بمدينة جدة. أما مساكننا بعد اليوم فلن تتكون من الجدران الحجرية والمشربيات[1] والأسقف المسطحة، ولكنها ستصبح مكونة من جلود الإبل.

ولقد طرحنا جانباً أسلوب حياة رجل المدينة، ودخلنا ذلك الأسلوب الخاص بأعراب البادية ومنذ ذلك الوقت سوف يكون منزلنا هو الخيمة.

أما مواقدنا فسوف تكون من بعض الحجارة التي صار لونها مسوداً نتيجة لاستعمالها بواسطة المسافرين الذين توقفوا هناك قبلنا، كما ستكون الملحفة التي يتم طرحها على الأرض بمنزلة سريرنا. ولن يكون بمقدورنا

---

(١) هو الاسم العربي للستائر (المؤلف).

الاستماع بعد الآن إلى صوت الأمواج أثناء ارتطامها بالصخور. أما أفقنا فسوف يكون مغلقاً من كل الجوانب بوساطة تلك الجبال القاحلة التي يلعب المناخ نفسه دوراً في عزلها وإضعافها.

شاهدنا أمامنا، ونحن نغادر مدينة جدة ، سهلاً يمتد على طول الأفق إلى الشمال والجنوب. أما من ناحية الشرق فقد تم الحد منها بوساطة سلسلة من الجبال تمتد بمحاذاة الساحل الذي تبعد عنه بمسافة فرسخين، أي ما يقرب من (٥) كيلومترات (٢,٥من الأميال)[١].

ومن بعد موسم الأمطار وحتى تلك الفترة التي تشتد فيها الحرارة بصورة قاسية، أي ابتداءاً، من شهر أكتوبر وحتى شهر أبريل، يكتسي هذا السهل بنبتة خضراء يطلق عليها العرب عبارة "حشائش"، وهي تستعمل علفاً لقطعانهم وأسرابهم من الحيوانات. ويقوم بعض البدو بزراعة الخيار والبطيخ الأحمر على تلك المساحة من الأرض التي تغمرها مياه السهول السريعة الجريان والمتدفقة من المرتفعات وترويها.

وبحلول فصل الصيف تختفي تلك النباتات والحشائش، مخلفة لنا، كي نقوم باجتيازها، أرضاً قاحلة ومجدبة، وعليه تكون حيوانات الحقول أو السهول - خلال هذا الفصل - قد حرمت من كل شيء يمكنها أن ترعى فيه، بخلاف تلك النباتات المغطاه بالأتربة التي تمكنها طبيعتها ذات الجذور العميقة من مقاومة هذا الجفاف والحرارة الشديدة.

ويمكن العثور، إلى الشمال وإلى الغرب من جدة على السواء، على اثنتين من القرى التي شيدت منازلها من الطين فقط، وفي كل منها يبلغ عدد سكانها حوالي (١٠٠٠) نسمة.

---

(١) الميل = ١,٦ كيلو (المترجم).

وتنتشر أربع قرى أخرى، أقل أهمية، على السهل وسط خيام البدو المتجولين، والتي يمكن مشاهدتها أيضاً خلال ساعات النهار، وذلك بسبب خيامها ذات اللون الأبيض، كما تُشاهد أثناء الليل من خلال ضوء النيران التي يندر أن يتركوها لتنطفئ أو تخبو.

بعد بعض المخارج الموجودة في وسط الجبال اكتشفنا وجود أحد المقاهي الذي يرتاده عادة حداة الإبل والمسافرون الذين اعتادوا التوقف هناك لفترات بسيطة.

أما بالنسبة لكل من العرب وبالنسبة لنا نحن الأجانب، فقد اتضح أنها كانت أحد أماكن التوقف المتعارف عليها، شأنها شأن تلك الحانات والنوادي الليلية المشيدة على امتداد الطرق الرئيسة.

وهناك التقينا ببعض العلماء من مكة إضافة إلى اثنين من النُساك والعديد من الفلاحين المصريين. وكانت التلال التي تظهر أمامنا تتيح مجالاً يسمح لنا بالمرور عبر طريق متعرج يواصل التفافه إلى الأمام، حتى يصل إلى قواعد تلك المرتفعات. وقد كان يعد سطحاً رقيقاً بصورة معقولة إذا استثنينا الحقيقة الماثلة والخاصة بتقدمنا إلى الأمام، وبصورة شبه دائمة، وسط تلك الجبال.

لقد كان معدل الارتفاع في الأرض القاحلة الرئيسة يكمن في الشظايا الصخرية المكسرة، ومع ذلك كانت بعض النباتات الطفيلية تنمو على منحدراتها، وقد كنا نشاهد من حين لآخر بعض قطعان الماعز تتجمع هناك وهي ترعى تلك الحشائش بنهم شديد. أما بالنسبة للوديان التي احتفظت بكميات قليلة من التربة فقد كان مظهرها أقل رعباً، وكانت تقوم بإنتاج

الكثير من النباتات، وبالنسبة للبدو - والفضل يعود في ذلك إلى ما يبذلونه من مجهود ضخم - فقد كانوا يحاولون إيجاد وسيلة للقيام بزراعة بعض الحدائق المختلفة ذات المساحات الصغيرة نسبياً.

وأثناء مرورنا عبر الطريق لاحظت بعض نباتات "الآسكلبيوس"asclepias ذات الأوراق المتساقطة، وأشجار الرمان وبعض الحمضيات البرية.

كانت تلك الجبال التي أمضينا يوماً عبرها لا تسير مع بعضها البعض في معدل ارتفاع واحد باستمرار، وإنما كانت تتشكل من عدد لا حصر له من الروابي المستديرة التي ترتفع غالباً إلى أعلى، وتبدو وكأنها محفوفة بالصخور الجلمودية الصغيرة أو بألوان إردوازية كثيفة، أحياناً حمراء وأحياناً سوداء.

وفي هذه الأحيان، وعندما كانت بعض القوافل التي تسبقنا كثيراً في تقدمها أمامنا قد توارت خلف هذه الروابي المستديرة، كنا نجد أنفسنا وحدنا وسط سماء تحيط بنا من كل جانب مع صخور جلمودية تلفحها حرارة الشمس.

لقد كان الإحساس بالوحدة مخيفاً، وكان البدو يرددون إحدى أغانيهم المحلية الخاصة بهم من أجل كسر هذا الحاجز من الصمت والجمود والملل الذي كان قاسياً على أرواحنا، ويدخل فينا نحن الرجال انعكاسات مريرة من الحرمان والدمار القاتل. وفي هذه المناسبات - كما هو الحال في كثير غيرها - كان الأعراب يدبرون أمرهم اعتماداً على القدرات والمواهب الأساسية لهم، ومع ذلك فقد كانوا يصلون إلى الخلاصات النهائية نفسها التي نصل إليها نحن الذين تعودنا على التصرف على أساس التأملات العقلانية.

وكان الاعتماد على القدرات والمواهب بالنسبة لهم، وعلى الأسباب والمنطق بالنسبة لنا، يجبرنا كلياً ويقودنا جميعاً إلى الوصول إلى الأهداف والغايات نفسها.

ومع ذلك فقد دأب العرب على التوصل إلى تلك النتائج بصورة أسرع، بينما كنا نحن الآخرين نتوصل إليها بصورة أكثر سلامة وأشد حذراً.

لا توجد هنا ينابيع لمياه الشرب العذبة، وأيضاً لا توجد هنالك أية أخاديد أو مياه جارية، ولا توجد أي أشجار تم غرسها بوساطة الإنسان، ولا شيء البتة من تلك الحركات الدؤوبة والنشيطة للمصانع والمطاحن التي تتضافر من أجل جلب وسائل الحياة العصرية الحديثة إلى السهول والأودية الموجودة بأرض آبائنا الجميلة.

وكانت ندرة التربة السطحية إضافة إلى حرارة الشمس الحارقة في هذه الأماكن، لا تتيح فرصة للناس لامتهان أي من حرفتي الزراعة أو الصناعة.

مع ذلك فقد كانت شخصية الأعرابي بنظرته الشمولية الواسعة، والتي تشكلت من خلال تعامله الذي لا ينقطع مع الصحراء، ولياليها الهادئة والمتلألئة بالنجوم، وساعات نهاره المشعة ضوءاً والمتقدة حرارة، التي تستقبل بواعث إغرائية شديدة لأحاسيسه وخياله. ويبدو أن هناك روحاً شاعرية أكبر في وجدان راعي القطيع أو حادي الإبل هذا، والذي لا يمتلك في هذه الحياة شيئاً سوى سلاحه وقطعانه، تتجاوز ما هو متوافر لدى أصحاب المصارف وأرباب الصناعة المعروفين، الذين تدور نيابة عنهم وباسمهم عجلة الحياة التجارية الحديثة.

وفي ذلك الوقت كنا قد قطعنا منتصف الطريق في رحلتنا، وكان الضوء

المتقطع الذي نشاهده على البعد، بعد أن أسدل الليل أستاره، والذي كنا نفترض أنه ربما يكون ضوءاً منبعثا عن طلوع بعض النجوم على امتداد الأفق، كان يمثل في واقع الأمر موقعاً لأحد المقاهي الجديدة التي كانت نيرانها تلقي بظلالها على كل أولئك الذين كانوا يجلسون على الأرض متحلقين حولها.

والآن بدأنا مواصلة مسيرنا، حيث مررنا بعد مسافة لا بأس بها من هذا "القهوجي"[1] قاصدين من ذلك عدم السماح لأنفسنا كي لا يغريها هدوء المكان الذي كان يخيم على ملامح صاحب أو مدير المقهى وزبائنه آنذاك.

وبعد اتباع بعض التغيير في مسارنا شاهدنا على ضوء القمر وادي "بحرة" المتسع والذي كانت تعسكر به، تحديداً في ذلك الوقت، إحدى وحدات جيش محمد علي وهي بكامل خيامها ومدفعيتها ونظام موسيقاها الأوربي الكامل.

وفي اليوم التالي كنا قد حططنا رحالنا بمقر رئاستنا الجديد. وكان هذا المعسكر الجديد بالنسبة لنا يتكون من ثلاث خيام مصنوعة من الأقمشة القطنية، وهي تمثل ثلاثة أقسام كبيرة يطلق عليها العرب كلمة تزلك "Tousluc"، محاطة من أعلاها بشكل دائري أو "قبة" يتم شدها إلى الوسط أو المركز بوساطة عمود خشبي يبلغ ارتفاعه حوالي الاثني عشر قدماً. وعندما يحين الوقت لمواصلة رحلتنا يتم طي ذلك ولفه في شكل طردين من الأمتعة، وبذلك يمكن تحميلها على ظهور الإبل دون مشقة كبيرة. وعند نصبها يتم تثبيت (١٤) حبلاً متصلاً مع "تزلك" وربطها بالأوتاد أو الخوازيق

(١) تعني ترجمة هذه الكلمة، بصورة عامة، كلمة " المقهى" (المؤلف).

التي يتم دقها بعمق في الأرض من كل الجوانب التي حولها، بحيث يبدو كل هذا الترتيب شبيهاً بحبال الأشرعة والصواري الطويلة الخاصة بالسفن الشراعية.

وتعمل كل هذه الاحتياطات على تأمين خيمتنا وحمايتها من العواصف التي تكون في بعض الأحيان مروعة للغاية في هذه المنطقة من خطوط العرض.

وكانت الخيمة الأولى بمثابة غرفة جلوس لنا. وقد تم طرح اثنتين من السجاجيد التي جلبت من القاهرة على منصة تم رفعها قليلاً، وهي مكونة من الطين والحجارة وتم تشييدها بوساطة خدمنا، على كل من الجهة اليمنى واليسرى من بوابة الدخول، وتضفي عليها - إضافة إلى بعض المساند - مظهر شبيهاً بالأريكة، وبالتالي فذلك هو المكان الذي نقوم فيه باستقبال كل زوارنا.

أما الخيمة الثانية، فقد تم تخصيصها لكي تكون غرفة نومنا، والثالثة تكون غرفة لطعامنا. وتستخدم اثنتان من الخيام شبه الجديدة، المنفصلتان تماماً عن المجموعة السابقة، بمثابة مستودع لتخزين موادنا التموينية اللازمة لهذه الرحلة، كما تستخدمان أيضاً منزلاً لطهاتنا، وينام الخدم في الواقع هناك خلال الليل على مجرد قطعة عارية من الحصير. فإذا خيل لك بعد كل هذا الشرح والتوضيح وجود المزيد من الخيول أو الحمير أو الجمال المربوطة من أرجلها بسلسلة حديدية تنتهي بخازوق حديدي تم دقه جيداً في الأرض، ساعتها سوف تكون فكرة أكثر شمولاً عن السكن والبيئة الموجودة بمخيمنا الصغير.

يقع سهل "بحرة " على بعد " ٦ " فراسخ (أي ما يعادل ١٥ ميلاً) من مدينة جدة، وعلى بعد " ٧ " فراسخ (أي ما يعادل ١٧,٥ ميلاً) من مدينة مكة، وهو يمتد في الاتجاه الشمالي الغربي إلى أن يصل إلى وادي فاطمة، وهو يحد من ناحية الشمال الشرقي باثنين من المرتفعات الجبلية التي تساعد على نمو أنواع مختلفة من الشجيرات، التي مع ندرتها، نجد أنها تتخللها في الجنوب الشرقي بعض الكثبان الرملية والروابي المعزولة.

أما بالنسبة للرياح التي تهب من أقصى الشمال الغربي، فتكون سائدة أساساً في الفترة الصباحية، وبالنسبة لتلك التي تهب من الجنوب الغربي فيحدث ذلك في الأمسيات. وعندما تهب من القطاع الجنوبي الشرقي فعادة ما تحمل معها كميات قاتلة من الأتربة، والتي عند اختلاطها مع الحرارة الشديدة، يصبح مقرنا في " بحرة " شيئاً لا يطاق البتة.

ويضم هذا المكان بعض القرى الصغيرة التي شيدت منازلها من الطوب. وبإمكانك أن تمر هنا عبر أحد الأسواق الذي توسع على نطاق جيد بفضل توافر مصدر لإمدادات المياه.

وفي الأوقات العادية، مع وجود بعض المتاجر التي يدل منظرها على البؤس، فإنها تتحول في فترات الحج إلى امتلائها بالمواد التموينية بصورة جيدة وبأكثر مما يكفي.

أما بالنسبة للمياه فقد كانت في الوقت نفسه مالحة وغثة أو عديمة الطعم، ومع ذلك فلم يظهر لها أي تأثير على صحة الجند. وقد قام هؤلاء الجند ببناء العديد من الأحواض المحيطة بتلك الينابيع بأنفسهم. وبمجرد مغادرتهم، ومع التراكم السريع للأتربة فوقها، فإن سكان تلك القرى

الصغيرة يبدو أنهم كانوا يقومون بالمحافظة الشاملة على تلك الآبار التي تعد ضرورية بالنسبة لتوفير متطلباتهم واحتياجاتهم من مياه الشرب.

أما بالنسبة للشريط الأرضي الواقع بين تلك الآبار من جهة، وبين سلسلة الجبال الشمالية الشرقية من الجهة الأخرى، فقد كان يقوم بتوفير الغذاء للعديد من الشجيرات الطويلة التي يقوم البدو بنصب خيامهم تحتها.

أما الجزء الآخر من الأرض، والمواجه لهذا، فقد كان يقوم نادراً بإنتاج الأدغال والغابات.

وعلى الأرض الناعمة لهذه المنطقة والمنحدرة إلى أسفل السهل مررنا بأعداد مماثلة من أشجار الفاكهة التي تمثل فاكهتها الصفراء عند رؤيتها من بعد ما يشابه تلك الحبّات من البرتقال التي أسقطتها القافلة على قارعة الطريق أثناء تقدمها إلى الأمام في سيرها.

وخلال الأمسيات كانت بعض الفراشات، التي يجذبها ضوء الفانوس[١] تتساقط علينا من كل الاتجاهات، وتنتهي بتكسير أجنحتها.

وقد وضعت في قارورة كبيرة عدة أنواع من الخنافس، وفرفورات الماء (أبو مقزل) والزنابير، إضافة إلى أنواع متعددة من الجنادب التي كان بعضها له جاذبية كبيرة، إضافة إلى بعض الثعابين التي كانت لدغتها سامة للغاية، والتي كان خدمنا دائماً يمرون بها ويجدونها تحت صرر ملابسنا الصغيرة، أو يجدونها على المفارش الموجودة على أسرتنا.

(١) يقصد بهذه الكلمة "المصابيح" (المؤلف). أورد المؤلف كلمة فانوس كما تنطق في اللغة العربية (المترجم).

وقد كانت هناك فراشات ذات ألوان ذهبية وجميلة وبعض العناكب الكبيرة السامة، وبعض العناكب العادية، وبعض الزنابير وذبابة أسبانية واحدة. على أية حال، نتيجة انعدام بعض أنواع الكحول الجراحية الخاصة التي كنا نحتاجها آنذاك لاستبدال تلك القارورة، فقد كان ذلك يعني حرماني من الحفاظ على تلك الكمية التي قمت بتجميعها.

أما بالنسبة للطيور، فقد كانت هي الطيور الجارحة من كل الأنواع والعينات والتي كانت تحلق بصورة مستمرة فوق معسكرنا. وفي واقع الأمر فقد ركزت أنظاري أثناء تجوالي على بعض الصقور، لكن موضوع الكشف عنها كان أمراً تتقصني فيه الخبرة إلى حد ما. كانت درجة الحرارة السائدة في بحرة آنذاك مرتفعة للغاية. فقد كان مقياس الحرارة يسجل عند منتصف النهار عادة ما يتراوح بين ٣٦ و٣٩° مئوية، بينما كانت هذه الدرجة تهبط عند منتصف الليل إلى ما يتراوح بين ١٢ و١٥°. وقد كان هذا التقلب أو التناقص الذي يحدث في درجة الحرارة ، عندما يلي الليلُ النهارَ، سبباً في حدوث بعض الأمراض الخطيرة، وأهمها على وجه التحديد الحُمِّيَّات ونوبات التشنج العابرة.

وفي أحيان نادرة كانت رياح الجنوب تبدأ بالهبوب علينا عند العاشرة صباحاً، ولا تنقطع حتى الساعة الثامنة مساء. وفي حال ما نكون بعيدين عن خيامنا في أي من تلك الأوقات، يكون من الصعب علينا التعرف على مساكننا عند عودتنا إلى المخيم، حيث تكون كل أغراضنا وممتلكاتنا، وخاصة سجاجيدنا وأغطيتنا، قد غطيت بطبقة كثيفة من الأتربة يتراوح سمكها ما بين ٢ و ٤ بوصات.

وفي بعض الأحيان تكون قوة الإعصار شديدة، لدرجة يتم معها اقتلاع خيامنا وابتعادها لمسافة تزيد على (١٠٠) متر.

وفي ذروة الإعصار شاهدنا بعض القوافل تمر بنا وقد تم إجلاس حجاجها عالياً على ظهور جمالهم ، وكأن كل شيء مشمس وعادي.

أما فيما يتعلق بأزيائهم فلم يكونوا يلبسون شيئاً أكثر من "الإحرام"(١) ولم يقوموا، بأية حال، بالإبطاء في مسيرتهم وهم يواصلون رحلتهم قدماً تملؤهم روح تسودها رباطة الجأش واللامبالاة.

أما بالنسبة لخيولنا فقد كانت تطأطئ رؤوسها في يأس مطبق، بينما كانت الجمال تجثم على الأرض باركة، وهي تدفن رؤوسها في الرمال. وقد كان كلا هذين النوعين من المخلوقات يشعر بحاجة ماسة إلى الاستدارة بنفسه لكي تكون في الاتجاه المعاكس لذلك الذي تهب منه الريح.

أما بالنسبة لخيول الحجاز، شأنها شأن تلك الخيول الموجودة في كل من شبه الجزيرة العربية وسوريا، فكانت تعيش في العراء حرة طليقة صباحاً ومساءاً. وكان يتم ربطها بحزم عن طريق رَسَن أو رباط يتم تثبيته إلى وتد مدقوق عميقاً في الأرض. وكان يتم تنظيف مساحة مستديرة من الأرض وإخلاؤها، أينما ذهبنا، وبينما تكون الأتربة قد تمت تصفيتها جيداً وبصورة تمكن من نظافتها، يكون هناك مهاد من القش المفروش يبلغ سمكه ما يتراوح بين ثلاثة وأربعة أمتار، ويتم إجلاء كل ذلك بعيداً والتخلص منه في اللحظة التي يعود فيها الحصان إلى الخدمة العادية.

وأثناء فصل الشتاء يتم عمل هذا المهاد المخصص لرقاد الخيول من

---

(١) هو الزي المتعارف عليه والذي يرتديه الحجاج. (المؤلف).

الروث المسحوق الذي يقيها من البرد لدرجة كبيرة. ولا يكلف أحد نفسه عناء القيام بتغطيتها، ومع تعرضها بصورة مستمرة لا تكاد تنقطع لأشعة الشمس وكذلك للرطوبة أثناء الليل، فلم تظهر إصابتها بأية أمراض أو فقدانها لقوتها الخارقة ورشاقتها أو خفة حركتها. وعندما لا تكون مربوطة بحبل أو رسن، يتم استعمال جنزير يكون مجهزاً بمشعبة في أطرافه لكي يتم تثبيته ووصله بالأرجل الخلفية للفرس. وأحياناً يتم ذلك بوصل إحدى أرجله الأمامية مع الرجل الخلفية.

وقد دأب السائسون على سقي هذه الخيول مرة واحدة في اليوم، وعادة ما يكون ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً أو عند منتصف النهار. ويتم إطعامها على مدار السنة بعليقة سخية من الشعير وبعض علف الماشية، إضافة إلى كمية بسيطة من التبن الذي تم طيه في بكرات مستديرة كالحبال، والذي يتم نثره وتفتيته في اللحظة التي يتم فيها تقديمه إليها.

وفي خلال الفترة التي ينمو فيها العلف الذي يعرف باسم "البرسيم"[(١)] يقوم البدو الذين يمتلكون بعض المزارع المنتجة لهذا النوع من العلف بالسماح لها باستهلاك هذا النبات خلال شهر أو شهرين. ويتم ربط الحصان وسط المروج المخضرة نفسها، ويتم تغيير مكانه عندما يتم استهلاك الحشائش الموجودة في المكان الذي كانت تشغله بكاملها.

ويقوم أحد الخدم، المزود بخيمة يقيم تحت ظلها، بنقل ما تحتاجه من

(١) وهو من النباتات المتعارف عليها بعبارة trifolium. (المؤلف) كتبه المؤلف كما ينطق باللغة العربية (المترجم).

المياه إليها، كما أنه يعمل حارساً لها من اللصوص.

وخلال هذه الفترة لا يقوم أي أحد بتقديم علف من الشعير للحصان، إذ سيكون ذلك شيئاً لا طائل من ورائه، لأن الحصان لن يكون راغباً في أكله.

وفي الوقت الذي يكون فيه الحصان الأوربي، في حالة تركه لساعة واحدة فقط داخل حقل من حقول البرسيم، عرضة للموت بسبب ذلك، فإن الأمر لا يتعدى في الجزيرة العربية أكثر من الإصابة بالإسهال لأيام بسيطة، ولا ينجم عن هذه الوعكة أي ضرر حقيقي واضح.

بالنسبة للخيول العربية كلها يكون العرف " شعر العنق" مصدراً من مصادر المباهاة والتفاخر، وعليه لا يتم إطلاقاً تمرير المقص على أي من أجزاء جسمها الأخرى.

أما بالنسبة للجذوة " نعل الفرس " فهي صغيرة، ويتم فقط ترك مساحة صغيرة، يبلغ قطرها حوالي البوصة الواحدة، في وسطها. ولأغراض تنظيفها وسياستها وتمشيطها يتم استعمال مشط أو فرشاة معدنية شبيهة بتلك التي نقوم باستعمالها نحن، إضافة إلى قطعة فلين من نوع المادة القشية المكونة من قطع شبه لولبية من سعف النخيل. وقد اتخذ البدو في خدمتهم تلك السلالات من الخيول التي يتم توليدها بوساطة المماليك، بينما يقوم العرب من سكان المدن باستخدام سلالات الخيول من النوع الموجود بالقاهرة. وفي كلتا الحالتين، وبصرف النظر عن الاختلاف بينهما ، فقد كانت تركب وهى عارية الظهر وبدون استخدام أي نوع من السرج.

أما بالنسبة للجمال الأصيلة، فإن أكثر أنواعها قيمة في نظر الأعراب

هي تلك التي يعود أصلها إلى مسقط[١]، على الخليج الفارسي[٢]، وقد شاهدتها وهي تباع هنا بسعر (٤٠٠) تالاري[٣] (أي ما يزيد على ٢٠٠٠ فرنك). وفي المرتبة الثانية لها تأتي الجمال السودانية البشارية القادمة من الصحراء، والتي يتم تصديرها عبر ميناء سواكن. ويغلب عليها اللون الأبيض، وأذنابها قصيرة للغاية، ومع ذلك فهي ذات أشكال دقيقة ونحيلة، وتذكرنا بكلاب الصيد عندما تخوض مسابقة في العدو. فهي تجرى بسرعة غير عادية، ومن ناحية أخرى يكون من غير العملي محاولة جعلها تجرى بسرعة أكثر، ومقارنة مع الجمال القادمة من مسقط نجد أن ألوانها تميل إلى الحُمرة، كما أن أجسامها تكون أقل نعومة، كما أنها تجمع بين قوة التحمل الشديدة وبين سرعتها في العدو.

أما بالنسبة لجمال الحجاز أو نجد، ومع أنه من الواضح كونها من السلالات الجيدة، فإنها لا تتمتع بالسمعة نفسها من الدرجة الأولى التي تتميز بها سابقاتها، ويمكن شراء الواحد أحياناً بمبلغ (٥٠) تالاري[٤].

---

(١) أي من مدينة مسقط. (المؤلف) ومما لا شك فيه أن الجمال العمانية تعد من أجود الجمال العربية وأسرعها على الإطلاق (المترجم).

(٢) درجت المصادر الأوربية الكلاسيكية منها والحديثة على تسمية الخليج بالخليج الفارسي وهي تسمية غير صحيحة، فالسكان العرب حتى وقت قريب كانوا يطلون على ضفتيه الغربية والشرقية وهم المسيطرون على أمنه وتجارته (المترجم).

(٣) تالاري هو الريال الفرنسي الذي كان شائع الاستخدام في الجزيرة العربية إلى عهد قريب، وفي الحقيقة أن هذا الريال أو العملة ليس فرنسياً بل هو نمساوي ينسب إلى الملكة النمساوية المشهورة ماري تيريزا (المترجم).

(٤) أي ما يقل قليلاً عن (٢٥٠) فرنكاً. (المؤلف).

ويحمل هذا الهجين[1] صفات قريبة الشبه بالجمال، لكنها تبدو أكثر أناقة، فهي خفيفة الحركة، وتعد أرجلها وتكوينها الجسماني العام ضعيفاً وهشاً، بحيث عادة ما يسأل الناس أنفسهم، عند رؤيتهم منذ الوهلة الأولى لأي واحد من هذه الجمال، إذا كانت على وشك أن تموت من الكسل والتراخي.

ويعد الجمل الجيد هو ذلك الذي بمقدوره قطع تسعة أميال في خلال حوالي خمس وأربعين دقيقة، وتسعين ميلاً في مدة ست ساعات تحت ظروف سير شاقة. أما بالنسبة للرحلات التي كانت تتم خلال الفترات الطويلة لهبوب الأعاصير والرياح، فقد كانت قادرة على أن تقطع مسافة (١٨) فرسخاً في اليوم، وعندما كنا نحدد لها قطع (١٢) إلى (١٥) فرسخاً، فإن ذلك لم يكن يشكل أي نوع من القلق أو الخوف على حالتها الصحية من جراء ذلك.

وبينما كانت تعطى في الحجاز عليقة جيدة مكونة من الحبوب والعلف الحيواني الأخضر، فقد كان البدو في منطقة عسير يقدمون لها التمر، وعندما يكون الماء متوافراً كانت تشجع على شربه ليومين أو ثلاثة أيام متتالية، وبعدها كانت تسير على الطريق بانتظام ودون انقطاع.

أما في تهامة، فقد كانت عليقتها تتكون من "الذرة" و"الدخن"، إضافة إلى أنه كانت تقدم لها أيضاً أغصان أشجار الطلح أو القرظ التي كانت تقطع في شكل أجزاء صغيرة، ولكنها طويلة وتشوى على جمر نيرانهم المتقدة[2].

---

(١) هو الاسم العربي للجمل الأصيل (المؤلف).

(٢) حينما كنت صغيراً كنت أرى البدو يقومون بهذه العملية، ولكن لإطعام جمالهم بأغصان الطلح الغضة بعد شيها على النار بطريقة خفيفة وتسمى عملية الشويط (المترجم).

أما بالنسبة للجمال التي يمتلكها الأشخاص المعدمون، فقد كان طعامها يقتصر على استهلاك النوى الناتج عن بقايا التمر، بالإضافة إلى بعض النباتات التي لا قيمة لها والتي يمرون بها وهى تنمو وسط الحشائش البرية. ويتم ربط الهجين أمام منازل أصحابها، واختصارًا بالطريقة نفسها التي تربط بها خيولهم حتى إذ ما تطلب الأمر أن تظل باركة على ركبتيها، فإن أرجلها تظل مربوطة إلى وتد، ومثبتة من الجزء الأعلى من ركبتيها.

وبالنسبة لعملية توجيهها أو تغيير مسارها، فقد جرت العادة على استخدام رسن بسيط فقط. أما بالنسبة لتلك التي برهنت على عدم الطاعة والانصياع، فقد كان يتم ثقب أنوفها، ويتم إدخال حلقة معدنية فيها، ومن ثم توصيلها بزمام، بحيث يقوم هذا الزمام بالمحافظة على الاتصال بين رؤوسها وبين أيدينا، وبطريقة تقوم فيها - استجابة لأقل حركة - بالطاعة والتلبية الكاملة والدقيقة للتوجيهات الصادرة إليها من الشخص الذي يمتطي ظهرها.

وقد وهب الله هذا المخلوق سلاسة الانقياد المفرطة، وهو على مقدرة لأن يكيِّف نفسه بكل سهولة مع صاحبه، ومع ذلك فهو قادر على الاعتراض على أي شيء مثل ضربه دون وجه حق، وبطريقة ظالمة من صاحبه. ويكفي أن يقوم بضربه حول رأسه لكي يقتله، أو أن يضربه حول كتفيه لكي يحطم بنيته، إذ أن هذه هي الأجزاء التي تعد غاية في الحساسية من بين جميع أجزاء جسمه، حتى إن مجرد لمسها بقدم راكبه تكون كافية للغاية عقوبة له في حالة ارتكابه لأية مخالفة. وقد يكون عملياً جَلدُه من وقت لآخر "بالكرياج"[١] لكن ذلك يجب أن يتم دائماً بتحفظ.

(١) هو سوط للجَلد يستعمله العربي عندما يكون راكباً، وهو مصنوع من جلد فرس البحر أو جاموس النهر(المؤلف).

ويعد الجمل ميالاً عادة وبطبعه إلى التصرف طبقاً لتوجيهات سيده التي تتم من خلال الرسن، وفي حالة ما إذا طلب منه المزيد من البذل والطاعة، فإن ذلك يتوقف على مضاعفة قوته على الاحتمال ووضع كل الصرامة التي بمقدوره الانصياع لها موضع التنفيذ. وحتى في حالة القيام بجلده في تلك اللحظة المعينة، فإنه يقوم إلى حد ما ببذل محاولة جديدة لمواصلة التقدم في رحلته إلى أن يصل إلى تلك النقطة التي يبلغ فيها درجة عالية من الإجهاد، أو تلك التي يصاب فيها بالاشمئزاز والقرف من جراء الضربات التي سددت له، حينئذ فإنه يستلقي فوراً على الأرض وكأنه في حالة سبات ودون أدنى رغبة في مواصلة رحلته، وقد يتظاهر بالموت في حالة قيام أي شخص بالتسبب في المزيد من أي نوع من الإزعاج أو المضايقة له في هذا الشأن.

وعندما تسير هذه الهجن قدماً في أفضل سرعة لها، فإن بعضها يقوم برفع رأسه إلى أعلى، وعلى العكس من ذلك تقوم أخرى منها بتنكيس رؤوسها إلى الأسفل لدرجة تكون فيها قريبة من ملامسة الأرض. وتعد الأخيرة منها بصورة أساسية هي الأكثر قوة واحتمالاً للشدائد، وهي التي يمكن الاعتماد عليها في الرحلات الفعلية.

وهنالك أنواع خاصة منها لديها عادة سيئة وغير سارة تتلخص في قيامها بالجثم باركة "فجأة" على ركبتيها أثناء انطلاقها في أقصى سرعة لها، وإذا لم يكن الرجل الراكب على ظهرها من الركاب الحاذقين والمحترفين، فإنه في هذه الحالة سيكون عرضة للانقلاب والانكفاء ساقطاً منها رأساً على عقب، متدحرجاً لمسافة تتراوح ما بين (٢٠) و (٣٠) متراً على الأرض، وهي مسافة لا تخلو تماماً من الأخطار.

وعندما يقوم الناس باجتياز الصحراء التي تعد الأرض المفضلة بالنسبة لهذه الهجن، فإنه يعد من الأشياء الإلزامية الاستدارة بالجمال لتفادي كثبان النمل (بيوت النمل) التي يتم مشاهدتها بصعوبة نادرة، والتي يقوم النمل بتكوينها وبنائها، حيث إن هنالك خطراً بأن تتكسر أرجلها في حالة سقوطها وغوصها داخل هذه الكثبان المذكورة.

وعندها سيتضح فوراً مدى الأهمية التي ينطوي عليها هذا التحوط، إذ أن المسافر الذي يحرم من راحلته في تلك الصحارى الممتدة لمسافات شاسعة، في حالة حدوث ذلك، فإنه سيكون بمنزلة البحار الذي غرقت سفينته في وسط المحيط. ويصبح الجمل، الذي عادة ما يتصف مزاجه وطبعه بالرقة والألفة، شيئاً غير قابل للتحكم فيه أو إدارته أو توجيهه خلال موسم اللقاح (العشار). ويكون غير قابل للانصياع لأوامر صاحبه، بل وينقلب كلية ضده، وقد يحاول حتى عضه، ويقوم بتوظيف كل طاقاته للقذف به وطرحه أرضاً.

يظل الجمل على تلك الحال طوال تلك الفترة التي ينتابه خلالها الإحساس بالعشق والهياج والغرام. ويطلق الأعرابي على هذه الفترة النزوية للحيوان عبارة "صوم"(١) Soum لأن الجمل يكون خلال تلك الفترة المعنية ليس لديه أدنى رغبة في الأكل أو الشرب لفترة تتراوح بين ١٠ و١٢ يوماً عند بداية فصل الربيع.

وفي هذه الفترة المحددة من السنة يغطي نوع من الزَّبَد الأبيض شفتيه وأنفه، كما يقوم بإطلاق نشيج (هدير) غريب. أما بالنسبة للإناث (النوق)،

(١) تشير هذه الكلمة العربية إلى فترة الانقطاع عن المأكل والمشرب (الصوم). (المؤلف).

ومع أنها تكون أيضاً في حالة نزوة عشق وغرام، فإنها لا تبلغ تلك الحالة بالضبط، ففي مقابل ذلك، وعندما تكون الظروف عادية، فإن تلك الإناث تكون أكثر ميلاً إلى النزوة والتقلب المفاجئ، كما أنه يصعب إدارتها وتوجيهها كما هو الحال بالنسبة للذكور(١).

ولا يقوم الراكب الطويل الخبرة بإجبار جمله على ثني ركبتيه وتبريكه عندما يود امتطاءه، وإنما يقوم بجذب رأس رَحْلِه بإحدى يديه ثم يضع إحدى قدميه على ركبة الحيوان والأخرى فوق رقبته، ومن ذلك الموضع يكون جاهزاً للوثب على ظهره.

ويمتد الرَّحْل من كتفيه حتى فخذيه. ويتم تثبيته في مكانه بوساطة اثنين من السيور الجلدية التي يتم شدها بقوة حول بطنه. وفي الوسط يتم ترك فراغ لسنامه الذي يُترك دائماً خالياً من أي مساكات أو أدوات وخز، وبذلك يكون قد تم التأكد من قدرته على مقاومة حركة الضغط والبلى المتواصلة. وفي حالة حدوث جرح هناك، فإنه يصعب استعادة هذا الحيوان مرة أخرى لصحته العادية بسهولة.

وقد يستلزم الأمر توفير الراحة التامة والكاملة له لعدة أشهر، وذلك خوفاً من أن يتطور هذا الجرح ليصبح مؤثراً وخطيراً.

ويتكون الرَّحل من ثلاث قطع خشبية تم تصميمها بطريقة خاصة تأخذ شكل رقبة الحيوان. وتكون تلك الواقعة في كل طرف متدرجة بصورة

---

(١) انظر ما ورد عن الجمل في حالة الهياج في "حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين محمد بن موسى الدميري (٧٤٢ - ٨٠٨ هـ) دار بيروت، دمشق المجلد الأول ص ١٦ - ١٩ دون ذكر لسنة الطبع. (المترجم).

خفيفة لكي تصل إلى بعد قدم واحدة أعلى من المكان الذي يجلس عليه الراكب. ويتم عملها في الغالب على مخرطة خشبية، وأحياناً يتم تزيينها بنماذج موشاة بالرسومات أو حتى بالنحت، أو حتى ببعض النقط الصغيرة التي يتم تشكيلها وتثبيتها على العمل الخشبي.

وبعد أن يتم تنجيد هذا السرج بمادة ذات لون شبيه بالقش، يتم تغطيته كلياً بالجلد المدبوغ أو بمادة حريرية قوية للغاية.

وهنالك حشوة يتم وضعها فوق قمته، كما يقومون بإعداد واحدة جديدة كي تكون جاهزة لاستعمالها فوق كتفي هذا الحيوان بحيث تقوم بتوفير الدعم لرِجّلي الراكب في حالة رغبته في خلفهما على الطريق أثناء السير. ويتم تغطية هذا الشكل الخارجي بكامله بملحفة كبيرة من الجلد مزينة بنجوم صغيرة ذات لون فاتح أو بتصاميم يتم وضعها فوق خطوط البوصلة.

وتتدلى من فوق جنبات هذا الحيوان حاشية (سفايف) مصنوعة من السيور الجلدية المغربية بطريقة زاهية وجميلة.

أما بالنسبة لأولئك الرجال الأثرياء، فهم يذهبون إلى أبعد من ذلك، إذ يقومون بوضع دثار يكون قد تم صنعه خصيصاً في أحد المصانع، لهذا الغرض المعين. وهو مصنوع من مادة غاية في المتانة والقوة، وأسطحها مزينة بألوان براقة وزاهية، وتتدلى بعض القصاصات الطويلة التي تشبه الأعلام والمصنوعة من الصوف أو الحرير التي يداعبها النسيم، وبالتالي تقوم بطرد الذباب والحشرات ومنعه من القيام بلسع هذا الحيوان.

وفي هذه المناسبات، وعندما يكون الناس على سفر في رحلة طويلة، وبالتالي لا يكون لديهم من خيار سوى المبيت لعدة ليالٍ تحت السماء

المكشوفة التي تتلألأ بضوء النجوم، يتم في هذه الحالة استبدال هذا الدثار بواحد آخر يبلغ طوله حوالي الستة أقدام، وعرضه حوالي ثلاثة أقدام، وهو ذلك النوع نفسه الذي اعتاد الشرقيون استعماله سواء للنوم عليه أو للصلاة فوقه.

أما بالنسبة للهجن الخاصة بالشريف الكبير[1]، والتي شاهدتها في جدة، فقد كانت مزودة بسرج تم كساؤه وتغليفه بكامله بنوع من الفراء الثمين والجلود الغاية في الروعة، والمصنعة من جلود الخراف الحبشية، والمطلية إما بلون أحمر أو أزرق.

وقد كان البعض منها يحتوي على أغطية أو مظلات واسعة مزخرفة بقماش مشع وبراق ألصقت به مرايا صغيرة يقوم ضوء الشمس عند سقوطه عليها ببهر كل شخص ينظر إليها.

وقد كانت الرواحل الممتازة والفخمة غالية الثمن للغاية، وقد أعجبت بكثير منها، حيث كانت عملية التطعيم والزخرفة التي تتم على الرواحل فقط تبلغ كلفتها حوالي (٣٠) تالاري.

وقد كانت هناك أرسان جميلة بحق تم صنعها من الحرير الناعم الملفوف في شكل حلقات أو سلاسل، أو مزينة بالأصداف الخاصة والجدائل المزركشة بالذهب.

ويرتفع من فوق رأس الهجن منظر غاية في الزهو والأناقة مكون من ريش النعام. ويعد هذا النوع من أغطية الرأس hood (القلنسوات) الكبيرة في الوقت نفسه هزلياً، ومليئاً أيضاً بالبهجة والسرور.

---

(١) يقصد بالشريف الكبير شريف مكة (المترجم).

دعنا الآن نلقي نظرة على أحد البدو الأصليين أثناء قيامه بالترتيب لرحلة طويلة وخطيرة عبر بلد خال تماماً من أية مصادر للتزود بالمياه. فهو يقوم بإسراج جمله بنفسه، ويقوم بوضع "قربة"[1] يشدها تحت خاصرته ، ويكون قد أودع فيها كمية من المياه تكفيه على الأقل لمدة تتراوح بين عشرة أيام واثني عشر يوماً، وبعدها يقوم بوضع زمزميته"[2] ويتم تثبيتها إلى الرحل بمسمار، وتحتوى على كل ما يحتاجه من مواد تموينية لتلك الرحلة، وبمقدوره القيام بنزعها من مكانها. والشرب منها متى ما شاء ذلك، ودون أن يتسبب ذلك، بأي حال من الأحوال، في جعله يبطئ أو يقلل من سرعته التي يسير بها أو يقلل منها.

ويتم وضع "خرج" خاص، محشو بالعديد من أنواع المواد، يثبت على مكان ما في السرج - ويحتوي على الدقيق والزبد والتمر المجفف، وعلى كيس صغير مليء بالبن، ثم الأرز و "المرميت Marmite" الذي يستعمله في صنع البيلاف (الطعام الشرقي). ويعد كل ذلك إجمالاً هو ما يحتاجه هذا البدوي من زاد.

أما بالنسبة لمرقده، فهو يتكون من لحاف بالإضافة إلى غطاء من الصوف، ثم بندقية وحزام عريض لوضع الرصاص بداخله، ويتدلى من فوق مؤخرة الرحل، كما يقوم بوضع سيفه في مكان ما من الواجهة.

أما بالنسبة لرمحه فهو يكون، في كل الأوقات - ممسكا به بيده، وهو بذلك يؤدي الغرض من تمكينه من المحافظة على إمساكه بالسلاسل الحلقية المؤدية إلى الرسن في حالة ابتعادها عنه. ويكون الجمل المحمل

(١) وهي قوارير مصنعة من جلود الأنعام لحفظ الماء. (المؤلف).

(٢) وهي قوارير لحفظ الماء مصنعة من الجلد وأصغر حجماً إلى حد ما. (المؤلف).

بهذه الطريقة لا يحمل وزناً ثقيلاً، مع أنه يحمل بهذه الطريقة كل قطعة قد تكون وحدها ذات فائدة حيوية، ولا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة للراكب واستخداماته خلال فترة تبلغ حوالي الخمسة عشر يوماً. فهي تشمل سريره ومؤونته من الطعام وسلاحه أيضاً.

وخلال الفترة التي أمضيتها في (بحرة) شغلت نفسي كثيراً بالحصول على المعلومات عن مكة، وقد ساعدني في ذلك كثيراً العديد من الأوربيين والذين كانوا بحكم وضعهم، كمسيحيين تحولوا إلى اعتناق الديانة الإسلامية، قادرين على أن يقطنوا في تلك المدينة لفترات طويلة.

ومنذ عودتي إلى فرنسا مررت على المعلومات التي قدمها "بوركهارت"(١) عن الأماكن المقدسة، ويطيب لي أن أسجل هنا بمزيد من الشرف لصالح هذا المكتشف، أنه لم يكن هناك أحد غيره على الإطلاق يتمتع بالنظرة الثاقبة في الملاحظة والرصد أو قادر على تلخيص النتائج الناجمة عن تدقيقه وفحصه.

وبما أنني قد قررت عدم ربط أي شيء بهذه المدينة على الإطلاق، لكن، وعلى ضوء الحقيقة الماثلة التي تتلخص في أن الغالبية العظمى من قرائي لن يكونوا عالمين أو بمقدورهم الاطلاع على هذه النسخة الإنجليزية من

(١) هو جون لويس بوركهارت من أشهر الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الجزيرة العربية في الربع الأول من القرن التاسع عشر. فقد زار جدة والطائف ومكة والمدينة امتدت رحلته لهذه المدن لتبلغ ١١ شهراً من ١٥ يوليو ١٨١٤ إلى ٢٥ مايو ١٨١٥م، دون عنها سفراً رائعاً بعنوان "رحلات في شبه الجزيرة العربية" طبع في لندن عام ١٨٢٩م وقام بترجمته إلى اللغة العربية د. عبد العزيز الهلابي و د. عبد الرحمن الشيخ من جامعة الملك سعود. طبع في بيروت عام ١٤١٣/ ١٩٩٢. (المترجم).

هذه الرواية، فسأقوم في هذه الحالة لراحتهم بترجمة بعض المقتطفات من هذه المذكرات التي قمت بكتابة مسودتها عندما كنت في بلدهم العربي.

وصف مكة

تقع مدينة مكة، وهى المدينة المقدسة بالنسبة للمسلمين ، والتي تتشرف بانبلاج نور الدعوة الإسلامية وإشعاعه منها، على الجزء الأدنى من واد تحيط به من جميع الجهات أرض قاحلة وجرداء بسبب افتقارها إلى أي زرع أو خضرة.

وتعد مكة محمية بوساطة قلعة بالإضافة إلى اثنين من الحصون الصغيرة. وحيث إنها غير محاطة بأية أسوار حولها، فهي تعد مفتوحة من جميع الجهات لكي تدخلها القوافل التي لا حصر لها والتي تصل إلى هنا كل عام، والتي تضم الحجيج المقدس الذين كرس (محمد) نفسه لخدمتهم. وقد امتدت هذه المدينة ، التي يبلغ تعداد سكانها إجمالاً حوالي (١٠,٠٠٠) نسمة، بما في ذلك أطرافها، في شكل حذوة حصان محاذية للجبال التي تقع هي في وسطها، والتي - كما يصرح الأعراب دائماً - تعطي إحساساً أو انطباعاً بكونها محاطة بستار حاجز بغرض وقايتهم وحفظهم هناك من تلك النظرات غير النقية أو الصافية الصادرة من المشركين.

وتحتوي هذه البقعة المقدسة على مصدر واحد للمياه الصالحة للشرب، ألا وهو نبع زمزم الشهير.

ومع أن هذا المصدر من المياه العذبة لا يمكن اعتباره كافياً لتلبية متطلبات المدينة من المياه، فلم يكن للأعراب من خيار سوى البحث عن مصدر آخر بديل، من صنع الإنسان للقيام بتلبية إمدادات المياه التي يفتقر إليها بلدهم الفقير.

وقـد بذل العـديد من الرجـال كـثـيـراً من المحـاولات من أجل تحـديد مواقـعهـا، لكنهـا قـد ذهبت جـميـعهـا أدراج الرياح. وفي ذلك الوقت قـامت إحدى النسـوة، وهي على وجه التـحديد زوجـة (سليمان باشا)، إمـبراطور الأتراك، والتي واتتهـا الشـجاعة الكافيـة للقيام بهذه المهمـة على عاتقهـا، حيث كتبت لها لاحقاً الشهرة الناجمة عن النجاح في هذا المشروع(١).

وكان الماء يتدفق من عين "زبيدة" إلى مكة عبر قناة شيدت من الحجـارة والأسمنت الشديد الصلابة. وقد كانت هذه القناة التي يبلغ طولها ثمانية فراسخ (٢٠ ميلاً) تقوم بتزويد سبع نوافير (سبيل) بخدمات المياه، وقد تم تزيين هذه النـوافير (السبل) بحنفيات برونزية صغيـرة. وتتدفق المياه من هذه السبل دون انقطاع، وقد تم تعيين حارس لكل منها لأغراض الحراسة، بينمـا كان يقوم في الوقت نفسه بالإشراف على "السقـاة" الذين أنيطت بهم مهمة توزيع المياه على كل أرجاء المدينة.

بالإضافة إلى ذلك، فقد تم حفر أربعة أحواض ضخمة تم تخصيصهـا منفصلة لقوافل الحجيج الكبيـرة الأربع، حيث خصص واحد منها لإطفـاء عطش قافلة حجاج القاهرة ، وآخر لحجاج قافلة بغداد، والثالث لحجاج دمشق، والرابع لأولئك الحجاج القادمين من اليمن.

أما بالنسبة للمغاربة أو غيرهم من الحجاج القادمين من أفريقيا والجزر

(١) يبدو أن المؤلف خلط بين (زبيدة) زوجة (هارون الرشيد) التي أمرت ببناء هذه القناة والتي نسبت إليها وإن لم يكن كذلك فربما أن زوجة (سليمان القانوني) السلطان العثماني قامت بترميم ما خرب في القناة التي تعرضت لفترات من الإهمال إلى أن يقضي الله لها من يأمر بترميمها. وقد رممت عدة مرات، وأدخل عليها بعض التحسينات خاصة في العهد العثماني. (المترجم).

الآسيوية، فقد كانوا يتدبرون ترتيباتهم وحدهم بمكة إذ لم تكن أعدادهم - في أي وقت - أساسية أو كثيرة على الإطلاق.

أما بالنسبة للعمارة، فقد كانت مكة تذكرني بالقليل مما هو مشهور. وقد كانت أهم المعالم التي تندرج تحت آثار العصور القديمة، والسبب في ذلك يعود إلى شهرتها الواسعة ، فهي الكعبة أو ما يعرف ببيت الله. ونعلم جميعاً أن بعض المسافرين (أو الرحالة) قد قاموا على وجه الخصوص بنشر كل أنواع القصص والروايات وترويجها في الخارج، وذلك فيما يتعلق بالثراء العريض والواسع لهذه المدينة المقدسة والحرم الكبير الذي يحيط بها، وفوق كل هذا وذاك عن الأعداد التي لا تحصى من المصابيح الزيتية المتوهجة، وعن طاقتها التي لا تفتر في الإضاءة، وعن المصابيح الذهبية أو الفضية التي تزين كلاً من الجدران وصفوف الأعمدة بضوئها اللامع والمعقول[1].

وقد كانت مهمتي التي تشغلني منذ الوصول إلى جدة تكمن في الحصول على معلومات قاطعة وأكيدة عن كل ما ورد في هذه الروايات والقصص عن هذا الموضوع. والآن دعني أقوم بسرد التقارير التي قمت بجمعها مجتمعة.

تتكون هذه البقعة الأكثر قدسية، والتي يتوسطها فناء فسيح، من مبنى رئيس مستطيل الشكل مسور بكامله من الخارج، لكنه مفتوح على سعته من الداخل، وهو يستند على بعض صفوف الأعمدة المصنوعة من الرخام ذي النوعية الفقيرة للغاية، وذات الألوان المتباينة.

(١) رسم بعض الرحالة الأوربيين المتقدمين منهم بصفة خاصة صورة أسطورية لمدينة مكة وللكعبة المشرفة بمثل ما ذكر المؤلف وهذه الأساطير التي كانت تثير اهتمام المتلقي في أوربا ما قبل النهضة أو أوربا العصور الوسطى. (المترجم).

ويبلغ طول المسجد حوالي (٣٠٠) قدم، وعرضه حوالي (٢٥٠) قدماً. وفي وسط واجهتي المبنى الرئيستين بالتحديد يطالعك مشهد الرواق ذي الأعمدة المطل إلى الخارج باتجاه المدينة نفسها والجزء الأكبر من هذا المبنى مشيد على هيئة أقواس مع عدد غير محدد من القباب الثانوية الصغيرة المنحنية قممها من أعلى، والمدعومة بعمود على الطريقة المعمارية العربية والتي تضم أعمال معماريين غير جديرين بالذكر، هم أحفاد أولئك الذين نحمل لهم في أعناقنا ديناً من الإعجاب للنصب التذكارية الأثرية الموجودة بالقاهرة وغرناطة وبغداد.

ويقف على امتداد الجانبين الكبيرين من هذا المبنى المستطيل ثلاثة صفوف من الأعمدة تنتصب بملء طولها، بخلاف الجزء المواجه للرواق، حيث توجد هنالك خمسة أيضاً. ويشتمل أحد الجوانب القصيرة على ثلاثة، بينما يشتمل الآخر على أربعة.

ويحرص الحجاج على البقاء قرب هذه الأعمدة المصفوفة، لكي يتفادوا شدة حرارة الشمس خلال ساعات النهار. وتصطف كل مجموعة معينة في مساحة تكون مواجهة للأماكن المخصصة للصلاة والمنتشرة بصورة عامة حول الكعبة.

وبمرورك تحت الرواق ذي الأعمدة سوف تمر عليك أعداد كبيرة من المصابيح ذات الزجاج الأسود والمتدلية إلى الأسفل على أربع سلاسل صغيرة مصنوعة من الفولاذ، وكل واحد منها مختوم أو مثبت على عامود. وتتم إضاءتها في كل مساء منذ المغرب وحتى العشاء، وعند حلول شهر رمضان يكون الإجراء هو مضاعفة عددها.

وفي وسط هذا الفناء الكبير تقف ثمانية من المباني الصغيرة أهمها تميزاً من كل النواحي هو "الكعبة ".

فعندما انطلق إسماعيل (عليه السلام) مغادراً لأرض أجداده وصل إلى هنا للإقامة بمكة مع أمه "هاجر"، حيث قام ببناء الكعبة[1] في هذا الموقع. فإذا اتبعنا عقيدة العرب نجد أن هذا هو أول بناء يتم تشيده تمجيداً لله الواحد الأحد.

ويقوم التاريخ بوضع الأسس الحقيقية لبناء الكعبة ابتداءً من العام ٢٧٩٣ قبل الهجرة، أي قبل (٢٩٣) سنة من تشييد كنيسة أورشليم (القدس)، وقبل (٢٢٠٨) سنوات من ميلاد المسيح (عليه السلام).

و(يقال: إن الله)، بغية إسداء المساعدة للأب العظيم، من أجل تشييد هذا الصرح العظيم، قد رزقه بإبراهيم، كما قام الملك جبريل بتزويده بالحجر المقدس الصافي البياض الذي يمكن مشاهدته هناك حتى يومنا هذا. ويروي المؤمنون أنه قد كان في ذلك الوقت بالتحديد من الياقوت الأبيض، وأنه قد كان يشع بالبركة والنور، لدرجة أن الناس كانوا يستطيعون تمييزه والتعرف عليه من خلال نوره وبياضه المشع من على بعد مسيرة أربعة أيام.

أما التتمة المرادفة لهذه الرواية فتشير إلى أن امرأة نجسة وغير طاهرة قد قامت بلمسه، وفجأة تحول لونه إلى الأسود. وبعدها يقوم بعض المؤمنين بإضافة رواية جديدة مفادها أن الدموع التي ذرفتها بسبب خبث الجنس

(١) من المعروف بأن الذي قام ببناء الكعبة المشرفة هو سيدنا إبراهيم عليه السلام يساعده ابنه إسماعيل وليس إسماعيل وحده الذي قام ببناء الكعبة كما ذكر المؤلف. (المترجم).

البشري وغدره قد كانت سبباً في استعادته للونه الأصلي الصافي.

وخلال سنوات شباب محمد (صلى الله عليه وسلم)، وقبيل أن يقوم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالكشف عن رسالته المقدسة، رأت "قريش"[1] أن الفناء المستدير الذي يضم الكعبة قد كان محدوداً للغاية وغير كاف وعليه وعليه فقد بدأوا في هدمه وإعادة تشييده على مساحة أوسع، لكنهم حافظوا بدقة على خريطته التصميمية الأولى نفسها. وعندما حان الوقت لكي يقوموا بتحديد مكان وضع هذا الحجر الأبيض الشهير ادعت كل قبيلة من هذه القبائل أن من حقها أن تحظى بهذا الشرف.

وفي نهاية المطاف، وبغية إيجاد حل لهذا النزاع، تم الاتفاق على أن يلتزموا الانصياع للقرار الذي يصدر عن أول شخص يتصادف قدومه إلى المكان لدخول الكعبة.

وقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي بدأ بالتفكير والتأمل في نشر رسالته الجديدة، هو أول شخص يتصادف قدومه في طريقه للدخول إلى الكعبة، وقد سنحت فرصته لبيان مدى إعزازه وتقديره للقبول والرضا بحكمه، والذي قصد منه لاحقاً أن يبرهن في هذه الحالة واجتيازه لهذا الامتحان على حكمته ونزاهته.

وبقصد إنهاء الخلاف بين هذه القبائل قرر بأن يتم وضع الحجر- الذي كان في وسط المكان المتنازع عليه - على قطعة سميكة من القماش يتم

(١) في تلك الفترة كانت قريش، المعروفة جيداً لدى الأوربيين باسم "القريشيين Coreishites" هي أقوى القبائل سطوة في الجزيرة العربية وسوف أقوم لاحقاً بتوفير بعض الحقائق والمعلومات عن هذه القبيلة التي ما زالت موجودة حتى يومنا هذا. (المؤلف).

جذبها من كل طرف لها بوساطة رجل يمثل كل واحدة من هذه القبائل. وعندما تم رفعه من قبلهم إلى نقطة تمثل ارتفاعاً كافياً قام هو بحمله بنفسه ووضعه بيديه، حيث قام بوضعه في الحائط المرتفع وعلى الركن الحالي الذي ما زال يشغله حتى يومنا هذا.

وقد قامت القبائل المختلفة القاطنة بمنطقة مكة عند اكتشافها لاحقاً بأنها قد فقدت الاتصال بربها الحقيقي، الذي ورثته عن أسلافها، بعمل الأصنام التي تصور إبراهيم وإسماعيل وهما يمسكان بالرماح الخاصة بالسحرة القدماء ويضعونها في الكعبة ، بحيث صارت الكعبة محاطة بكاملها بمجموعة مستديرة من الحراس تتشكل من ثلاثمائة صنم.

وعندما فتح محمد (صلى الله عليه وسلم) مكة في العام الثامن الهجري كان أول عمل أساسي قام به هو هدم تلك الأوثان التي كانت تحيط بالكعبة وإزالتها، واتخاذ الترتيبات الخاصة بإعادة تنظيمها طبقاً لما نراها عليه اليوم.

وبصراحة كانت الكعبة، التي يقدسها ويؤمها المسلمون اليوم، بناء صغيراً بقاعدة مستطيلة الشكل، يبلغ طولها حوالي (٥٦) قدم وعرضها حوالي (٤٨) قدم وقد كان ارتفاعها حوالي (٨٠) قدم على وجه التقريب.

وقد كانت البوابة التي ندخل إليها عبرها مصنوعة من الفضة السميكة والصلبة، وهي تقع في الطرف الجنوبي، وقد رفعت عن سطح الأرض بما يعادل ثمانية أقدام تقريباً. وبدلاً من الصعود إليها عن طريق درج ثابت فقد كان يتم استخدام طقم متنقل من السلالم التي تتم إزاحتها بعيداً بمجرد الانتهاء من كل احتفال ديني تتم إقامته بها.

ويتم فتح تلك البوابة الرئيسة إحدى عشرة مرة في كل سنة على النحو الآتي:

- في شهر رمضان مرتان.
- في شهر ذي القعدة مرة واحدة فقط.
- في شهر ذي الحجة مرتان.
- في شهر صفر مرة واحدة.
- في شهر ربيع أول مرتان.
- في شهر شعبان مرتان.
- في شهر رجب مرة واحدة فقط.

وفي النهاية يتم فتحها في شهر ربيع الآخر بغرض تنظيفها وغسلها وتطهيرها بعد هذا القدر الكبير من الأوساخ التي تكون قد تراكمت بداخلها.

وبالإضافة إلى ذلك فعند قدوم إحدى الشخصيات المهمة والمؤثرة إلى مكة، وفي حالة عدم اعتزامه البقاء هناك حتى فترة الحج، فيمكنه في هذه الحالة أن يحصل على إذن من حامل مفاتيح الكعبة للدخول إلى هناك في مقابل سداده لمبلغ إيجار مرتفع.

أما الجزء الداخلي من الكعبة فتتدلى منه أغطية من الفسيفساء العربية ذات الألوان التي لا تحصى ولا تعد. وبدءاً من طول الرجل العادي، ويستمر تدلي قماش مقصب ومطرز بالذهب على امتداد الكعبة المقدسة فصاعداً، إلى أن يصل إلى أعلى نقطة فيها وفي قلب الوسط تنتصب ثلاثة أعمدة من الفضة الصلبة والسميكة، وهي التي توفر دعامة لكل قاعدة هذا البناء.

ومن الداخل تكون الكعبة مكسوة بكاملها بقماش من الحرير الأسود الدمشقي الذي يلتف حولها، والمغطى بشكل تام بالعديد من الآيات القرآنية، وكل هذا العمل مطرز بطريقة مريحة.

أما بالنسبة للفضاء الواقع بين المدخل وبين جسم هذا البناء (الكعبة) فيشع منه وشاح مقصب بالذهب يمتد حول كل المنطقة المحيطة "ببيت الله".

وفي هذا الجزء المرتفع من الكعبة تحديداً كان يتم إعلان كل ما يتعلق بالعقيدة الإسلامية. أما بالنسبة للقماش الحريري المحيط بالكعبة فإنه يستخدم في أغلب الوقت نوعاً من الزينة لمسجد أبناء فاطمة، ابنة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كان يتم إعداده وتجهيزه بغية حمله إلى مكة مع قوافل الحجاج بحيث تتم حراسته بوساطة (٤٠٠) حارس.

أما كسوة العام السابق فتصبح آنذاك ملكاً للعربي الذي تكون مهمته متمثلة في القيام بحمل مفاتيح هذه المدينة المقدسة.

نعود الآن إلى الجزء الشرقي من المبنى، حيث نشاهد شيئاً يغوص في جدار الكعبة، عبارة عن هلال من الرخام الأبيض، وهناك كان إبراهيم - حسب روايتهم - يقوم بتأدية صلواته خلال الفترة التي كان يقوم فيها بمساعدة ولده إسماعيل في بناء الكعبة. وفي الركن الجنوبي الشرقي، وعلى ارتفاع أربعة أمتار من سطح الأرض، يقبع الحجر الأسود المعروف، والذي تم عمله بواسطة البنائين بحيث يتكئ بظهره على ذلك الحائط، وقد تم حفظه بداخل وعاء من "الشرائح أو الرقائق المعدنية " ذات القيمة البسيطة.

ويتكون هذا الحجر من قطعة سوداء من الأحجار الإردوازية الرمادية التي تصادفك بالآلاف وسط مجموعة الجبال المحيطة بمنطقة مكة. وقد ادعى أحد الأئمة أن فراغاً كبيراً قد حدث في قلب هذا الحجر، في العصور السابقة، والذي كان مساوياً له، وبقى على اتصال به بإذن الله.

و(يقال): إن كل الأشخاص المتعبدين الذين يقومون بأداء صلواتهم بجوار هذا الفراغ يمكنهم الوثوق من أن صلواتهم هذه سوف تستجاب وتُقبل أيضاً. وعندما صار العرب فيما بعد يداومون على عبادة الأوثان سدَّ الله هذا الفراغ ولم تتم إعادة فتحه بعد ذلك على الإطلاق.

وليس هناك من حجر على وجه الأرض يتم توقيره والإعجاب به بمثل ما يحظى به هذا الحجر. وفي كل مناسبة يحضر فيها أحد المسلمين إلى مكة للقيام بالطواف حول هذا البيت المقدس، يقوم بتقبيله، وإذا لم يكن قادراً على الوصول إليه بسبب الأعداد الهائلة من الناس، فإنه يقوم على الأقل ببذل محاولة للمسه بيده أو الإشارة بها إليه.

والكعبة محاطة برواق دائري الشكل يضم أعمدة برونزية تشكل نوعاً من الشمعدانات، يحتوي كل واحد منها على سبع شموع تتم إضاءتها بصورة منتظمة كل مساء. وإلى الخارج من هذه، وليس ببعيد عن تلك الأعمدة، يوجد كرسي من الرخام الأبيض، وبغرض الصعود إليه يتم استخدام درج مزين، ويتكون من أعمدة صغيرة تم نقشها بعناية فائقة.

وفي كل يوم خميس يقوم كبير أئمة هذا المسجد بالصعود على ذلك الكرسي لكي يقوم بشرح القرآن وتفسيره لأولئك الناس الذين تجمعوا وجلسوا في خشوع وهم يحيطون به من كل جانب.

وفي مواجهة كل واجهة من واجهات الكعبة يشمخ بناء صغير مدعوم بأربعة أعمدة. وتشبه تلك البناءات إلى حد كبير تلك الأبراج الخاصة بالحمام والتي شاهدتها عندما كنت بفرنسا، وهى مخصصة للصلاة لكل المذاهب الأربعة في الإسلام. فالأول منها يخص الشافعية، والثاني للحنابلة، أما الثالث فهو للمالكية، والرابع منها للحنفية.

ويحيط ذلك البهو نفسه شيء آخر، ألا وهو مبنى صغير بقبة تضم قبر السيدة "هاجر"، أم إسماعيل. وعلى امتداد هذا الصرح يمكننا مشاهدة منزل خاص بأحد اليهود، والذي لم يكن راغباً في التخلي أو الجلاء عنه في الوقت الذي تم فيه تشييد الكعبة، وعليه فقد تم تركه كلية دون المساس به، وقد ظل الموظفون المتصلون بالمسجد، إلى يومنا هذا، يستخدمونه لخدماتهم الخاصة بل وتجفيف البسط المصنوعة من الحصير، إضافة إلى الأغطية، والعناية بالمصابيح التي تعد ضرورية من أجل ممارسة الشعائر والطقوس الدينية.

وعموماً فإن آخر المباني المشيدة من الحجر المصقول الناعم، والتي تعلوها إحدى القباب المكسوة بالرخام، تعيد إلى ذاكرتنا العمل الإعجازي الخاص "بزمزم" التي قام الملَك بكشفها لهاجر.

وطبقاً لما ذكره الآخرون من روايات، فإن هاجر كانت مجهدة، عندما وصلت إلى هذا المكان وهي تكاد تموت من العطش، لذلك وضعت إسماعيل على الأرض حتى يكون بمقدورها الذهاب لترى ما إذا كان بمقدورها العثور على قطرات من ذلك السائل الثمين (يقصد الماء).

وعندما كانت عائدة إلى ابنها، يخيم عليها اليأس والحزن بسبب فشلها

في ري ظمئها، عندها شاهدت، وكانت فرحتها شديدة، نبعاً يتدفق منه الماء وهو يداعب قدمي طفلها.

ويقوم عامة الجمهور بالدخول إلى المسجد من خلال ستة عشر باباً رئيساً أذكر أدناه توضيحا لأسمائها:

١ - باب السلام[١].

٢ - باب السلام الصغير.

٣ - باب إبراهيم.

٤ - باب الشريف.

٥ - باب الصفا.

٦ - باب العمرة.

٧ - باب العمرة الصغير.

٨ - باب الزيادة.

٩ - باب الزيادة الصغير.

١٠ - باب الله.

١١ - باب سيد (لعله باب زيت).

١٢ - باب سيد الصغير.

١٣ - باب الباشا.

١٤ - باب علي.

١٥ - باب النبي[٢].

١٦ - باب النبي الصغير.

---

(١) هو باب السلام (التحية). (المؤلف).

(٢) هو باب النبي صلى الله عليه وسلم (المترجم).

وقد لعبت مكة دوراً مهماً للغاية في تاريخ محمد (صلى الله عليه وسلم). ففي هذه المدينة كان ذلك العربي، الذي انطلق مبشراً برسالته، قد نزلت عليه معظم الآيات التي يتكون منها القرآن الكريم. وقد كان سكان تلك المدينة فخورين للغاية لكونهم من القاطنين بالبقعة نفسها التي صارت وجهة يؤمها القاصدون من الأحياء أثناء حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم). وعليه فقد صاروا حتى يومنا هذا ينظرون بكثير من الاحترام والتبجيل لكل شيء يعيد إلى ذاكرتنا بعض تلك المواقف ذات الأهمية الدراماتيكية الشديدة المتصلة برسول الله (صلى الله عليه وسلم).

ففي هذه المدينة رأت عينا محمد النور لأول مرة. لأن الموت قد حرمه من والديه وهو في سن مبكرة، فقد تولى تربيته جده عبد المطلب. وبعد وفاة الأخير انتقل هذا العربي الصغير إلى منزل عمه (يقصد أبا طالب) حيث وجد منه الترحيب والعناية. وقد كانت من مهام عمه هذا أن يقوم بخدمة الكعبة وضيوفها، ومنه استمد بعض الأفكار الأساسية حول المعاملات التجارية الخاصة بالاستبدال والمقايضة التي كانت سائدة وسط مختلف قبائل الجزيرة العربية.

وكان عمه رجلاً ذا سطوة وتأثير شديدين، وكان يستقبل بداره العديد من زعماء العرب المشهورين آنذاك. وقد عمد محمد إلى جعل نفسه مقبولاً لديهم من خلال رصده لميزاتهم وعاداتهم، ولم يكن ذلك المسلك والتصرف ليساوي شيئاً سوى أنه كان بمنزلة وضع قدمه على بداية الطريق القويم، إذ سيقوم لاحقاً وبكل فخر بإبلاغ رسالته الدينية.

وقد قام في فترة ما لاحقاً بالزواج من "خديجة"، وهي أرملة غنية جعلته

مسؤولاً عن تصريف معاملاتها التجارية، وهي من أوائل الناس الذين قاموا فعلاً باعتناق ديانة زوجها.

وقد قام محمد أساساً بالتبشير برسالته الجديدة في مكة. وقد كان ذلك سبباً في أن يجعل منه هدفاً للسخرية والاستهزاء والأذى، كما تعرض كل أصحابه الذين اعتنقوا الإسلام أنفسهم للخطر والأذى. وبعد وفاة عمه سافر إلى الطائف التي استقبل فيها بطريقة مهينة للغاية، فعاد أدراجه راجعاً إلى مسقط رأسه - بمكة - وبعدها وجد لنفسه ملاذاً يلجأ إليه بالمدينة[1] بالإضافة إلى ذلك، فقد تم في هذه الفترة المحددة بالذات، قيام المسلمين بالهجرة التي بدأت آنذاك.

وبعد ثماني سنوات من ذلك عاد إلى مكة فاتحاً، وهناك تلقى البيعة من مواطنيها، ومن القبائل المحيطة بها. وفي الحادي والعشرين من رمضان قام بالبدء في غزوته للطائف، وعندما استولى عليها بالقوة عاد إلى مكة. وبعد قيامه بالاحتفالات والأعياد العادية حول الأماكن المقدسة، غادر إلى المدينة وهي المدينة التي أحبها وألفها كثيراً.

وبعد ذلك بثلاث سنوات غادرها إلى مكة لأداء فريضة الحج في موكب مهيب إضافة إلى أنه كان يتمتع بالخشوع البالغ.

وبما أن سكان مكة كانوا يقطنون في أرض شديدة الحرارة، إضافة إلى امتلائها بالكثبان الرملية الهشة، والتي لم تكن تروى بأي مصدر من مصادر المياه، فلم يجدوا بداً من إهمال الزراعة. أما بالنسبة للحرف الصناعية الخاصة بإنتاج السلع الكمالية أو الرفاهية، فلم يتم نموها وتطورها إلا

(١) أي ما يعني "الهجرة" (المترجم).

بدرجـة قليلة هنـاك، أضف إلى ذلك أنه لم تكن تتـوافـر هنالك حـتى تلك الحرف ذات الصفة الأساسية والضرورية.

كان أهالي مكة في كل الأوقات ينذرون أنفسهم كلية لأعمالهم التجارية، إذ إنها هي وسيلتهم الوحيدة لتعويض عدم زراعة أرضهم القاحلة الجرداء. وقد كان محمد نفسه تاجراً، وقد قام - نيابة عن الأرملة الثرية خديجة - بقيادة إحدى القوافل إلى سوريا وتوجيهها بكثير من الكفاءة والتدبير.

وفيما بعد أصبحت مكة مركزاً لتبادلات تجارية مكثفة، فقد جلبت إلى مستودعاتها كل البضائع المنقولة، بوساطة القوافل من سوريا وبلاد فارس والهند وأواسط إفريقيا ومن هناك كان يتم توزيعها على القبائل العربية المجاورة، بينما اتخذت جدة ميناءاً لها، حيث كانت هذه البضائع توزع على البلدان الزنجية عن طريق استعمال الممرات والطرق المتصلة مع "القصير" أو سواكن أو مدينة "مصوع". وبالنسبة لأوربا فقد كانوا يحسنون استعمال الطرق التي تمر عبر السويس أو القاهرة.

ومع ذلك، وتعويضاً لمكة عن أي فقدان لموقعها الديني، فقد نشطت حركة التجارة بالبواخر العاملة على البحر الأحمر بصورة أساسية.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت جدة بوصفها نقطة التقاء مركزية للسفن القادمة إلى هناك من الهند، أو الخليج الفارسي، أو من السويس، قد نشأت تدريجياً، وشيئاً فشيئاً، في قلب التعاملات التجارية وصارت تمثل مستودعاً لكل من المدينة ومكة بالنسبة للسلع من شتى الأصناف، وعلى وجه خاص السلع الترفيهية المعتاد وصولها إلى هنا من أماكن بعيدة للغاية.

وكان العرب أنفسهم يقومون بشراء جزء منها، سواء أكان ذلك مقابل

مبالغ نقدية أم عن طريق المقايضات، لكن كثيراً منها كان يحفظ، بل شكَّل في أغلب الأحيان الجزء الأكبر، وكان يتم تبادل كل ذلك بين الحجاج القادمين من شتى ومختلف البلدان، والذين كانوا يقومون بنقلها إلى بلدانهم الأصلية أو حتى يقومون ببيعها وهم في طريق رحلتهم عائدين إلى بلدانهم.

كان البدو يقيمون سوقاً في مكة تباع فيه الخيول والإبل، والأكثر من ذلك أنهم كانوا يقومون بتوفير بعض الأشياء والأغراض للسكان مثل الدواجن والكميات اللازمة من العجول والأغنام والماعز، لتلبية متطلباتهم واحتياجاتهم. وكانت الطائف ترسل منتجاتها المشهورة من الفواكه إلى مكة.

بالإضافة إلى ذلك كان من الأشياء التي تحيط بتلك المدينة مباشرة، وعبر الطريق إلى مدينة جدة، والتي يمر بها الشخص في هذه الأنحاء، هي الوادي الخصيب الذي يدعى وادي فاطمة، والذي أعطاه محمد ميراثاً لابنته فاطمة[١] وكانت توجد هناك أربع مزارع فسيحة وواسعة كانت تقع على بعد مسافة ساعة سيراً بالدواب من ذلك الوادي.

وعلى امتداد الطريق المؤدي إلى الطائف كان هنالك عدد كبير من المزارع التي تم إنشاؤها حديثاً، والواحات المزروعة التي كانت تمثل منظراً بهيجاً لأعين المسافرين الذين اعتادوا على سكون الجبال المخيفة وعلى سهول الكثبان الرملية التي تشكل أرض الحجاز، ومن الممكن بكل سهولة زيادة عدد هذه المزارع حيث توجد الأحواض بأعداد قليلة جداً.

بناء عليه فإن كل الكميات الزائدة من المياه تتدفق في السهول والمناطق الريفية، حيث تصبح هناك - بكل بساطة - متوافرة وبكثرة، وخلال موسم

(١) الأنبياء لا يورثون شيئاً. (المترجم).

اشتداد الحرارة تتطور لتشكل مصدراً لانبعاث القذارة والبرك المتعفنة التي تقوم بتلويث الجو، وبالتالي تؤثر سلباً في صحة السكان الموجودين بالمنطقة.

صحيح أنه توجد بوادي فاطمة والمناطق المجاورة له بعض مصادر المياه، لكن من المؤسف أن البدو يقومون بالاحتفاظ بها لأنفسهم، عن طريق إخفائها، ودون أن يكون لهم أدنى وعي باستعمالها كي تكون مصدراً ثابتاً وبدون انقطاع.

وتتشكل تضاريس مكة من أنواع معينة من التربة الرملية التي تكون أحياناً من الرمال الخشنة، وأحياناً أخرى تكون من الصخور الداكنة السوداء. وكل الأودية تحتوي على مصادر مؤقتة للمياه، إضافة إلى هطول الأمطار، وهناك مصادر أخرى تكون مخبأة باستمرار تحت سطح الأرض. وعادة ما تكون الأجزاء السفلى من هذه الأودية والسهول مغطاة بشجيرات صغيرة، إضافة إلى أنواع من النباتات الفقيرة، وفي الوقت الذي نجد ذلك فيه صحيحاً، فإنه يمكن بالتأكيد وبكل سهولة تحويلها إلى أرض خصبة ومثمرة.

وفي كل واحدة من تلك المناطق التي سافرت فيها لاحظت وجود دلائل وعلامات تشير إلى وجود بعض مصادر المياه الجوفية - سواء كان ذلك ناجماً عن لون التربة أو كان بسبب شكل النباتات عموماً.

وإنني أعتقد بأن هذا البلد متى ما قام فعلاً بالتصميم على معالجة تلك المشكلة الخاصة بوضع حد لهذا الجفاف المروع، والذي يؤثر على التربة، فإنه يتوجب عليهم البدء بسبر الأغوار حتى يمكنهم ذلك من الخلوص إلى رسم مخطط توضيحي بشأن هذه المياه الجوفية في محاولة منهم

للاستفادة من هذا السائل (يقصد الماء) وإبرازه إلى السطح بوساطة الآبار الارتوازية أو بوساطة أي نوع آخر من العمليات الميكانيكية.

إن قرب الجبال المنتشرة على امتداد كل المنطقة من الجزيرة العربية توحي لي بمزيد من الثقة في إمكانية نجاح هذا المشروع، والذي سيقوم بضربة واحدة بحل هذه المشكلة ذات الأهمية الحيوية بالنسبة لهم، والتي سيأتي بعدها انتشار الخصوبة في هذه المنطقة ليسير ويتقدم بسرعة طيبة، إذ إنهم يتخلصون بذلك من أكبر الظواهر التي تكبل مسيرتهم نحو التقدم. وبما أن موسم الحج قد اقترب الآن، فقد بدت حماسة المسلمين الطاغية تزداد طيلة الوقت.

وصار الأئمة، "شيوخ العرب" الملحقون بالقوات الرئيسة لبعثة الحج يتقدمون الآن بصلواتهم ودعواتهم بصورة منتظمة، وصار كل الطاقم العسكري الموجود في هذا المخيم بأكمله يحذو حذوهم. فصار كل جندي من هؤلاء الجنود يتجمع في الصباح، وفي تلك اللحظة نفسها التي تشرق فيها الشمس، ومرة أخرى في المساء في لحظة غروب الشمس نفسها، وكأنه يود الاشتراك في عرض عسكري، ويقوم الضباط بتشكيلهم في صفوف تحت إشراف ثلاثة من الرجال الأقوياء البنية والذين يتمتعون بالورع والتقوى.

ويمكنكم (الكلام موجه هنا للقراء) أن تتصوروا بأنفسكم وقوف صف طويل ومستقيم من الجند، في وسط هذه الصحراء الرملية الواسعة والعريضة والمحاطة بالجبال الموحشة الجرداء، وهم يقفون أمام الله سبحانه وتعالى تحت سماء يخيم عليها الظلام مقارنة مع تلك التي تكون

في الصباح، وهم يرتدون زيهم العسكري الموحد ذا اللون الأحمر بصورة جميلة ومؤثرة، وينحنون راكعين ويخرون ساجدين وقد لامست صدورهم الأرض، ثم ينهضون مرة أخرى بكل ما يصاحب ذلك من التنسيق والانتظام والدقة التي يمكن أن نشاهدها في طابور عسكري حي، وتخيلوا أن تكون لشيء واحد لا غير، ألا وهو الصلاة، وتجاه فعل واحد من أفعال القدسية لله وحده، فسوف نلحظ من كل ذلك شيئاً يقوم دون شك، بإيقاظ مشاعر أقل النفوس وأدناها حساسية وشعوراً وتحريكها. ولم أشهد - بالنسبة لي - طيلة حياتي مشهداً مؤثراً وأشد تعبيراً كهذا. وظلت هذه المشاهد والقائمون بها إلى يومنا هذا محفورة بعمق في ذاكرتي[١].

ولقد قابلنا بترحاب العديد من الإنجليز الذين حضروا وهم في طريقهم عائدين من جزر الهند، إضافة إلى بعض ضباط البحرية الذين جنحت سفينتهم فوق إحدى الجزر القريبة من مشارف ميناء سواكن. وكان هؤلاء هم أول طلائع المسيحيين الذين حاولوا المجازفة بالاقتراب من الطريق المؤدي إلى مكة وهم يرتدون الزي الأوربي.

والآن تم وضع مائدة طعام الضيافة تحت مكان ظليل، قام قادة الأفواج بوضع أيديهم على الطعام. أما بالنسبة لنا فقد مارسنا طقوساً خاصة بنا، بينما كان الأتراك، الذين تظاهروا بالموافقة على ما بدر منا من مسلك، لكنهم لم يقلدونا في ذلك، وإنما قاموا بدلاً من ذلك في نهاية الوجبة بأخذ كمية قليلة من السكر المخلوط بالنعناع وقاموا بارتشافها. وقامت فرقتهم الموسيقية بعزف بعض مقطوعات الموسيقى الفرنسية من حين لآخر، وتم

(١) ليست هذه دراما ولا مسرحية ولا غيره. وإنما هي شعيرة دينية تمثل ركناً من أركان الإسلام الخمسة (المترجم).

عزف النشيد الوطني الفرنسي، (المارسيليز) للحملة المتجهة آنذاك إلى مصر بوساطة بعثة جيشنا الفرنسي، حيث عبرت من ضفاف النيل إلى الصحاري الممتدة لمنطقة الحجاز، وقد تضمنت في كل جوانبها ذلك القدر نفسه من الحماس.

ولم يكن هناك شيء أكثر سروراً بالنسبة لنا، طوال مسيرتنا على طريق الحج هذا، مثل ذكرياتنا الخاصة بوطننا الأم. وبمجرد هبوطنا إلى الإسكندرية، حضر إلينا شحاذ عجوز أعمى تقوده امرأة، وطلب منا صدقة، وكان يتحدث بالفرنسية قائلاً: " أيها الناس أعطوني صدقة لأني لم آكل شيئاً على الإطلاق".

أما المرة الثانية فقد كانت في "بحرة" حيث ظللت أسلي نفسي يوماً كاملاً بالنظر إلى زي أحد البدو الذي كانت خصلات شعره الأسود الفاحم ملفوفة "بكوفية"[١] بينما لاحظت عند تدقيق النظر في جرابه الصغير (أو حقيبته) وجود عبارة مكتوبة على أطرافها شارة تحمل كلمة جمهورية فرنسا " Repblique Francaise وفي منتصفها يوجد الرقم "٣٢".

وقد ادعى هذا الشخص أن والده قد ذهب إلى مصر لمواجهة حملة النصارى التي حطت رحالها هناك تحت قيادة السلطان الكبير[٢].

---

(١) هي الكلمة العربية التي تعني "منديل" (المؤلف).

(٢) كلمة "السلطان الكبير" يقال: إن العرب في مصر قد أطلقوا هذا الاسم على "نابليون". (المؤلف). من المعلوم أن أعداداً من سكان الحجاز وعسير قد شكلوا مجاميع من المجاهدين ذهبوا إلى مصر بمجرد سماعهم بالهجوم الفرنسي عليها للمشاركة إلى جانب قوات المقاومة المصرية ضد الغزو الفرنسي وقصة مشاركة عرب الحجاز مذكورة في أكثر من مصدر تاريخي. (المترجم).

ولقد كنت على استعداد لشراء تلك الشارة لنفسي مقابل بعض القروش، لكنني فضلت أن يتم استخدامها لجمع الصدقات من العرب.

ومن المعلوم جيداً أنه لم يكن "لمراد بيه"(١) من خيار سوى السقوط في مصر العليا عن مواجهته للقوات الفرنسية الغازية. وقد تم تعزيزه بفيلق مكون من جنود الاحتياط العرب Francaise en Egypte الذين حضروا إلى هناك من جَدة ومَكة وينَبع وقد أورد أولئك الذين كتبوا كتاب " التاريخ العلمي والعسكري للحملة الفرنسية على مصر Histoire Scienifique et Militaire de Lexpedition " أنهم قد كانوا "مسلحين حتى أسنانهم" "إذ كانوا يحملون بصفة شخصية ثلاثة رماح، وحربة، وخنجراً، إضافة إلى اثنين من مسدسات القربين التي يستخدمها الخيالة" التي تجعلهم في وضع أفضل بمرور الوقت أثناء المعركة.

وفي معركة "سمهود" قام هؤلاء الأعراب بعمل كمين في إحدى القنوات الجافة، ثم قاموا بالهجوم بشدة على لواء "بليارد Belliard ". فقام " ديسيه Desaix" بإرسال "راب Rapp" و"سافاري Savary" للهجوم عليهم، حيث قاموا بدحرهم وإجلائهم. ومع ذلك. فقد كان الأخير قد جُرح بضربة سيف وكان على شفا الموت عندما حضر " Hussar" لإنقاذه وإجلائه.

وقد شاهدت أحياناً، وسط الأعداد الهائلة من الحجيج الذين كانوا في طريقهم إلى مكة وجود بعض الدراويش من الأولياء الصالحين الذين كان الشرقيون يشرفونهم بإطلاق كلمة "ولي" عليهم، لكننا كنا في أوربا نقوم

---

(١) مراد بيه (بك) أحد قادة المماليك البارزين الذين تعرضوا للهزيمة النكراء على يد الفرنسيين بقيادة نابليون بونابرت (المؤلف).

بحبسهم في بيوت "المجانين". وقد كانوا بصفة عامة يرتدون زياً مهلهلاً، والبعض منهم لا يرتدي شيئاً البتة، ومع ذلك فقد كان الشيء الشائع بالنسبة للكثير من هؤلاء هو حمل علم صغير يسيرون به في مؤخرة القافلة.

وفي هذه اللحظة حضر إلى هنا واحد من هؤلاء، وقام بالاقتراب من خيامنا، وقد كان ضريراً، يقوده طفل صغير. وقد كان هذا الشخص ذا لحية رمادية كثيفة، وكان يحمل علماً أخضر بيده اليسرى. وكانت تتدلى من عنقه حقيبة مصنوعة من القماش ومليئة بالقش المقطع في شكل قطع دقيقة.

وقد روى بعض المسلمين الذين كانوا يجلسون بجوارنا رواية مفادها أن هذا هو كل ما يتناوله من طعام. وكان يقوم من وقت لآخر بملء قبضة يده منه ثم ابتلاعها في فمه. وكان البعض منه يتعلق بلحيته لكن البقية الباقية كان يتم مضغها وابتلاعها ولشد ما كانت دهشة الحاضرين كبيرة عندما قام هذا الدرويش بإطلاق صرخة مدوية أوضحت بشكل ظاهر تماماً أنها لم تكن على سبيل الخداع من جانبه.

كانت فترة الحج أخيراً قد شارفت على الانتهاء، وفي هذا الوقت تصبح مكة مركزاً مهماً يهرع إليه العديد من الناس من سكان الأقاليم المجاورة وتصبح بحرة خالية ويهجرها الناس، لذلك قمنا بأنفسنا بتقويض مخيمنا وشرعنا في الانتقال متوجهين صوب مدينة جدة.

شرعنا في المغادرة بعد مغيب الشمس، وكان الطريق بأكمله يعج بالحجاج الذين كانوا يرددون أناشيدهم ويهزجون طوال الطريق في حالة

غلب عليها البؤس وعدم الانتظام. وفي وسط هذا الزحام الشديد تصادف أن ضللنا طريقنا، حيث وجدنا أنفسنا بعد ذلك في وسط البدو القاطنين بهذا السهل الذي يمتد مباشرة حتى ساحل البحر.

وعند توجهنا نحو نساء أولئك البدو تشاغلن بحلب أغنامهن وتوجيه قطعانهن من الضأن مثلهن مثل كل الرعاة من أهل الريف، كما كن يقمن بعمل الزبدة وإعداد القهوة التي كانت من الأشياء المفضلة بشدة بالنسبة للبدو. وإذا كان هذا الجنس اللطيف - كما هو الحال في العديد من البلدان- يقمن بتمييز أنفسهن من خلال أزيائهن المتعددة والمختلفة، فقد كان الحال هنا على العكس تماماً، حيث تجد أن الزي الذي ترتديه النسوة هنا مطابقاً تماماً ولا يختلف أبداً وبأي حال عن الوصف الذي سأقوم بعرضه على النحو التالي:

تقوم مضيفاتنا بارتداء ثوب من الحرير الأزرق المستورد من الهند بأكمام طويلة، ويتدلى حتى يصل إلى ملامسة الأرض، والجزء السفلي منه أحياناً محاط بقطعة من القماش حتى يكون بمقدورها أن تحل محل تلك التي تتمزق نتيجة لجرها وملامستها للأرض. وعندما تقوم بارتدائه داخل المدينة نفسها تكون أقدامها قد توارت واختفت بداخل تنورتها، ومع ذلك فعندما تخرج وتكون على وشك السير خارجه، فهي تقوم برفع هذه المادة إلى أعلى خاصرتها حتى لا تكون سبباً في إبطاء تقدمها أثناء السير إلى الأمام.

أما (بلوزتها) الفوقية فيتم ربطها حول ظهرها بحزام للخاصرة يتكون من أحزمة مزدوجة ورقيقة تشكل مادة هي عبارة عن سيور جلدية صغيرة

مزينة بطريقة فنية تشع بالأربطة البراقة اللامعة والمصنوعة على شكل أختام منقوشة أو تكون فضية.

وهناك قطعة طويلة مماثلة من حيث الشكل، وهي مصنوعة من الصوف الأسود تلف بها رؤوسهن وتتدلى إلى أسفل حتى تصل إلى أفخاذهن. والأجزاء السفلى منها موشاة بقطع مطرزة من اللون نفسه تنتهي بقصاصات طويلة كالأعلام تتحرك في الهواء استجابة لأية هبة تداعبها من هبات النسيم.

أما الجزء الأعلى منها فهو مزود بحاجز من الشرائط المزركشة بالحرير أو الصوف الأحمر الذي يقمن بوصله ببعض الوصلات المعدنية الصغيرة، وتتدلى هذه جميعها إلى أسفل على طول ردائها بالكامل. والآن نصل إلى أصول تلك "الطرحة" الإسبانية الجميلة، التي انتقلت من الصحاري العربية إلى كل من "غرناطة" و "إشبيلية" و "قرطبة"، وقد ظل هذا الزي باقياً هناك حتى بعد إجلاء المغاربة المسلمين Moors الذين اضطروا إلى الفرار من شبه الجزيرة تلك التي كانت قد أصبحت بمنزلة وطنهم الثاني. وتختفي أوجه النساء البدويات تحت "برقع"[1] أحمر يتدلى من كل طرف من طرفيه خصلتان من الحرير تنتهيان بقصاصات عريضة.

أضف إلى ذلك كل الصنادل المصنوعة من جلود الإبل، وسوف يقابلك ذلك الزي الكامل لكل امرأة عربية أثناء تجوالك في كل أرجاء منطقة جدة.

ومن بين النساء البدويات اللائي تحتم عليهن طبيعة عملهن القدوم إلى المدينة، أذكر من بينهن أولئك اللائي يقمن ببيع اللبن والسمن الطازج، فقد

(١) الاسم العربي الذي يطلق على "خمارهن". المؤلف.

اعتدن على القدوم إلى هنا كل يوم، ويبقين هناك حتى إلى ما بعد ميقات الصلاة بقليل حتى يتأكدن بأنهن قد حظين بالوقت الكافي لتصريف بضاعتهن. وبغرض نقلها يقمن باستخدام القرب المصنوعة من جلود الخراف أو الغزلان الصغيرة التي يكون لها شكل الحيوان نفسه.

ويتم ثني رجلي الحيوان الخلفيتين وربطهما بعضهما مع بعض، وتقوم هؤلاء النسوة البدويات ببيع الزيائن مباشرة من هذه "القرب" الجلدية وكأنهن يفعلن ذلك من داخل سلة عميقة.

وفي كل صباح، وبمجرد قيام الحراس بفتح بوابات المدينة بمفاتيحها الخشبية، تتدفق هؤلاء النسوة على المدينة من كل أسوارها، وهن ينادين بأعلى أصواتهن: " لبن ، لبن[١]" ولا تقوم هؤلاء النسوة البدويات ذوات الطاقة الخارقة ببيع ألبانهن وسمنهن فقط، فلقد سمعتهن أحياناً يطلقن أصواتهن "لبن، لبن" في الوقت الذي تكون فيه "قربهن" فارغة تماماً: فهذه الصيحة تعد نوعاً من أنواع التنبيه الملائم لجذب اهتمام نوعية خاصة من السكان اعتدن على خلق علاقات حميمة للغاية معهم.

والشيء المستبعد في هذه الحالة - هو أن يكون هؤلاء النسوة البدويات عاطفيات أكثر من النساء الأخريات في الشرق، وعلى العكس فإذا كان لديهن من سبب يدعوهن أو يقودهن إلى عدم الإخلاص لأزواجهن، فإن ذلك يكون فقط بهدف الحصول على المال، وبسبب ذلك فإنهن ليس لديهن ما يحول دون ذلك من إعجاب عميق بأرباب أسرهن.

وبالتأكيد فإن هؤلاء النسوة لا يكنن احتراماً أو تقديراً لأي شخص آخر

(١) عبارة "لبن ، لبن" تعني النداء المقصود به "الحليب الحليب" (المؤلف).

سوى رجال قبائلهن، وينظرن بازدراء بالغ وسخرية إلى سكان المدينة. وعلى أية حال فإنهم ليس لديهم أية رغبة في الزواج بأي واحدة منهن.

لقد كنت أحياناً أمر بإحدى النسوة البدويات في طرقات جدة،

والتي تكون مضطرة إلى مد يديها للآخرين بحثاً عن الصدقات، من باب لآخر بغرض الحصول على أي شيء يسد رمقها. وعادة ما تكون بصحبتها، وهي في هذا الوضع المأساوي، طفلة صغيرة تكون في سن قابلة للزواج، وجميلة لدرجة تفوق الوصف، وقد تكون هذه البنت الجميلة الجذابة كفيلة بالحصول على الزواج من أغنى رجل من أثرياء جدة، لكنها مع ذلك تفضل خيمتها المصنوعة من جلود الإبل على أفخر منازل الحريم وأفضلها.

وعندما قمت بالاستفسار عما إذا كانت ستكون مولعة بالزواج أكثر من التسول وراء الصدقات ردت علي قائلة: "نحن النساء البدويات نعتقد وبكل صدق بأننا سوف نحط من قدرنا كثيراً في حالة قبولنا الزواج من أحد تجار المدينة هؤلاء ". وهنالك القليل من الناس الذين اشتهروا بالغيرة الفطرية بصورة واسعة، كما هو الحال بالنسبة للعرب.

ومع ذلك، وعندما كانت بائعات اللبن هؤلاء يهرعن عائدات إلى منازلهن في المساء وأكياسهن أكثر امتلاءً بالدراهم مما يمكن أن يكون حصيلة تعاملهن في بيع اللبن، وكان أزواجهن الجشعون راضين تمام الرضى باختزان الأموال في جيوبهم، ويظهرون انطباعاً بجهلهم التام والمطبق فيما يتعلق بالمصدر الذي تم تأمينها من خلاله.

الشيء الضروري والمهم بالنسبة له أن يعني إمكانية تخزين القرش فوق الآخر وتوفيره مما يتيح له الفرصة لشراء جمل أو حتى حمل آخر، وبعد كل

شيء، بخلاف ذلك، لا معنى له بالنسبة له، مادام يقوم بتأمين العائد نفسه أو مصدر الدخل.

ويعد البدو حذرين تجاه أي شيء يعني خداعهم، وهم مُقَتِّرون، وبالإضافة إلى ذلك فهم جشعون ويحبون كنز الأموال. وتبدو سحنتهم داكنة لكنها ذات لون جذاب، كما أن ملامحهم جميلة وتبدو دائمة عادية وعيونهم واسعة وسوداء ومليئة بالتعبير. كما أنهم يتركون شعورهم تسترسل أكثر في طولها، وشعرهم أسود، أما أسنانهم فهي بيضاء وتبدو متفرقة جيداً عن بعضها الآخر.

أما أطرافهم فهي مقسمة بطريقة تثير الإعجاب، وهي توفر صورة من الزهو والقوة والإعجاب بالنفس. وهم يحظون بمظهر ينم عن القوة والنشاط وتحمُّل الشدائد، والفضل في ذلك يعود للنشاطات المستمرة التي يخضعون أنفسهم لها طيلة حياتهم. كما تعد الرغبة الملحة لامتلاك المجوهرات شيئاً عادياً في أوساطهم ، كما هو الحال لكل الشرقيين. ويندر أن يقوموا بعمل وشم على أجسامهم، ومع ذلك فقد شاهدت واحداً أو اثنين منهم قد وضعوا بعض النقاط التجميلية الصغيرة على وجوههم باللون الأزرق، أو ربما على بعض أجزاء جسمهم الأخرى.

عند وصولنا إلى مدينة جدة وجدناها مهجورة مسبقاً. وقد ظهر على الطرقات والشوارع فقط النسوة والأطفال والعجزة. وقد كان من شأن ذلك أن يقود المرء إلى التفكير بأن هذه ما هي إلا بلدة قد تفشى فيها الطاعون، وبناء عليه تم إخلاؤها من السكان. وقد افترق عنا جميع خدمنا إذ ذهبوا للمشاركة في الأعياد ومراسم الحج، ولم يتبق معنا لخدمتنا إلا أحد الرقيق

من الزنوج الصغار التابع للسيد (م. شديفو) وقد عانى سيده كثيراً من الصعاب في سبيل الإبقاء عليه هنا.

ولم يمض وقت طويل على ذلك حينما اضطر لاحقاً إلى تركنا والابتعاد عنا، وبعد الوقوف بعرفات كانت القوات التابعة لهذه البعثة ملزمة بحكم واجباتها الرسمية بالانتقال إلى الطائف للمغادرة من هناك في مواصلة حملتها. وقد كنا نتطلع إلى تمضية كل وقتنا في تلك المدينة الساحرة، والتي يفضلها الأعراب كثيراً. وهي تقع على بعد مسيرة خمسة أيام على ظهور الدواب من مدينة جدة.

لقد تم إصدار كثيراً من الأوامر حول التحرك إلى الطائف، لكن أمراً مخالفاً لذلك كان يتم صدوره فقط قبل لحظات من ذلك. وفي نهاية المطاف، وبعد كل عمليات التأخير والتشكيك هذه، استقبلنا قافلة من الجمال التي صدر الأمر بتشكيلها لقافلتنا. وقمنا بتوديع أصدقائنا في جدة، ومن ثم شرعنا في اتخاذ كل الترتيبات الضرورية لنزع خيامنا وإزالتها.



الفصل السادس

١٧/ مايو/ ١٨٣٤م

اليوم الأول لرحلتنا.

شق مؤذن مسجد حسن طريقه إلى المئذنة الخارجية لكي ينبه المصلين إلى أن وقت صلاة (العصر) قد حان الآن.

ووضع كلتا يديه حول فمه حتى يتمكن من تركيز صوته لكي يوقظ الكسالى من المسلمين الراقدين على أسرَّتهم بمنازل حريمهم، إذ إن الرجال قد درجوا، في هذا الطقس الشديد الحرارة، على أخذ غفوة خفيفة بعد منتصف النهار مباشرة، ولم يكن من عادتهم أن يستيقظوا من نومهم إلا لأغراض الوضوء حتى يكونوا جاهزين لأداء صلواتهم عندما يتم تنبيههم إلى ذلك بوساطة مؤذن المسجد.

وعليه فقد وصلنا إلى الساعة التي يقوم فيها السكان المحليون بالاستعداد لمزاولة نشاطاتهم اليومية العادية، وتدريجاً وشيئاً فشيئاً صارت الشوارع والطرقات - التي كانت إلى وقت قريب خالية وصامتة ومهجورة تعج بالحركة والنشاط، وكان التجار يقومون بتدخين "نارجيلاتهم" في مزاج يتسم بالجدية، ويجلسون وهم يضعون رجلاً على رجل أمام متاجرهم.

أما البدو الذين كانت مهمتهم تنحصر في نقل الرجال والبضائع على السواء إلى داخل البلد، فقد بدؤوا الآن في تحميل جمالهم وهم يستعدون

للمغادرة بناء على أول إشارة تصدر لهم من شيوخهم.

كان الأعراب الذين تلقوا الأوامر من الشريف الأعظم[1] لمرافقتنا إلى الطائف هم في واقع الأمر من أفراد قبيلة قريش العريقة، التي كانت فيما سبق مشهورة بأسلوبها المهذب والراقي في التعامل، إضافة إلى نفوذها الواسع الانتشار. وقد حظيت بالسمعة الطيبة، لأن واحداً من أفرادها قد أنعم الله عليه بحمل الرسالة السماوية وتبليغها، وفي الوقت نفسه وصمت بالعار نتيجة إنكارها ومعارضتها له بمجرد بدئه في تبليغ رسالته.

أما بالنسبة لصحابته فنادراً ما ساورهم أدنى شك على الإطلاق، في ذلك الوقت، فيما يتعلق بالرؤية المستقبلية الثاقبة التي كانت تهدف إليها رسالته. وحسبما يقول المسلمون فقد قام محمد (صلى الله عليه وسلم)، نتيجة لما أحس به من غضب واستفزاز وغبن ناجم عما تعرض له منهم من أذى وضيق، بدعوة ربه بأن ينزل عقاباً إلهياً بقبيلة قريش، وقد أعلن مصرحاً آنذاك، فيما يشبه النبوءة، بأنه سيأتي زمن تكون فيه سلطتهم قد تقوضت، وأن أسرهم وعشائرهم سوف يصيبها التمزق بصورة قسرية، وأنها سوف تتفرق وتتشتت هائمة في كل أرجاء الأرض.

ويبدو أن اللعنة الإلهية قد وصلت بهم في واقع الأمر، وخاصة فيما يتعلق بتلاشي تلك القبيلة القديمة وتفرقها، إذ قامت أعداد كبيرة من القبائل التي تحمل هذا الاسم نفسه بالتفرق في كل أنحاء الجزيرة العربية

(١) الشريف الأعظم أو الشريف الكبير كما يكتبه المؤلف أحياناً هو شريف مكة حينذاك الشريف محمد بن عون الذي لمع نجمه بوصفه واحداً من أشهر أشراف مكة الكبار منذ بداية حكم محمد علي باشا للحجاز، حيث شارك في حروب محمد علي منذ بدايتها إلى نهايتها خاصة الحملات ضد عسير. (المترجم).

المختلفة. وقد صادفنا العديد منها أثناء سيرنا في طريقنا إلى الأمام. وقد كان شيوخهم جميعاً يتميزون بتلك النظرة نفسها المليئة بالغرور والاستقلالية، والتي لم نجد لها حتى اليوم أي نوع من التعليل، إذ إن قدرهم كان يحتم عليهم أن يتحملوا العقاب الذي حل بهم نتيجة الذنوب والخطايا التي ارتكبها آباؤهم.

أما المسلمون، الذين اعتادوا عليهم، فقد كانوا يعاملونهم بوصفهم أنموذجاً للمرتدين الذين لا يستحقون شيئاً سوى الاحتقار والازدراء من قبلهم. وقد كان تعداد هذه القبيلة، التي كانت تقطن ضواحي مكة، لا يزيد على ثلاثمائة من الرجال القادرين على حمل السلاح. وكانوا يعيشون حياة تتسم في غالبها بطابع البداوة والرعي، وقد شاهدنا أعداداً قليلة للغاية من هؤلاء البدو يعملون على جمالهم في نقل البضائع.

أما أولئك الذين رافقونا في هذه الرحلة فقد ظهروا لنا وهم في غاية الفقر. ومع أن أزياءهم التي كانوا يرتدونها تماثل تلك الخاصة بأقرانهم الذين يسكنون الخيام على مشارف مدينة جدة، فإنهم كانوا أقل منهم مالاً بكثير، فقد كان هؤلاء القرشيون لا يمتلكون للدفاع عن أنفسهم أكثر من "جنابية "djambies[(١)] إضافة إلى بعض بنادق الزند القديمة، وهم في أحيان كثيرة، وببساطة، دون أية أسلحة.

وقد عانت قافلتنا من مشقة كبيرة في تشكيل وتنظيم نفسها على الوجه المطلوب. فقد كان كل بدوي يتقدم بشكوى مفادها أن حمولة بعيره أثقل وزناً بكثير من بقية الجمال الأخرى، وقد نشأ عن هذه المسألة العديد من

(١) هي نوع من الخناجر التي يحملها الأعراب على حزام خاصرتهم. (المؤلف).

المناقشات التي لا نهاية لها، والتي كانت سلطات الشيوخ تقف عاجزة عن إيجاد حل لها.

وأخيراً، والفضل يعود في ذلك لتدخل "قواص Kaouas "[1] الحاكم، وأيضاً يعود للكمات العديدة التي سددوها لهم بقبضتهم، والتي تقبلها البعض من أكثر الرجال المشاكسين بنوع من الخنوع والانصياع الذي يماثل طريقة انصياع الفلاح المصري، بحيث تمكنا أخيراً من الاستعداد للمغادرة قبيل منتصف الساعة من مغيب الشمس.

وسيكون صعباً بالتأكيد تكوين أي صورة أو فكرة عن ذلك الجمع الحاشد من الرجال الذين يتكونون من أطراف مختلفة، لكنهم أقل اختلافاً من تلك الأجناس التي كانت تتكون منها مجموعتنا الكبيرة في الواقع. فقد كان فيها اليهودي، والكاثوليكي، إضافة إلى أننا اجتمعنا هنا بالبروتستانتيين والإنجليكانيين، والأقباط والأرمن، والمسلمين والمرتدين ، كما أن البعض منهم لم تكن له أي عقيدة يدين بها في أي شيء مهما كان.

وبالإضافة إلى ذلك التمازج في العقائد المختلفة فقد كان ذلك أيضاً مشوباً بشيء آخر، ألا وهو اختلاف القوميات والأعراق.

وفي الحالات التي كانت تحدث فيها أية ظروف غير عادية تواجه هذا الحشد من الأعراق المختلفة، فقد كان يدور اختلاط كثيف من اللغات المختلفة التي تشبه في تباينها ذلك المتعلق "ببابل القديمة"، فقد كان المرء يسمع تقاطع اللغات بشكل مكثف؛ حيث الفرنسية والإنجليزية، والإيطالية، والمالطية، والكورسيكية، والإغريقية، والبيزنطية، والتركية ثم العربية، والتي

(١) قواص أو كواس ربما يكون اسماً لأصحاب الحاكم أو مرافقيه (المترجم).

تحدث أثراً عاماً يماثل في تشعبه وتباينه ألوان القطعة المرقعة من القماش التي يرتديها المهرج.

بعد إعطاء هذا الوصف المفصل قد يقفز بعض قرائي إلى الخلاصة التي مفادها أننا كنا عبارة عن كوكبة من الأشخاص الذين يعدون بالمئات، وقد يذهب بعض المتفرجين، في واقع الأمر، بعيداً أكثر من ذلك ليرفعوا هذا الرقم إلى بضعة آلاف. ومع ذلك فإن كلا الرقمين خاطئ تماماً، لأننا لم نكن نتعدى في واقع الأمر أكثر من مجموعة من الأفراد.

وقد بدأ سكان جدة ينظرون إلينا بشغف ونحن نسلك طريقنا هذا الذي يقودنا إلى خارج أسوار مدينتهم، وقد كانوا في غاية الفرحة والسرور. وقد كانوا بالتأكيد أكثر لهفة في تخليص أنفسهم من ضيوف كانوا في نظرهم مصدراً للخطر وعدم الارتياح على السواء. ولم يكونوا قادرين على كبح جماح أنفسهم من التعبير عن سعادتهم بذلك وبأصوات مرتفعة، ودون أدنى تقدير أو مراعاة بالنسبة لنا كأجانب.

"الآن تذهب حمولة السفينة من النصارى الذين سوف يرفعون مراسيهم استعداداً للإبحار" قالها أحد البحارة.

"ألا سلط الله عليهم صخرة تصيب مقدمة سفينتهم مباشرة ". أجابه رجل آخر كان يجلس بالقرب منه.

"لقد مضى الكثير من الوقت على هذه المجموعة من المشركين قبل أن يقوموا بفض معسكرهم".

"لقد أمضوا في مدينتنا جدة ستة شهور بالتمام والكمال، ودخلوا في الشهر السابع، وسوف يطلع القمر علينا نحن المؤمنين ببطء في مدينتنا هذه".

"إنه كان يصعب الاعتقاد بأن هذا النبات الغريب الذي زرع في وسطنا قد تجذر بيننا إلى الأبد". إنه كان من الصعب اجتثاثهم مثلهم مثل الحشيش المؤذي بلفظهم علينا سالمين.

"يجب أن نعيش، بكل بساطة، على أمل ألا تقوم الصحراء بتمكينهم منا تماماً بمثلما أحضرتهم لنا البحار".

"البحار، حسنا لا بأس! فذلك شيء يمكن قبوله، فهي، قبل كل شيء، وسيلتهم الخاصة، فهم يطوعونها ويحسنون استعمالها طبقاً لرغبتهم وبصورة خاصة منذ أن قام الشيطان بمساعدتهم على اختراع السفينة البخارية، ومن الناحية الأخرى فإن صحراءنا هي بالتأكيد، وبصورة شاملة، أرض أجدادنا نحن العرب جميعاً. وسوف يتركوننا مع شيء أكثر قليلاً في تفاهته من الحكايات القديمة المتداولة وسط هذه الأحراش الصغيرة العاجزة عن النمو".

"كل ما نتمناه من الله أن تقوم العواصف والأعاصير والأوبئة بنشر العدوى بينهم قبل أن يتمكنوا فعلاً من الوصول إلى وادي فاطمة".

"وأن تقوم الصقور والغربان الجارحة بالتحليق فوق جثثهم والتهامها، أملاً في ألا يتسبب بقاؤها هناك بتلويث تراب مدينة مقدسة أخرى وتنجيسها".

"أتمنى أن يجفف الله كل الآبار والينابيع الواقعة في طريق مسيرتهم، وأتمنى أن يجعل - سبحانه - كل المزروعات المخضرة تذبل وتجف بمجرد أن تطأها أقدامهم".

"كل ذلك جيد وحسن للغاية" صرح أحد التجار "ولكن فقط بالنسبة

لأولئك النفر منكم الذين تغلبت روح التزمت والعداء الشديد فيهم على تطلعهم إلى تحقيق المكاسب، ورغم ذلك فإن متاجر المدينة عموماً سوف تكون هي الخاسرة بالتأكيد نتيجة لرحيلهم هذا".

"وهم يقومون دائماً بالسداد نقداً".

"الأكثر من ذلك أن البنات ذوات الصفة أو الطهارة غير البريئة سوف يتحولن نحو زبون آخر، ولن يحققن إلا مكاسب ضئيلة من الآن فصاعداً".

"سوف يصبحن بالتأكيد أرخص وأقل تكلفة". وهذا أفضل بكثير" إضافة إلى ذلك فإنه لمن الضروري بمكان العيش على أمل أن تقوم فعلاً بمشاهدة نصف دستة منهن يقذف بهن في أعماق البحر حتى نقوم بتلقينهن درساً مستقبلياً في إجراء أي اتصال مع أي أشخاص آخرين بخلافنا نحن المؤمنين الحقيقيين".

"وبعدها سوف تبتهجون معنا أيها الإخوة بتلك النبوءة المخيفة التي مفادها أن الشيخ، الذي تربطنا به صلة القرابة، والموجود في المسجد، لن يجد طريقه للمرور بأية حال، عموماً ليس بعد".

وفي خلال هذا الحديث من اللعنات والملاحظات الساخرة والذي كانت نبرة تهديد واحدة من جانبنا كافية لوضع حد له، فقد لفت نظري وانتباهي تحديداً وبالتأكيد الانفعال الأخير والغريب من نوعه من بين كل الآخرين.

"يا محمد" استفسرت خادمي" يبدو أن علماء جدة قد شرفونا كثيراً باستعدادهم للخوض في شؤوننا يوم الجمعة".

"صحيح، فقد تم الإفصاح بكل ذلك بوساطة ذلك الشخص ذي اللحية الرمادية والعمامة البيضاء والذي أكد على مصداقية ذلك".

"يمكننا أن نتصور جيداً من كل ذلك أننا ما زلنا بعيدين كل البعد، في نظر فقهائكم، عن امتلاك أية صفة من صفات القدسية".

"في حالة عثورهم على أية وسيلة شريفة للتخلص منكم، فهم يعتقدون بالتأكيد أنهم بهذا يسبغون على أنفسهم مباركة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ورضوانه".

"وبالنسبة لك فهل ترى أنهم محقون في أفكارهم هذه؟".

"الشيوخ يوجهونهم بالعيش على هذا الأمل، ومع ذلك فهم يبدون لي وهم غير منصفين في هذا الأمر".

وبطبيعة الحال فإن هنالك بعض الرجال وسطكم يستحقون إحراقهم بالنار مع الشيطان، وفي مقابل ذلك أيضاً، فإن هنالك العديد من الأشخاص وسط مجموعتكم لا ينقصهم شيء سوى النطق فقط لا غير بشهادة "لا إله إلا الله" [1] حتى يصيروا بذلك من المؤمنين الصادقين والمخلصين في إيمانهم".

"ولكن قل لي ما هي تلك النبوءة التي تدعوهم إلى الإصرار على تهديدنا واعتبارنا خطراً على المؤمنين في جدة؟" "تلك هي الحقائق: يعتقد سكان تلك المدينة، ويشاركهم في ذلك كل المسلمين بالحجاز، أنه سيأتي يوم من الأيام يقوم فيه النصارى بالنزول في تلك البقعة بأعداد كبيرة وهائلة تتيح لهم أن يصبحوا أقوياء بما فيه الكفاية لكي يتمكنوا من تشكيل حلقة بشرية مطولة تمتد على جميع الطريق من جدة إلى مكة. بعدها سوف يقوم البعض منكم أنتم الكفار، في داخل المدينة المقدسة، بشغل أنفسهم، وبنشاط

---

(١) منقولة من شهادة الإيمان بالإسلام " لا إله إلا الله ". (المؤلف).

متزايد، في هدم الكعبة، في الوقت نفسه الذي يقوم فيه رفاقهم الآخرون بمناولة أحجار الكعبة للآخرين منهم، ثم يقذفون بها في أعماق البحر".

"بإمكانك أن يهدأ بالك، في الوقت الراهن، وأن تظل في أمان واطمئنان مطلق، إننا لا نمتلك ببساطة تلك القوة الضرورية واللازمة لتنفيذ هذا التهديد المرعب، أضف إلى ذلك أننا نحن الأوربيين، وفي هذه الأوقات بالذات، لدينا من المثل والقيم ما يحضنا على احترام المعتقدات الدينية لكل الأشخاص الآخرين أينما كانوا".

"نعم، قد يبدو ذلك مجدياً ومنطقياً تماماً، لكن المسلمين وببساطة لا يصدقون ذلك، وهم يعلمون فقط أنكم تمتلكون سفناً حربية قد يكون بمقدورها أن تقوم في خلال لحظات بالإلقاء بآلاف الحشود من الجند على أراضينا المقدسة، إذ إن هنالك زعماً أو اعتقاداً واسع الانتشار مفاده أن بحر القلزم"(١) له اتصال مباشر مع بحاركم نفسها - وهو تطور لم يكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالتأكيد ليسمح بالإعلان عنه إلا بعد الرجوع إلى ربه فهو وحده ذو القدرة والجبروت، وإنه ليس من المناسب أو المعقول أن يقوم أقل شخص أو أحقر منا نحن المؤمنين بتوجيه أدنى نوع من الإنكار أو الاستهجان لما نص عليه صراحة".

كانت قافلتنا الصغيرة تتكون من (٢٨) بعيراً يقودها خمسة عشر رجلاً من البدو. أما بالنسبة لحراستنا فقد كان لدينا بعض الفرسان الأتراك من القوات غير النظامية والذين زودنا الباشا بهم. ويبدو أن هذه الظروف قد أثبتت أنها أكثر إزعاجاً لشيخ قريش الذي كان الآن يبحث وسطنا عن

---

(١) يطلق العرب عبارة " بحر القلزم " على البحر الأحمر. (المؤلف).

شخص يستطيع البوح له بما يجيش في داخله من عدم الرضى.

وبما أنني كنت ملتحياً فقد وجد فيَّ ضالته المنشودة أكثر من غيري من الآخرين، فاقترب مني هذا الشيخ العجوز حيث بادرني قائلاً:

"هل تعتقد حقاً أن أبناء قريش تنقصهم الجرأة أو الإخلاص؟". "حتى الوقت الراهن ليس هنالك من شيء على الإطلاق يقودني إلى التشكك في أمانتكم وإخلاصكم".

"هل يمكن أن يكون ذلك لمجرد الاعتقاد بأن قبيلتنا التي كانت فيما مضى قوية، ثم تناقصت أعدادها الآن لتصبح فقط لا تتعدى بضعة مئات من الرجال المحاربين، سبباً في ترك الانطباع لديكم بأننا سنكون أكثر رغبة في التنصل من التزاماتنا؟". "كلا ليس الأمر كذلك على الإطلاق. ولكن عد إلى النقطة موضوع الحديث. ماذا تريد أن تستخلص من وراء ذلك؟". "جيد جداً، فما دام أنه ليس لديكم أي مؤشر يوحي بعدم الثقة، فكيف حدث إذن أن ألححتم على أحمد باشا بتزويدكم بحرس من الأتراك؟ ".

"لم يحدث مطلقاً أن طرحنا أي طلب من هذا القبيل، فنحن نعتمد كلية على الكلمة التي أقسمتم عليها أنتم البدو، ونحن على يقين تام بأنه ليس لدينا ما نخشاه مطلقا ما دمتم أنتم إلى جانبنا".

"لقد أقسمنا نحن جميعاً يميننا المغلظة والملزمة بأن نقودكم على طول الطريق حتى الطائف، وسوف تصلون إلى هناك بالتأكيد وأنتم سالمون آمنون، ومع ذلك فلو حدث أن هوجمنا على الطريق، فسيكون الأتراك مسؤولين بصفة شخصية بالدفاع عن أنفسهم وحدهم. ولا يمكن أن يكون هنالك أي سلام أو هدنة بين أي من العثمانيين وأي واحد منا. نحن قليلو

العدد إلى حد ما اليوم، ذلك صحيح تماماً، لكن الأبناء يرثون سمعة الشجاعة والإقدام عن آبائهم. فإذا افترضت أن اغلب النجوم قد اختفت عن السماء، فإن البقية الباقية لن تكون أقل تألقاً".

بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث على هذا النحو كانت القافلة قد تقدمت في سيرها إلى الأمام في سرعة منتظمة، وقد كانت أقدام كل بعير تتحرك في تناغم مع دقة انضباط عداد السرعة.

وقد كان ذلك دقيقاً لدرجة أنك إن تخيلت وجود أداة بمقدورها تزويدك بالواقع الفعلي لخطواتها، فسيكون بمقدورك في هذه الحالة أن تستغني عن حيازتك لأية ساعة خلال هذه الرحلة. وتقوم كل هذه الحيوانات بمتابعة كل منها الآخر في شريط واحد، وتكون مقرونة كل منها بالآخر من الخلف بواسطة حبل مصنوع من سعف أشجار النخيل. ويكون أول واحد منها دائماً تحت قيادة رجل يمسك في يديه بالرسن.

وقد يحدث أحياناً أن يتم وضع عجوز أحمق على رأس هذه المهمة الخاصة، ويبدو واضحاً قيامه بها بطريقة تكون مرضية بالنسبة للجميع.

ويجب أن نعلن ذلك دون أدنى تحفظ، فيما يتعلق بإجراء المقارنة بين الأحمق والبدو، وإنما الأمر فقط من أجل تأسيس الاحترام المطلق بالنسبة للحقيقة المجردة.

وبمقدوري أن أكف نادراً عن إجراء المقارنة بين قافلة شبيهة بقافلتنا والتي شرعت في رحلتها، وبين المركب التي تغادر الميناء من جانب آخر. ففي الحالة الأخيرة، وحتى تلك اللحظة الأخيرة التي يتم فيها وضع كل شيء في وضعه السليم على حاجز السفينة وفوق الجسر، فإن حركتها تبدو

مهتزة ومتأرجحة، ويحدث كل هذا بسبب أن جهود الطاقم تكون في بادئ الأمر موجهة نحو التركيز على مجموعة متعددة من المهام المختلفة.

أما في بدء نزول السفينة في الماء، فيحدث ذلك في اندفاع سريع، بحيث تكون الزوارق الصغيرة معلقة حول جنبات الباخرة، وتكون المراسي غير ملفوفة. أما الأسلاك فتكون ملتفة حول منتصف حبال المرساة، والجنازير قد تم ترتيبها بانتظام في مؤخرة السفينة. أما أمتعة الركاب فيتم توزيعها على الكابينة الخاصة بكل واحد منهم.

وشيئاً فشيئاً يتم نشر الأشرعة العليا بكامل عرضها، وتتدلى الآن كل أشرعة الصواري الأمامية لتستقر على العمود الرئيس الضخم المنبثق من مقدمة السفينة، والآن تكون أقمشة الأشرعة مجعدة، وتكون السفينة، التي تم تحميلها بكامل أشرعتها، قد انطلقت دون أدنى تردد في مسيرتها قدماً باتجاه النقطة المحددة حسبما يتم توجيهها إليها بواسطة رجل الدفة.

مرة أخرى نعود إلى حالتنا هنا، وبدلاً من ذلك البحر، حيث نحن هنا في وسط الرمال التي تكون أحياناً متحركة كما تتحرك أمواج المحيط، وسفينتنا هنا هي حيوان من أربع أرجل، وتقوم بإحداث قدر من المغص ليس بالقليل، بصرف النظر عن كيفية عدم القابلية الذي يمكن أن يصيب معدة أي شخص في الظروف العادية.

دعنا نلقي نظرة على أحد البدو، الذي يحتاج لكل جزء من التأمل كما هو الحال بالنسبة للبحار، وهو يبدأ بكل عناية في ربط "قربته" بعد أن تكون قد امتلأت تماماً بالماء، وبعدها يقوم بإعادة ترتيب الأحمال التي ما زالت موزعة بطريقة خاطئة، ثم يقوم بالتقاط الحبال الواقعة على الأرض والتي يقوم بربطها، وكأنها حزمة ضخمة، إلى السرج الأساسي، والذي

يكون إما مرفوعاً أو ساقطاً حسب التركيز الناجم عن الاختلافات الظاهرة في "موقع الأرض".

ويقوم هذا الرفيق بربط كيس أو مِزْوَد على عنق بعيره يكون قادراً عن طريقه على تجميع الشعيرات المتساقطة من صوف البعير، وبعد التقاطه لها، وتلك الشعيرات هي التي يقوم الجمل، في كل الاحتمالات، بفقدانها أثناء سيره على الطريق[١]، ويقوم رفيق آخر بتثبيت سريره بلحافه العادي والذي يود أن يتكئ عليه برأسه أثناء الليل.

وبمجرد أن تنتهي كل هذه الجلبة من الرواح والمجيء يقوم الشيوخ بالظهور جيئة وذهاباً وهم يراقبون كل الترتيبات بدءاً من طليعة الحملة، وكل رجل يسير بجانب بعيره وفي محاذاته، أو يصعد على أردافه الخلفية. وتتوقف هذه الإجراءات المنتظمة الخاصة بالسير قدماً على التجمع الكامل، ويمكن أن تصل إلى أعلى حد لها عند الوصول إلى المكان المحدد الذي سبق التخطيط له مقدماً ليكون بمنزلة نقطة توقف.

وفي الجزيرة العربية يكون كل شخص معتاداً، خلال موسم اشتداد الحرارة، على أن يبدأ بالتحرك في رحلته عند الساعة الرابعة مساء، وبالتالي السير قدماً طوال الليل. وتكون نقاط التوقف قد تم تحديدها مسبقاً، وبطريقة تجعل التوقف عندها جميعاً يتم بعد ساعتين من طلوع الشمس، وعليه تقوم الجمال بقطع هذا الجزء من المسيرة في فترة لا تقل عن مرحلة واحدة.

---

(١) عندما يكون العرب في رحلة من هذا النوع، فإنهم يحتفظون دائماً بكيس صغير يصبون فيه الصوف المتساقط من الجمال خلال عبورها، وعندما يصلون إلى ديارهم يقومون بتسليمه إلى زوجاتهم اللائي يقمن باستخدامه في غزل خيام الشعر، أو في أية أقمشة يغزلنها لاستعمالهن الخاص. (المؤلف).

بوصولنا إلى أقصى طرف من السهل الذي بنيت عليه مدينة جدة شاهدت تلك المدينة وهي شبه مظلمة في وسط بصيص من ذلك الضوء الذي تحف به الغيوم الكاذبة الناشئة عن حمرة الشفق عند المغيب والتي تكون، لسوء الحظ، قصيرة للغاية في تلك المناطق ذات المناخ المداري - أي في تلك الفترة ما بين ضوء النهار ومجيء الليل - إذ يتميز الأول منهما بالضوء وشدة الحرارة، والآخر بالظلام والنقاء، وما زلت أستنشق هنا مرة أخرى تلك النسمات العليلة الهادئة القادمة من البحر، الذي سوف أكون معزولاً وبعيداً عنه لفترة طويلة.

وقد كان ما تبقى من ضوء النهار في طريقه إلى الانحسار والزوال بمضي كل لحظة من الوقت، وسرعان ما لم يتبق شيء ظاهر للعيان من تلك المدينة التجارية سوى تلك المنارات المضاءة التي كانت تنتصب بصورة رأسية بارزة فيما يشبه صواري السفن الراسية على الميناء.

أما بالنسبة لمساري، فقد جعلني أقترب سريعاً من سفوح الجبال، وكان الانحراف عن طريقنا يظهرها أمام عيني وكأنها بمنزلة قماش أسود لمسرحية ما، مبعداً عن ناظري كل تلك الصورة التي كان مجيء الليل على وشك أن يقوم بمزجها قريباً مع إجمالي الشكل المقوس للسماء. سوف لن أقوم بسرد أية تفاصيل عن الطريق بين جدة وبحرة، إذ إن قرائي قد اعتادوا جيداً عليه. وسوف أمتنع عن الحديث عن المقاهي التي كان المتلكئون من أفراد قافلتنا يتوقفون عندها لشرب الـ "موكا Moka"[1]

(١) ربما يقصد المؤلف "بالموكا" القهوة حيث اشتهرت في أوربا القهوة اليمنية المستوردة عن طريق "المخا" أكبر وأهم ميناء لتصدير القهوة على البحر الأحمر إلى كل أنحاء العالم فأصبحت القهوة تعرف "بالموكا" نسبة إلى ذلك الميناء. (المترجم).

وللاستماع إلى بعض الفواصل الصغيرة من الأغاني الشرقية، والتي غالباً ما يقومون لاحقاً بتركها بتباطؤ شديد، وإلا فقدوا أثر رفاقهم. وكم هو صعب أن نتخيل لماذا يسمحون لأنفسهم بأن تسحرهم قفشات المغنين ليكتشفوا فقط بأنهم قد تخلفوا كثيراً وراء أولئك الذين يعانون من الكآبة وقلوبهم مثقلة بالأسف والندم! مع ذلك ما هو السرور الذي يكمن هناك والذي لا يسبقه أو يعقبه الحزن والأسف؟ وما دام أنه لا أحد منا لديه القدرة على تخليص نفسه من تلك النتيجة الحتمية التي لا مفر منها، فدعنا إذن نتصدى لهذا الالتزام دون اعتراض، ودعنا نحكم عقولنا ونصمم للخضوع والاستجابة له.

بعد مغادرة بحرة لاحظنا امتداد القمتين الجبليتين، اللتين تشكلان الوادي، إلى الأمام وفي الاتجاه نفسه، وأنهما تقتربان بعضهما من بعض ببطء وتمهل، وبطريقة تدريجية. وكانت هناك مسافة معينة من موقع المخيم المصري، كما أوضحها لنا البدو، مقامة على رقعة من الأرض المرتفعة ارتفاعا معقولا، حيث كانت توجد هناك بقايا إحدى القلاع التي تم تشييدها، أو كما يقولون بواسطة "أبو زيد"[١].

وخلال العبور من هذه النقطة يقوم الحجاج بالتقاط بعض الحجارة المعينة التي يعتقدون جازمين بأنها سوف تريحهم وترفع عن كاهلهم ما ارتكبوه من خطايا وذنوب، وبالتالي يصلون إلى مكة وقد تم تطهيرهم من كل الذنوب العالقة بشخصياتهم[٢]. وتعد هذه مرتبطة بتحول رسول الأغنام

---

(١) يقصد المؤلف بأبي زيد هنا أبا زيد الهلالي إذ تنسب إليه العرب كل بناء قديم يجهلون بداية نشأته أو تاريخ بنائه. (المترجم).

(٢) تضم كتل الحجارة هذه أحياناً أنواعاً من الشكل المخروطي الذي يبلغ ارتفاعه (٢٠ - ٣٠) قدماً. (المؤلف).

في القصص القديمة لبني إسرائيل، وتقوم بعض القبائل هنا حتى الآن بالحفاظ على تقاليد العصور القديمة وعاداتها دون أدنى تغيير يذكر.

وبعد مسيرة نصف ساعة أخرى اختفت سماء بحرة خلف خط من الشجيرات الصغيرة فجأة، وصار طريقنا مثقلاً بالرمال، وقد انتشرت هناك لفيف من الشجيرات، لكننا مررنا بقرية مكونة من أربع أو خمس مجموعات من المنازل الكثيرة إلى حد معقول. وكان اسم تلك القرية "حدة"، وهي عادة ما تستخدم نقطة توقف بالنسبة للقوافل القادمة من جدة والمتوغلة نحو الداخل.

ويعود نشوء مدينة "حدة" مدينة في نشأتها للحجاج وأيضاً لقربها من وادي فاطمة. فقد وجدوا نبعاً عند سطح أحد التلال المجاورة، لكن هذه الينابيع أثبتت جميعها بأن مياهها غير صالحة للشرب، ومع ذلك، وعند التقدم إلى ما وراء ذلك الخط الأول من الجبال، فقد اكتشفوا بعض مصادر المياه التي لم تكن مالحة بدرجة كبيرة، مع أنني شخصياً قد وجدت أن طعمها يخلو من أية نكهة تقريباً، ويقوم "القهوجية"[١] باقتصار استعمالها على السواح القادمين إلى منطقتهم.

إضافة إلى ذلك، فإن أولئك الذين يتمتعون بقليل من الحظ في حياتهم قد دأبوا على شربها، وفيما يتعلق بهذا الشأن فإن كل بلدان الدنيا قد درجت على التصرف مثل بعضها البعض بطريقة أو بأخرى.

لقد كانت الأمسية السابقة شديدة الحرارة، وقد كانت بالنسبة لنا نذير نحس، إذ بدأت الرحلة في اليوم التالي.

(١) هم أصحاب المقاهي، التي يطلق على الواحدة منها عبارة "القهوة". (المؤلف).

كانت الرياح تزمجر وهي محملة بالأتربة، وقد وصل مقياس الحرارة إلى حوالي ٣٨ درجة تحت خيامنا. وقد كانت ظروف الطقس حتى حلول الظهيرة محتملة تقريباً، لكن الرياح التي ازدادت حدة بعد ذلك قد تسببت في انهيار خيامنا المنتشرة في جنبات الوادي، تحت ضغطها. وقد كان الهواء من حولنا مليئاً بالأتربة بصورة ضبابية قاتمة، وقد توارت الجبال المجاورة عن الأنظار وبكل بساطة، وقام كل واحد منا بحبس نفسه داخل خيمته وهو يبحث عن الملاذ تحت الناموسية.

ولم تعد الجمال، وهي المهيأة للعيش في تلك الصحراء التي تعودت على تحمل هذه الظروف الطبيعية أكثر من أصحابها، قادرة على منع نفسها من نفض الغبار المتراكم على أنوفها بقوة. وقد انكمشت أطراف أجسامها إلى الداخل. وكنت أشاهدها من بعيد وهي تقاوم هبوب ذلك الإعصار المزمجر، وقد توارت أرجلها عن الأنظار وسط الهبات المتوالية لتلك الأتربة الكثيفة. وقد كانت أجسامها الفعلية ورقابها المقوسة هي الأشياء الوحيدة التي يمكن رؤيتها.

ومع ذلك فقد كان بمقدورنا أن نشاهدها وهي تتحرك إلى الأمام، مع أن الله وحده هو الذي يعلم كيف يمكن للشخص أن يتخيل ما هي تلك القوة الخفية التي بمقدورها الحفاظ على تلك الحركة الثابتة والمعتدلة لتلك الأشباح الغريبة.

كان هناك ثلاثة مسارات أو طرق منفصلة يمكننا أن نشق طريقنا عبرها من البحر حتى الطائف[١]. الأول منها يمر بقرية "حدة" ومكة - وكان هذا

(١) ينطق العرب هذه العبارة دون تميز: طيفه، طيف أو طائف. (المؤلف).

الطريق قد تم تخصيصه فقط للمسلمين. أما الثاني فهو يقودك صوب وادي فاطمة، وبالرغم من طوله، فقد كانت القوافل تحبذه، لأن جباله أقل من الطريق الأول. أما الطريق الثالث فقد كان يغادر "حدة" متوجهاً إلى الجنوب، ويستمر حتى يصل إلى "وادي الليمون"، أي ذلك الوادي الذي تنمو فيه أشجار الحمضيات، وفي حالة استمرار الفصل الذي تشتد فيه الحرارة، فقد كنا نحبذه على أساس أنه الوحيد المناسب لنا نحن النصارى. وكان الطريق الذي يضم وادي فاطمة يتيح الدخول إلى الأراضي المقدسة. وبما أننا رسمياً بصحبة الجيش فقد تسلمنا تصريحاً خاصاً يسمح لنا بالسفر عبر تلك المنطقة.

١٨ / مايو

اليوم الثاني لرحلتنا

كانت العاصفة الترابية قد خفت بحلول وقت صلاة العصر(١) وعليه فقد كان بمقدورنا مشاهدة الأعمدة المنتصبة من أشجار النخيل التي كانت بالنسبة لنا دليل على الدخول في وادي فاطمة. وحتى لو افترضنا أن علينا نحن الأوربيين حظراً من أن نهرع للجلوس تحت ظلال تلك الأشجار التي حرمنا منها لفترة طويلة، فالأمر سيان بالنسبة لنا، إذ سيكون ذلك شبيهاً بحرمان شحاذ جائع من وضع أصابعه داخل قدر يغلي وهو مليء بالمكرونة!

والآن وخلال قيام الأعراب بتحميل جمالهم انطلقنا مسرعين قبل تحركهم حيث قامت خيولنا، لمدة بلغت حوالي نصف الساعة بعد ذلك، بقضم فروع أشجار الوادي بأسنانها الحادة.

(١) وهي تقريباً تحين بعد ثلاث ساعات من منتصف النهار. (المؤلف).

استلقينا أرضاً عند جذوع أشجار النخيل تلك، وإنني لأعترف، بالنسبة لشخصي على أية حال، بأنني كنت أفضل آنذاك أن أستريح تحت ظل إحدى أشجار البلوط أو السنديان، أو إحدى أشجار الدليب أو إحدى أشجار الدرداء أو الرايتنج الصغيرة. وقد بدا أن هناك جاذبية سحرية تشد المرء إلى الوراء وبصورة مطلقة تجاه مسقط رأسه عندما كان يمرح جذلاً وسط عبير الأشجار التي كانت تنتشر على امتداد السياجات المحيطة بالحقول التي أمضى المرء طفولته فيها.

ويمكنك أن تتخيل للحظة واحدة، أنك قد عدت مرة أخرى وسط مجموعة أصدقائك الحميمين وأنت تمارس معهم هوايتك المفضلة في تسلق الجبال أو التجول على ضفاف الأنهار التي تقوم بغسل أقدام كل واحد منكم. وقياساً على ذلك ومن وجهة نظري فإن شجرة النخيل بوضعها هذا لن توفر لي ترحيباً ساراً ومبهجاً كما كنت أنشده.

ومع ذلك وحتى في الوقت الراهن عندما عدت إلى فرنسا فقد كنت أحدق النظر في فاكهتها المتدلية على أطراف الشوارع العريضة التي تكتنفها الأشجار، أو أنظر إلى الفروع الصغيرة لإحدى أشجار النخيل الصغيرة المرسومة في لوحة "بمتحف اللوفر"، وكنت أجد نفسي وقد عادت لي الذكريات مرة أخرى، في الوقت نفسه، إلى قلب طريقة الحياة الشرقية ووسطها، بالطبع أنا أدرك أن هذا غير عادل أو منصف، ولهذا فإنه يجب علي أن أطلب منهم بكل لطف ورجاء أن يمنوا علي بعطفهم وسماحتهم.

مع ذلك فقد كانت الحقيقة هي أن أكثر الأشياء المرغوبة التي عثرت عليها القافلة كانت هي الإمدادات الوفيرة من المياه العذبة التي كانت تتدفق

من سفح التلة الجبلية كما تتدفق من إحدى القنوات الفرعية، مكونة نهراً حقيقياً لا يلبث أن يختفي عميقاً داخل الرمال بعد فترة وجيزة، وبعد أن يكون ذا فائدة قصوى في ري مزروعات البدو.

وقد كانت هذه المياه صافية للغاية كصفاء البلور الذي يماثل مياه الألب نفسها. ومع ذلك فبمجرد أن تلقي يديك فيها تجد على الفور أنها تبادرك بإحساس غير سار، إذ تكتشف أنها أشد حرارة من درجة حرارة الجو المحيط بك، ولكنها تظل - مع ذلك وفي الحقيقة - ذات جودة من الدرجة الأولى. وهي تقوم بترسيب طبقة طينية سوداء من الطمي في قاع هذا المجرى المائي وهي عبارة عن لون الصودا المشابه لتلك الموجودة في السلسلة الجبلية التي جاءت منها. وهذا هو بالتأكيد مصدر المياه العذبة نفسه، التي كانت في العصور السابقة، تصل إلى جدة بوساطة إحدى القنوات التي لم يعد هنالك أي أثر واضح لمخلفاتها يمكن التعرف عليه في خلال الوقت الراهن.

"أيها السادة" صاح أحد المسافرين معنا لاشك أنه قد مضت حتى الآن ساعتان منذ أن غادرنا " حدة "، وعليه كان من المفترض أن تكون قافلتنا قد لحقت بنا الآن؟.

"لا تكن قلقاً بشأنها قط "أجاب أحد الرجال الذين كانوا بجانبه، "لقد تعودت جيداً على الطريق الذي أمامنا كتعودي على الطريق من "بيزا" حتى "فلورنسا"[1]، وإذا تطلبت الظروف ذلك فإن بمقدوري أن أكون أكثر كفاءة لكي أتولى مهمة العمل دليلاً بالنسبة لكم".

(١) مدينتان إيطاليتان معروفتان. (المترجم).

"دعنا الآن نواصل سفرنا في طراوة هذه الأشجار، التي تعد همسات ناعمة للربيع. فكل ذلك ما هو إلا متعة ظريفة! وأنا شخصياً لا أجد غرابة في أن محمداً[1] لم يكن لديه أي شيء مغر أكثر من هذا ليعد به المؤمنين الأوفياء الذين تم اصطفاؤهم والذين هم على وشك الصعود إلى جنات عدن".

كان الشخص الذي تحدثنا عنه قبل قليل هو أحد الرجال الفرنسيين، وكان قد ولد تحت شمس منتصف النهار. وقد كان يستنشق كل تلك المتعة بكل أحاسيسه ومشاعره، ولتفضيله عدم مغادرة هذا الوادي الجميل، كان على استعداد وبكل سرور للموافقة على أن يضل طريقه من أجل البقاء، وبالتالي المخاطرة بأن يُساق أولاً إلى مكة من أجل أن يقوموا بعد ذلك بختانه عند قاعدة الكعبة.

"يا صديقي العزيز" قال الإيطالي الآن، وهو رجل بدا أن لديه، دون شك، فكرة جيدة عن الأشياء الكلاسيكية التقليدية. "لن نسمح لأنفسنا، بكل بساطة، كي ننعم بهذه الراحة كما هو شأن الحنابلة خارج الكعبة، وضع في اعتبارك أن لدينا القليل من المؤن التي تكفينا حتى الوصول إلى الطائف، وإنني شخصياً لست مستعداً لأن أموت من الجوع على الطريق".

لم يثر هذا التعليق عن خبرة القرطاجي أي مثار للضحك في أوساطنا على الإطلاق، فلم يتعود الأوربيون الذين يعيشون هناك في الشرق على إقحام أنفسهم في الأحاديث الصغيرة الخاصة بالمسائل التقليدية، مع ذلك

---

(١) يقصد النبي محمداً صلى الله عليه وسلم، وجنات عدن التي وُعِدَ بها المؤمنون وما بها من ظل ظليل وعيون وفواكه. (المترجم).

دعنا نؤمل في أن يصل أولئك الذين يفضلون ذلك، وفي الوقت المناسب إلى هناك.

"علي" نادى صديقنا الإيطالي خادمه، "اصعد إلى قمة هذه التلة الجبلية لترى ما إذا كان بمقدورك أن تشاهد أثراً لقافلتنا".

عاد الخادم المصري بعد لحظات وأفاد بكل وضوح أنه لم يتمكن من اكتشاف أي أثر لها على الإطلاق، وقد بدا أولئك المسافرون الذين نصبوا أنفسهم وسطنا أدلاء وهم أكثر فزعاً من الآخرين نتيجة لهذا الخبر. وقد لاحظت ذلك فوراً، واعتبرته طالعاً سيئاً للغاية.

لم يكن لدينا بالتأكيد دقيقة واحدة نضيعها، وعليه صعدنا على دوابنا لكي نهرع سريعاً باتجاه وادي الليمون. ولكن الظلام هبط علينا سريعاً، وكان حتى ضوء الشفق قد خبأ، وما زلنا لم نتمكن بعد من العثور على أي أثر لقافلتنا. وبدا البعض من مجموعتنا يواصلون رحلتهم في عدة اتجاهات مختلفة، ليكون ذلك بمثابة نوع من الاستطلاع والاستكشاف، لكن محاولاتهم، لسوء الحظ لم يحالفها التوفيق.

وقد وجدنا أنفسنا الآن نغوص في أرض رملية تكسوها بصفة عامة الأشجار المخضرة والطويلة نوعاً ما، وكان دليلنا يحثنا بإصرار على مواصلة الرواح والمجيء، بينما كان على اقتناع تام بأننا نواصل سيرنا في خط مستقيم.

والآن صارت العتمة والظلام أشد كثافة بما يكفي لتمكيننا من الظهور بمظهر بعض الأعراب من البدو، والفضل في ذلك يعود للأضواء الساطعة المنبعثة من نيرانهم. وفجأة صاح دليلنا قائلاً: إننا قد التحمنا مرة أخرى مع

أعرابنا، وبعد دقائق قليلة من ذلك تمكنا من مشاهدة الجمال، مع أنها لم تكن مقيدة، وكانت أحمالها على ظهورها وهي ترعى بعض الحشائش. لقد كانت هذه تعود إلى سكان وادي فاطمة، فلقد عدنا بالتأكيد إلى تلك الينابيع نفسها التي غادرنا منها قبل حوالي ثلاث ساعات مضت. لقد كانت الساعة الآن هي العاشرة مساء.

وقد قام بعض رفاقنا الذين ما زالوا يحتفظون بمرحهم ودعابتهم بصب جام غضبهم على هذا الدليل السيئ الطالع في شكل سيل من أساليب السخرية، وآخرون من الذين أصيبوا بخيبة أمل عميقة صاروا يتهامسون حول أفكارهم المتلهفة بينهم وبين أنفسهم. أما بالنسبة لأولئك الذين أصابهم الذعر فقد حافظوا على صمتهم المطبق.

"يا رفاقي" صاح أحد رفاقنا، "دعونا نكن شاكرين لعدم فقداننا الطريق بجوار مكة نفسها، لأن تزمت أهاليها كان سيعني إصابتهم لنا بمكروه وأذى شيطاني. دعونا نواصل طريقنا مرة أخرى، ومع ذلك، ولخوفنا من احتمال الرسو في "بيزا" بدلاً عن شق طريقنا إلى "فلورنسا"، فدعونا نقم باختيار أحد البدو الذي سيقوم بالتأكيد بتوجيهنا إلى قافلتنا".

وعليه فقد قمنا باتباع نصيحته. وخلال نصف ساعة قام هذا البدوي الذي وقع اختيارنا عليه بالتعرف على آثار أقدام بعض الجمال.

"أعتقد أن آثار أقدام هذه الجمال تخص قافلتكم" صرح لنا هذا البدوي "انظروا هنا الآثار التي خلفتها على الأرض أقدام الخيالة الأتراك، لأن آثار أقدام خيولنا نحن ليست عميقة لهذه الدرجة، ولقد سبق لي أن تابعت آثار أقدام خيولهم حتى بغداد دون أن أضل عن طريقهم على الإطلاق".

اتضح فعلاً أن ما قاله الأعرابي كان صحيحاً، فبعد ساعتين وجدنا أنفسنا مرة أخرى وسط رفاقنا الذين أصيبوا بكثير من الانزعاج والقلق الشديد بسببنا.

كنا في "وادي الليمون". وعند الساعة الخامسة مساء بدت لأنظارنا قرية الشيوخ (ديرة الشيوخ) التي أطْلق عليها هذا الاسم، لأنها موروثة لبعض البدو الذين كانوا يدعون أنهم من سلالة الأشراف. وكانت الجبال الواقعة إلى الغرب محاطة بالعديد من الأعمدة الخاصة بأشجار النخيل مع أنها قد كانت تبدو أحياناً في خط متقطع. ولم يكن هنالك أي نقص في المياه العذبة، بل إنها كانت زيادة على ذلك، من نوعية ممتازة.

بحلول الساعة السادسة مساء اتضح من نباح الكلاب أننا قد وصلنا إلى قرية أخرى كانت تعرف باسم مدرق "Madrag". وقد تلاقينا عندها بغية اتخاذ الترتيبات الخاصة بالتزود بالمياة لأجل اليوم التالي. وقمنا بنصب خيامنا بعيداً عن آخر واحد من مخيماتهم.

وبخلاف أشجار النخيل كانت "مدرق" تشتمل على بعض المزروعات التي كانت تتدرج حتى تصل إلى زراعة الذرة الصفراء (الذرة الشامية)، والتي كانت محاطة بحواجز من السدود لكي تحفظ فيها المياه المتدفقة التي يتم ريها بوساطتها.

وكانت المياه يتم تزويدها من خلال جدول صغير زرعت حوله أشجار "البالماكريستي Palma-christi" و"السكلبيوس asclepias".

والآن عملنا على بسط ألحفتنا على ضفاف هذا الجدول حتى نستطيع الاستمتاع بنقاء الموقع بكامله، وبعدها علمنا من السكان أن هذا المكان كان يتخذ نقطة توقف لقوافل الحجيج.

أطلت على منحدرات إحدى التلال القريبة، وبشموخ إحدى القلاع العربية التي شيدها "عثمان المظايفي" وهو شيخ قبيلة "عدوان Aadouan" التي اكتسبت شهرة واسعة خلال المراحل الأخيرة من حروب العرب الدينية وقد كانت في هذه الأيام تحت قبضة محمد علي الذي اتخذها مقراً يعسكر فيه عدد من البدو الذين كانت مهمتهم الأساسية توفير الحماية للقبائل المجاورة.

وبعد قليل أجبرتني شدة حرارة الشمس على مغادرة النقطة التي كنت أخذتها في بادئ الأمر، وعليه كنت على وشك أن أستلقي بنفسي تحت ظل إحدى أشجار الجُمّيز الطويلة.

وفي اللحظة نفسها التي بدأت فيها بالتحديد في تجميع حاجياتي ومذكراتي معاً وصل بالقرب مني رجل عجوز وهو يحمل كيسين من الطعام. فقمت بشراء واحد منها ودعوته لكي يتناول معي وجبة عبارة عن جزء من محتويات هذا الكيس. وقد أفهمني هذا الرجل الطيب بأن بإمكاني أن أشاهد على بعد مسافة حوالي نصف الميل تقريباً من مكاننا هذا بركة صغيرة يبلغ عمقها ما يتراوح بين الأربعة أو الخمسة أقدام، وهي التي تشكل مصدراً لهذا الجدول الرقراق، وأنها تحتوي على كميات من الأسماك الصغيرة الحجم.

وخلال حديث الرجل العجوز قامت طيور "الشحرور" السوداء وطيور القمري بالتحليق فوقنا حيث استقرت بعد ذلك على أغصان الأشجار القريبة.

"منذ متى تم تشييد القلعة التي أراها هناك؟ "سألت الأعرابي، "منذ

تسع عشرة سنة تقريباً قام عثمان، الذي اعتنق مذهب الوهابيين وكان في الوقت نفسه يقوم برعاية مصالحهم المادية، بسوق سجنائه وأسراه، الذين سقطوا بأيديه نتيجة للمعارك، عنوة وقسراً للعمل في تشييدها. وقد كانوا مجبرين على حمل الحجارة على رؤوسهم، وقد حكم بالإعدام، دون أدنى رحمة أو شفاعة، على أولئك الذين رفضوا الخضوع لهذا النوع من العمل الشاق.

لقد كانت تلك الفترات بكل تأكيد تعد من فترات المآسي والبلاء، فقد كان وزن بنادقهم الطويلة القديمة الطراز يؤكد بأنه ليس أمام المرء من سبيل للتراخي أو الإبطاء في سيره، فلقد كانت قبيلة "عدوان" آنذاك كثيرة في عددها وتتمتع بقوة شديدة. " لكن ما الذي حدث لكثير من محاربيكم الموحدين الذين لا يفتُّ عضدهم؟ " لقد صارت عظامهم متناثرة في سهول "بِسِلْ"[(١)]، ولم يسمح لهم حتى بأبسط الحقوق في أن تتم مواراة أجسادهم الثرى بالطريقة العادية والمتعارف عليها".

(١) هذه إحدى الأماكن المشهورة في شبه الجزيرة العربية، والتي استمدت شهرتها من ذلك الصراع الذي نشب بين محمد علي والوهابيين، بحيث تم القضاء على الأخيرين قضاءاً مبرماً. وسوف نجد هذه البقعة لاحقاً على طريق رحلتنا. (المؤلف). بِسِلْ هو موقع يقع إلى جنوب الطائف شهد المعارك الشرسة والمهمة والفاصلة في تاريخ الحرب السعودية المصرية بقيادة محمد علي باشا نفسه، حيث - كما ذكر المؤلف وذكر مخبره - بأن القوات السعودية شهدت هزيمة قاسية، كان لها ما بعدها في تاريخ الصراع السعودي المصري في عهد محمد علي باشا. انظر تفاصيل هذه المعركة في كتاب جيوفاني فيناتي الجندي الإيطالي الذي شارك في هذه المعركة وأول وأوفى من سجل تفاصيلها، وذلك في كتابه الذي سيخرج إلى النور قريباً بترجمتنا إلى اللغة العربية لأول مرة. (المترجم).

"هل يعني هذا أن أعدادكم منذ ذلك الوقت قد تناقصت إلى حد ما تقريبا؟".

"قبل انكسار شوكة الوهابيين كنا في وضع يسمح لنا بحشد (١,٢٠٠) مقاتل و(٣٠٠) فرس. وخلال المعركة النهائية الفاصلة كانت أعدادنا قد انخفضت إلى (٣٠٠) مقاتل، وحتى هؤلاء المتبقين على قيد الحياة كان تسليحهم ضعيفاً.

بعدها تم إجلاؤنا عن الأرض التي ولدنا بها، حيث تم إجبارنا مضطرين على التراجع للداخل لمسافة تبعد بمسيرة عدة أيام من السفر.

ومع ذلك فقد أمضينا، منذ ذلك الوقت، بعض الأيام السعيدة، وقد تمكنا مرة أخرى من استعادة بناء محاربينا من الشباب على هذه الأرض التي تسيرون عليها الآن، وقد كانت أمهاتهم قد حملنهم صغاراً ليصلوا إلى هنا سريعاً في وقت كانوا فيه أطفالاً في نعومة أظافرهم".

كانت قرية "مدرق" تتكون من بعض المنازل المشيدة من الحجارة، إضافة إلى حوالي (٦٠) عشة[١] مشيدة من أعواد "الذرة"[٢] وكانت القلعة، التي تم إبعادها عنها لمسافة تبعد حوالي طلقة مدفع، قد شيدت بصورة جيدة على شكل مربع وكانت كل زاوية منها محمية بحصن في أعلى نقطة منها على شكل قبة.

أما بالنسبة لبوابة الدخول فلم تكن تقع في الواجهة وإنما كانت على الأطراف، كما هو التقليد العادي المتبع بالنسبة لكل قلاع البدو تلك.

(١) ترمز هذه العبارة إلى "الأكواخ الصغيرة" (المؤلف).

(٢) هذا المحصول هو "الذرة الشامية" (المترجم).

وفي الواقع ما يزال بمقدورك التغلغل بداخلها من خلال بوابة ثانية شاهدناها عند قدومنا إلى هنا عبر طريقنا القادم من جدة. ويتخذ شيخ القبيلة مسكنه بداخل هذه القلعة، ويعج فناؤها الداخلي ممتلئا بالأغنام والإبل التي تعود ملكيتها جميعها إليه. وقد تم غرس الـ "النطورات Alentours" في البساتين، لأعراب قبيلة "عدوان".

الفصل السابع

١٩/ مايو - اليوم الثالث لرحلتنا

قمنا بإخلاء مخيمنا، وبعد عدة دقائق وصلنا أمام إحدى الآبار المشيدة من الحجارة، وكانت فتحة عنقها غاية في الضيق، وذلك بغرض التمكن من إغلاقها فوراً في حالة نشوب حرب. وقد وقفت على جانب منها أربع بنات بدويات صغار السن، وبصحبتهن عبد أسود كي يتمكن من رؤيتنا ونحن نجتاز المكان قريباً منهم. وقد قدمن لي شربة ماء في كأس صغيرة مجدولة بالقش. يا إلهي! أي نوع من الجمود يتصف به هذا الجمع من المواطنين؟

يمكنني أن أثني جيداً على كوني جزءاً لا يتجزأ من أسلوب الحياة التقليدي الأبوي، وعندما نقول ونفعل كل ذلك فنحن لدينا هنا السماء نفسها، والأجناس نفسها من البشر، والعادات نفسها والتقاليد، حيث يوجد هنا، وبطريقة واضحة، كل ذلك المرح الذي يصعب التعبير عنه، والذي مارسناه وعايشناه طيلة هذه الفترة، إذ اتضح لنا أن هذا هو الأسلوب الحيوي للقيام بعمل الأشياء والذي تم التوصل إليه عبر آلاف السنين، والذي نعتقد أن الزمن قد فصلنا عنه إلى الأبد، والذي شاهدناه الآن يعاد تمثيله وترديده هناك على مرأى ومسمع منا.

لقد كانت إمدادات هذه الآبار من المياه العذبة ممتازة ووفيرة. وعند هذا الموقع تحديداً غادرنا وادي الليمون وافترقنا عنه وعن أعمدة أشجار النخيل

بغرض اتباع طريق آخر في الاتجاه الشرقي، بحيث صرنا الآن نتبع طريقاً آخر تم تخصيصه للقوافل الكبيرة من القاهرة.

وكانت الطرق العديدة المطروقة التي يتكون منها مرصوفة وممهدة بشكل جيد. وقد كانت الجنبات المحيطة به تمنحنا مشهداً من الكتل العديدة المتراصة من أحجار (الجرانيت) التي عمل الزمن على تآكلها وتغطيتها بطبقة ناجمة عن البلى العادي الذي يحدث بمرور الوقت. مع ذلك لاحظنا عند تفتيتنا لكل هذه التجاعيد السطحية أنها تتكون في الطبقة الداخلية السفلى من نوع جذاب للغاية من الصخور التي هي عبارة عن مزيج من الصخور السوداء والبيضاء على السواء.

وقد كانت الطبقة العليا خالية ومجردة من أي نوع من أنواع النباتات، وهي تتفتت مباشرة لدى أقل وأبسط لمسة لها. وتحف بطريقنا الأشجار الشوكية كما تقوم الجبال نفسها بتوفير صورة كالحة من الجمود، إضافة إلى ظروف غاية في الرعب والخوف لأنظارنا، وسريعاً ما يمتزج بعضها ببعض، وتخلف لنا تحتها طريقاً مستقيمة تحف بها كتل من الصخور الإردوازية التي تلتف على امتدادها لتجعل مسارها مفعماً بالأوتاد والأسافين الحجرية.

وبناء عليه يكون من الصعب للغاية أن يتم اختراقها في حالة مواجهة القوات الأقل مقاومة من قبل البدو. والآن أعطتنا أصوات الكلاب، التي بدأنا نسمع نباحها بصورة عالية، وكذلك الأضواء المنبعثة من نيرانهم، دليلاً قوياً وواضحاً لنا عن وجود الأعراب. والآن حضر أحد اللصوص، مستغلاً لصالحه - ولأقصى حد - خفوت ضوء الشفق، ليقوم بامتطاء أحد الجمال

مستمتعاً بتمثيل دوره كأحد الزملاء المسافرين ضمن القافلة، لكنه شعر بحقيقة أنه قد تم رصده ومراقبته. وقد شاهده بعض رفاقنا وهو يختفي عن الأنظار، لكنهم لم يكن لديهم على الإطلاق أية فرصة متاحة لتعرف الطريق الذي قام هذا اللص بسلوكه عند اختفائه.

وبمجرد أن خلفنا وراءنا هذا الممر الضيق وجدت القافلة نفسها مرة أخرى في أرض رملية هشة، وعليه، فقد ضقنا ذرعاً برتابة سير القافلة، وبدأنا نتقدم في سيرنا مرة أخرى. وبعد مسيرة طويلة إلى حد ما بدأنا نبحث عن مكان نستريح فيه في انتظار وصول بقية الإبل التي تتشكل منها القافلة.

ومع ذلك وعند فشلنا في أن نرى أي اقتراب لها تبادر إلى أذهاننا فوراً أننا قد ضللنا طريقنا مرة أخرى.

ولحسن الحظ كان معنا بعض الفرسان من الحرس، وقد اكتسب قائدهم - الذي كان برتبة نقيب، وكان سبق له الاشتراك في حروب بالجزيرة العربية خلال فترة طويلة - شيئاً شبيهاً بحاسة البدو في تتبع الأثر، ومن ثم كان لدهائه الفضل في عودتنا سريعاً للالتحاق مرة أخرى برفاقنا. وقد زودنا الشيخ بأحد رجاله لمصاحبتنا إلى نقطة التوقف التي كان من المفترض أن ننصب بها مخيمنا الثاني.

وقد اكتشفنا هذه النقطة من خلال شجرة ضخمة كانت بمثابة علامة على النقطة التي كانت توجد بها الآبار التي كان من المفترض أن نقوم بسحب احتياجاتنا من المياه منها. استلقيت على الرمال التي كانت بمثابة ذلك السرير الجميل الناعم الذي قامت العناية الإلهية بتوفيره هدية في كل

مكان تقريباً للمسافرين عبر الجزيرة العربية أو حتى لأولئك السكان التعساء، وسرعان ما وجدت نفسي أغط في نوم عميق.

وعندما استيقظت اكتشفت أنني راقد تحت خيمتي التي قام خدمي بنصبها خلال الوقت الذي كنت أغط فيه في نوم عميق.

لقد كان يوماً بهياً ورائع الجمال، وقد ذهبت إلى الخارج لإلقاء نظرة على المناظر الطبيعية المحيطة بنا، والتي كانت مشاهدتي لها حتى هذه اللحظة لا تتعدى بصيص الضوء المتبقي من الليلة السابقة. وقد كانت البقعة التي نصبنا عليها مخيمنا جزءاً من سهل متسع للغاية، تحيط به كتلة متشابكة من الجبال. أما أرضيته فكانت عبارة عن تربة رملية خشنة مغطاة بالأدغال ذات الأشجار الشوكية.

أما بالنسبة للآبار التي كان الأعراب يطلقون عليها عبارة (بير الباروت) فقد كان عمقها يتراوح بين (٣٠و٣٥) قدماً، وعرضها بين (١٨و٢٠) قدماً. ويمكن أن تستشف من هذه المقاسات أن الأبعاد كانت في الغالب فوق المتوسط. وقد تم تشييدها بصورة جيدة، ولم تكن الحجارة الضخمة التي شيدت بها متصلة بعضها مع بعض بأية مادة إسمنتية. وقد قامت أشجار الجميز الطويلة بلف هذه الآبار وتغطيتها بظلالها الكثيفة.

أما طيور القمري التي جذبت إلى هنا بسبب وجود المياه العذبة فقد كانت كثيرة بصورة متزايدة في كل أرجاء المنطقة، وكانت تأتي إلى هنا بأعداد كثيرة لكي تحط بنفسها على فروع الأشجار. وقد كانت أليفة بصورة غير عادية، لأنها كانت على علم تام بان الأعراب يعدون أصدقاء لها. وقد عبر العديد من الأوربيين - الذين ليس لديهم أدنى احترام لها،

والذين كانوا يفضلون أن يروها وهي تُطبخ لهم - عن رغبتهم في صيدها، لكن البدو كانوا يعارضون تلك الفكرة بشدة.

لقد كانت شجرة الجميز تتدلى من فوق المياه الحقيقية، وكانت تنتشر متمددة عبر جدران هذه الآبار إلى مدى يبلغ حوالي ست أقدام.

تحت كل هذا لاحظنا حطام قوس مستدير كان في الأيام السابقة يضم درجاً كان يقوم بتسهيل نزول الشخص، دون أدنى مخاطرة، عميقاً إلى الداخل. وقد كان يستند على كتل من الصخر في أسفل القاع الذي كان النبع نفسه يتدفق منه وقد كان واضحاً أنه - من أجل اختصار المسافة الخاصة بالسلالم قد تم عمل هذه الحيطان السميكة بحيث تكون متباعدة بعضها عن بعض. أما بالنسبة للمياه النابعة من (بير الباروت) فقد كانت وفيرة للغاية، عذبة بحق، وعالية الجودة لدرجة رفيعة.

كانت كل الأماكن المختلفة التي مررت عبرها في رحلتي وحتى هذه النقطة يقطنها البدو. وكانت تعاني بصورة أساسية من الجدب، وفيما عدا قلعة (مدرق) لم أمر على أية أشجار نخيل. وعودة إلى المناطق حول (بئر الباروت) فقد كان يقطنها (اللحيان)، تلك القبيلة الكثيرة العدد، المحاربة، والتي تمتلك أعداداً كبيرة من الضان والماعز.

لقد كانت الرحلة في اليوم العشرين من الشهر تتسم بالحرارة الشديدة، وأخير سببت الرياح بعض المضايقات الخفيفة لنا. وتستمر هذه الريح، التي تهب أحياناً على هذه المناطق من خطوط العرض، لمدة تبلغ حوالي ثلاثة أيام. تبدأ هبوبها عند حوالي الساعة العاشرة صباحاً وتتواصل في قوة متزايدة حتى مغيب الشمس، وهي اللحظة التي تصل فيها إلى التوقف كلية.

وهي تحمل معها حرارة لافحة وشديدة، فتقوم بامتصاص عرقنا بواسطة الأتربة الرملية التي تكون مصاحبة لها وهي تجعل أجسامنا متردية في حالة مزرية من الإرهاق والتعب.

أما بالنسبة للحرارة فقد كان مقياس الحرارة يقفز في الظل إلى (٣٨ْم) حوالي الساعة الحادية عشرة وإلى (٤٠ْم) عند منتصف النهار[١].

وعند حوالي الساعة الثالثة كان العديد من النسوة البدويات يقدن قطعانهن باتجاه هذه الينابيع، وعليه توجهت في طريقي قدماً بقصد لقائهن لإمعان النظر فيهن، ولمزيد من الاستيضاح منهن. وقد كان مظهرهن يمثل ذلك الذي تتمتع به وصيفاتهن في المناطق الواقعة حول مدينة جدة، لكن هنالك مظهر واحد كان يختلف كلية عن ذلك الخاص بالأخريات، ألا وهو ذلك الزوج من السراويل التحتية المحذقة والذي كن يرتدينه بفرحة غامرة وقدر كبير من التباهي. وجميعهن يمتلكن خماراً، بغض النظر عن حقيقة الادعاء القائل إن النساء العربيات من المنطقة الداخلية لا يقمن بتغطية وجوههن.

وبعد لحظات شاهدت بعض البدو الذين وصلوا، وكانت مهمتهم تنحصر في نتح المياه العذبة، إذ إن هذا العمل كان طويلاً ومرهقاً. لذا فقد تم وضع هذه الأطقم من الرجال على رأس هذه المهمة. وقد كانوا يحملون معهم إناءاً ضخماً شبه بيضاوي، مصنوعاً من الجلد، ومثبتاً على هيكل دائري من الخشب، وهم يقومون بوضعه في مكان آمن وعلى أربعة أحجار، ويشرعون في ملئه.

(١) فيما يتعلق بكل هذه القيود دعني أخبرك بأنني إنما أقوم بإعطاء درجات الحرارة هذه استناداً إلى ترومیتر "ريمور" (ثيرموميتر). (المؤلف).

وتقوم الحيوانات الآن بالشرب منه بنهم شديد. ويسمح لعدد من الماعز بالقدوم إلى هذا الإناء في كل نوبة. ويمكن القول: إنه عند مشاهدة رؤوسها وهي منغمسة فيه بطريقة تبادلية حول محيطه الخارجي، فإن ذلك يشكل مجموعة جذابة للغاية.

ويبدو أن (بئر الباروت) كانت فيما مضى تكفي عدداً كبيراً من السكان الذين قاموا بنصب خيامهم في هذه المناطق المحيطة بها. وقد توصلت إلى هذه النظرية طبقاً لشكل الآبار ومقاساتها، لكن ذلك استند بشكل أساسي على آثار الأنقاض الكثيرة والمعبرة والتي كانت بغض النظر عن سطح الأراضي المجاورة ومستواها تبرهن بما لا يدع مجالاً للشك على أن مدينة ما كانت قائمةً هنا يوماً ما.

وقد لاحظت مستطيلاً ضخماً تتكون حيطانه من أحجار الجرانيت، وعلى طرف قصي يبعد عن كل هذا، لاحظنا بعض الحجارة الكبيرة الضخمة، والتي يتضح من شكلها العام أنها كانت تابعة إلى درج. أما من الطرف الآخر فيمكن أن نلاحظ دائرة ضخمة مشيدة أيضاً من أحجار الجرانيت، ويبدو أن قطرها كان كبيراً بصورة مبالغ فيها، وهو الشكل العام نفسه الذي كانت تشيد عليه الآبار في تلك الأوقات. فهل من الممكن أن يكون ذلك قد كان في العصور القديمة، يؤدي الغرض نفسه؟.

وإلى الأمام أكثر كان هنالك شكل مستطيل يبدو حديثاً وأوسع وأكثر روعةً من سابقه، وقد كشف عن نفسه إذ كانت قواعده التي كان عرضها يبلغ ما يتراوح بين خمسة وستة أقدام تبدو وكأنها كانت جزءاً من صرح ضخم ذي طبيعة صلبة بصورة مدهشة. وإلى جانب هذا كانت تقع البقايا

العارية من أحد الجدران التي كانت أكثر اتساعاً وأكثر تعبيراً من كل تلك التي تم وصفها سابقاً. وقد كان سقفها المائل إلى الأفق مسطحاً تماماً.

وفي الظروف التي يمكن أن يشاهد فيها اليوم كان بمقدور الشخص أن يستشف أنه كان يوجد هنالك حاجز تم رفعه إلى أعلى بغرض إضفاء الجدية على الأرض المحيطة به. وقد كان هذا الحاجز المعني يتقاطع مع واحد آخر بزاوية تبلغ (٤٥م)، وقد كان هذا أطول، لكنه أقل سمكاً من سابقه.

وقد كان هذا الموقع، سواء وسط المنطقة المحيطة بالآبار، أو تلك التي تبعد عنها إلى الأمام، مغطى ببعض الأنقاض الأخرى الأقل أهمية، وعليه فقد وفرت تلك الأنقاض والمخلفات عموماً صورة حية للغاية عن قوة أولئك القدماء الذين قاموا بتشييد هذه المباني.

لكن هنالك أشخاص يعدون المنشطين الأصليين لكل هذا. فإلى أي عصر يعودون؟ وما هي الكوارث والنكبات التي حلت بهم وجعلتهم يتضاءلون إلى الحالة التي نراهم عليها الآن؟ هذه أسئلة مبهمة، ولا أود أن أقول إنها غامضة فعلاً.

وإنه ليس من العملي بالنسبة لي أن أفترض أن بمقدوري حسمها بعد تحريات مختصرة. وتعد هذه الأطلال، مثلها مثل تلك الخاصة بغيرها من المدن التي تم تحطيمها بواسطة الغزاة المنتصرين الذين قاموا بحرث أراضيها ونثر الأملاح على امتدادها كله، والتي يندر مقارنتها بها، فضلاً عن التفوق الناجم عن عبير أكثر الأزهار تواضعاً.

إن المدن والإمبراطوريات قد تنهار وتزول، وتبقى الطبيعة وحدها هي المتفجرة بالقوة والحيوية التي لا نهاية لها.

وقـد لاحظت من بين كل هذه الأنقـاض أن ذلك المربع والمسـتطيل والدائرة، التي كانت تصميماتها جميعاً مبسطة، يفترض أن تبدو ذات أسبقية بالنسبة لأفكار المعماريين من قدامى العرب. كم هو مؤسف ألا يتمخض مرور القرون منذ تلك الأزمنة عن أي شيء يكون قد تم عمله من أجل إنقاذ هذه الأشياء التي بدت ظاهرة ومرتفعة فوق سطح الأرض.

وبما أن الأمر كان كذلك، فدعونا نسترح ونحن قانعون بالشيء القليل الذي تبقى لنا.

تقوم الحكومات الأوروبية من حين لآخر ببذل أقصى جهودها من أجل رفع الأنقاض من فوق الآثار الخاصة بالحضارات القديمة التي تم ابتلاعها تحت الرمل والتراب. أما هنا، فبمجهود وعناء أقل يمكن لعلماء الآثار أن يقوموا بإحياء هذه الآثار وتجديدها، ومن ثم يقومون بإضافة صفحة من التاريخ - كان قد تم نسيانها - إلى التاريخ البشري.

وخلال ذلك وبينما كنت أتفحص كل شيء باهتمام بالغ من أجل الوصول إلى بعض التفاصيل، اكتشفت العديد من الحجارة على الأرض حول المكان، لكنني لم أعثر على أي أثر لأية نقوشات أو أية حفريات. كان الشيء الوحيد الذي بدا لي - وهو يتجاوز دائرة الشك - هو أن هذه المواد قد تم جلبها من الجبال المجاورة، وأن هذه الهياكل قد كانت من الأعمال التي قام بها بعض الرجال الذين سبقوا ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) بفترة طويلة.

كما أنه لم تكن هنالك أية علاقة بين تلك الخطوط الحادة والمستقيمة في نوعية بنائها وبين أسلوب العمارة الخاص بمسجد القاهرة أو الحمرا.

وحتى الآن فإن الفن العربي لم يخب أو يزل بسبب كل هذه التغييرات.

ويجب استـفسـار البـدو الذين يقطنون تلك الأراضي المجـاورة، وبذل أقصى قدر ممكن من أجل أن تستخلص منهم أية إشارة حول التقاليد التي يمكن أن تسلط الضوء على هذه القيمة، وما هي الإجابة المحتمل أن تتلقاها منهم؟.

"لقـد علم أسـلافنا من آبائهم - ونحن بـدورنا نقـول ذلك - أن هذه الأنقاض هي أقدم شيء في العالم (أول الدنيا)، ونقـوم نحن أيضاً بنقل مفهومنا هذا لأطفالنا". كان هذا هو الانطباع الذي أعطانيه أحد الأعراب من (هذيل) والذي طرحت عليه هذا السؤال عندما كان يقوم بصب الماء، دون أدنى اكتراث، بداخل الحوض الذي تقوم قطعانه من الضان بإطفاء ظمئها منه.

٢٠ / مايو - اليوم الرابع لرحلتنا

في هذه الأثناء قام الأعراب بتوديع تلك الآبار، التي كانت تشكل بصورة واقعية أوثانهم التي لا يستطيع هؤلاء الأعراب من سكان الصحراء أن يحدُّوا من تبجيلهم وتوقيرهم لها.

والآن بدأ طريقنا يتعرج طيلة هذا الوقت هبوطاً حتى سفوح تلك السلسلة من الجبال. وقد كان المسار ممهداً ومغطى بمهاد من التربة الرملية، ويبدو أنه قد تم تصميمه على هذا النحو بغرض تسهيل الجهد وتخفيفه على أخفاف الجمال الرخوة. وقد كانت هناك كتل غليظة من أحجار الجرانيت على طول الطريق وفي كل جنبة من جنباته، وقد كانت ذات أثر عميق، وكانت هنالك أيضاً شظايا سوداء متدلية من أعالي قممها وحتى سفوحها.

ومع ذلك فقد كانت التربة الصالحة للزراعة والنمو أقل ندرة هنا، مما كان عليه الحال في الأطراف المجاورة لمدرق. وكانت كتل الجرانيت هذه على شكل طبقات متراصة إحداها فوق الأخرى وبزاوية (٤٥ْم) بالنسبة للأفق. وفي تلك اللحظة نفسها التي مررنا فيها بتلك المنطقة كانت الشمس على وشك أن تتوارى خلف هذه الجبال.

فقد كانت أشعتها تسقط بصورة مائلة على جنباتها، ومن ثم تشكل انحناء غريباً من الظلال في مواجهة الأضواء الكاشفة.

وقد ذكرتنا كتل الحجارة المنتصبة أمامنا بصورة حيوانات الكرغل (gargoyle - beasts) الظريفة، وهي تفتح فمها على سعته لمياه الأمطار فيما يشبه تلك الأشكال الخيالية الغريبة لأجدادنا، والتي درجوا على تركيبها على الكنائس في العصور الوسطى.

والآن استمر الطريق لبعض الوقت في امتداده عبر التخوم والممرات المخيفة. وبعد ذلك بقليل قام البدو بالتوقف، وقاموا بوضع أحمال الإبل بطريقة متقدمة أكثر إلى الأمام على ظهورها، وقد اكتشفنا بعد ذلك أنهم بهذا يستعدون للصعود على إحدى التلال القريبة، وهي الأولى التي تواجهنا منذ أن غادرنا جدة.

لقد كانت عملية الصعود سريعة إلى حد ما، ولأنها كانت محفوفةً كثيراً بالأحجار المتطايرة فقد قام كل راكب بالنزول من فوق بعيره استعداداً لتولي أمر معالجة الطريق سيراً على الأقدام.

وقد بدأ البدو في ترديد نوع من الأهازيج التي اعتادت جمالهم على سماعها، وكان هذا يمثل بالنسبة لها نوعاً من الصمود وشحذ الهمة

والعزيمة. وقد كانت هذه الأنشودة المعينة تردد بطريقة معينة بحيث يقوم الجميع بالمشاركة فيها وسط كل مجموعة.

وفي الواقع أن هذه الصرخات المتخلفة، التي كانت خالية من الإيقاعات التي تقوم وحدها باللعب بأسماعنا نحن الأوربيين بطريقة سارة ومرحة، وقد سببت لي شعوراً غريباً بحق - بدت لي شيئاً بعيداً كثيراً عن المعقول أو المقبول. ومع ذلك، فقد تعودت عليها لاحقاً، وصرت أسمعها بكل سرور. وبعد قليل وصلنا جميعاً إلى قمة هذه المرتفعات.

أما بالنسبة للهبوط فقد كان سريعا للغاية في بدايته، وصار يقل سرعة شيئاً فشيئاً. وقد استمرت حركة الهبوط من الجبال حتى (الزيمة) التي كان من المفترض أن ننصب فيها مخيمنا. على عنق هذه السلاسل الجبلية، التي شيدت إلى اليمين منها قلعة كانت في حالة شبيهة بالحطام، تمكنا من مشاهدة بعض المزروعات، إضافة إلى الحرير الناعم لأحد الجداول الجارية، والذي كان له وقع جميل على آذاننا.

لقد كان هذا الصوت الرائع يبدو مقبولاً لدى العرب لدرجة أنهم - ببساطة - لم يكونوا قادرين على أن يتخيلوا كيف يمكن للشخص الذي يستمع إليه أن يبقى مصاباً (بالمنخوليا)، لأية درجة من الخطورة تكون مصيبته أو محنته.

كانت القلعة نفسها مشيدة من الحجارة فقط حتى الطابق الأول. أما الأدوار العليا فكانت مشيدة من الطوب الخشن. ومن أحد أطرافها مررنا على ركام بعض المنازل القديمة.

أما بالنسبة لداخلها فقد لاحظنا مرة أخرى كثيرا من الغرف التي كانت

تستعمل عنابر لسكن الحرس، إضافة إلى خزان بحالة جيدة للمياه العذبة. وقد كانت هذه الأخيرة مبطنة بطبقة من الإسمنت الشديد الصلابة.

وقد تم تشييد هذه القلعة من قبل الوهابيين عندما كانوا يسيطرون بصورة تامة على هذه المنطقة المقدسة.

وقد قام إبراهيم باشا بتدميرها عندما كان في طريق عودته من حملته التي شنها على (الدرعية).

لقد كان السهل الضيق، الذي يقع إلى الأسفل قليلاً، مغطى بالنخيل والكتل الصخرية، وفي وسطها استطعنا أن نقوم بإحصاء العديد من أشجار الجميز. ولقد كانت جذوع النخيل دون عناية أو لم يتم قص أفرعها السفلى، مما يشير إلى أن البدو لم يتعلموا بعد إلا القليل عن العناية بها بصورة سليمة.

وفي وسط مثلث ناشئ عن المساحة المزروعة مررنا بمجموعة من خمسة منازل واثنتين من القرى الصغيرة المشيدة عند أدنى سفح من الجبل، والتي كان يتدفق منها جدول رقراق وجميل يقوم بريّ المنطقة الخصبة كلها.

وقد كانت هذه الحدائق تنتج العنب والتين والبطيخ والشمام. ولم تكن المنطقة بصفة عامة تخلو من المباني المحسنة والمزخرفة، وكما هو الحال بالنسبة للطرق التي عبرنا خلالها من مكة إلى الطائف، وكذلك عند مدينة (مدرق)، وبحرة وجدة أيضاً، ولم يكن الوهابيون يفشلون في هزيمة هؤلاء الناس، وفي تحصين تلك النقاط المتقدمة. أما بالنسبة للبدو الذين يقطنون تلك الأرجاء في الوقت الراهن، فقد كانوا ينتمون إلى قبيلة (هذيل).

٢١ / مايو - اليوم الخامس لرحلتنا

الآن غـادرنا (الزيمة) وعلى بُعـد بضع أقـدام من ذلك المكان الذي كنا نخيم فيه مررنا عبر ممر أو حاجز ضيق مشيد من الطين قاموا بتشييد قناة ضيقة عليه كانت تقوم بنقل المياه عبر كل الأراضي القيمة التي كانوا يخططون لزراعتها.

وفي هذه النقطة نفسها وجدنا نوعاً مستقيماً من الوديان بدا وكأنه كان من حين لآخر مغطى بالأشجار الشوكية. وقد كانت الجبال في هذه المنطقة المجاورة مرتفعة للغاية، وكانت الشمالية منها تتكون من أحجار الجرانيت.

أما الجنوبية منها فقد بدت كأنها ذات أصول أكثر حداثة، وهي من الحجر الجيري الشديد الاحتراق. وكانت التربة تمثل من كل الوجوه تلك الخاصة بمجرى النهر الجاف، وهي مفروشة بحبات الرمل، وكذلك قطع الأصداف التي جرفتها المياه من أماكن بعيدة، علما بأن الأماكن المجاورة لا تحتوى على أية صخور من أية أنواع أو أصناف مماثلة.

كان هذا الوادي طويلاً بصورة غير عادية، وقد احتاجت الجمال لتقطعه نحو ست ساعات، قضتها بأكملها، وهي تسير فيه. وفي طرفه الأخير تتقابل هذه السلاسل الجبلية سوياً بعضها مع بعض. وعليه فقد ركبنا طوال هذه الفترة في ممر تكتنفه الكهوف، وسرعان ما صار هذا الطريق محفوفاً بالرمال وشظايا الصخور، بينما قطعنا بعد مسافة أثناء سيرنا طريقاً مستوياً تحف به أحجار الجرانيت. ووجدنا أنفسنا في ذلك الوقت في سهل يمكن فقط الوصول إلى طرفه النهائي بعد مسيرة خمس ساعات.

ويتلقى هذا السهل إمداداته من مياه الأمطار التي تصله من كل الأودية

والشعاب المجاورة. وتتدفق كل هذه المياه بقوة بعد ذلك باتجاه وادي فاطمة من خلال أحد السدود التي أوضحتها سابقاً، ويقوم البدو بتوخي الحذر لكي لا يعترضوا طريقه.

بعد مسيرة ساعة ونصف الساعة من خروجنا من ذلك السهل، نصبنا مخيمنا على طرف أحد الجداول الجارية، التي تتجه جنوباً عبر أقواس من الجبال الصغيرة، التي يخيم عليها الجدب بصور مستمرة وقاطعة. وتقطن هذه المناطق إحدى القبائل القوية التي تعرف باسم (عتيبة)، وهي في حالة حرب مع (هذيل).

وبالنسبة لهذا الموقع المليء بالسكان لم يكن البدو يطلقون عليه أي اسم على الإطلاق، وإنما كانوا يشيرون إليه فقط بعبارة (الملح) أو (السيل).



الفصل الثامن

تعد قبيلة عتيبة أكثر ثراءً من القبائل التي صادفتنا خلال رحلتنا، فهي تمتلك أعداداً كبيرة من الإبل. أما بالنسبة للقطعان التي تمتلكها أيضاً من الأغنام والضأن فهي تعد أكثر بكثير من ذلك. ويدعي هؤلاء البدو أنهم ينحدرون من قبيلة قريش. وقد ظلوا منذ القدم على تحالف حميم معها لا يزال مستمراً حتى يومنا هذا.

وقد يكون من الصعب تحديد عدد المقاتلين الذين بمقدورها حشدهم على وجه الدقة، لكن تقديرات هؤلاء البدو أنفسهم، في هذا الشأن، تجيء متناقضة ومبالغاً فيها. ومع ذلك فإن جميعها تؤكد أن القبائل التي تقطن الأراضي الواقعة بين (الزيمة) والطائف ومكة بمقدورها أن تقوم بحشد ما يتراوح بين (٦٠٠) و(٧٠٠) مقاتل من المشاة الراجلين.

أما بالنسبة للجياد، ففي الوقت الذي تمتلك فيه قبيلة قريش عدداً قليلاً منها فقط، نجد أن قبيلة عتيبة على العكس من ذلك تماماً، تقوم بتربية أعداد ضخمة وكافية منها تعود أصولها وسلالاتها إلى منطقة نجد. وهى طيعة وسهلة الانقياد للغاية، لدرجة أنه يمكن السيطرة عليها وتوجيهها بوساطة الرسن العادي، ولا يقوم أصحابها قط بوضع أية حذوة عليها في أي وقت من الأوقات.

قام (عوم Aoum)[1] شيخ قبيلة عتيبة عند سماعه بنبأ مرور (صمينول Samenoul)[2]، زعيم قافلتنا، عبر أراضيه، بالقدوم إلى هنا لزيارته. وقام العديد من البدو بسوق قطعانهم إلى ضفاف المجرى المائي لتحظى بالشرب منه، وكانت هذه الحيوانات تقوم بإحداث بعض الثقوب في الأراضي الرملية بأقدامها الاثنتين سرعان ما تندفع المياه لملئها حتى منتصفها في الحال، وقد اكتشفنا أنها من نوعية ممتازة بالدرجة الأولى وعلى امتداد هذا البلد، بل ربما حتى بغداد توجد هنالك طريقة ثابتة ومتبعة للحصول على إمدادات منتظمة من المياه. ومن المؤكد أن ذلك هو الذي يجعل العرب يعتقدون أن هنالك مجرًى من المياه الجوفية يمتد على طول الطريق من مكة حتى ضفاف نهر الفرات.

يعد الزي الذي يرتديه كل من أبناء هذه القبيلة وبناتها غاية في البساطة، فهو يتكون من سترة جلدية تشتمل على كمية كبيرة من السيور الجلدية التي تتدلى إلى الأسفل بشكل يشبه الأهداب إلى وسط أفخادهم. أما بالنسبة لنسائهم فإن زيهن أكثر أناقةً، وهن يرتدين الأساور المعدنية على معاصمهن وتحت أكواعهن. أما بالنسبة لأعناقهن فإنهن يقمن بتزيينها باثنين من العقود أو القلائد، أولهما طوق معدني، والآخر سلسلة صغيرة عليها تعويذة أو حلية صغيرة تتدلى حتى خاصرتهن.

وتشتمل هذه التميمة أو التعويذة على طوق جلدي يكون قد تم ضغطه حول الأجزاء العليا، ويكون مغطًى بوصلات صغيرة يكون قد تمت خياطتها

(١) ربما يكون اسمه عون وكتب عوم بشكل محرف (المترجم).

(٢) لا ندري إذا كان هذا اسم زعيم القافلة كما ذكر المؤلف أم مجازياً استخدمه المؤلف وكعادته عند ذكر بعض الأسماء (المترجم).

بدقة وحذق الواحدة فوق الأخرى بطريقة تشبه تماماً حراشف الأسماك، وتبرز متدلية منها بعض الحلقات الصغيرة النادرة التي تصل حتى مفاصل أوراكهن.

وقد قمنا بشراء أحد هذه الأحزمة من سيدة بدوية كانت - مع تشككها في مقاصدنا إلى حد ما، ومع أنها كانت متزوجة لفترة طويلة - غير راغبة في بيعها دون الحصول على إذن من والدها. استفسرت من أحد البدو " ما السبب في إنني لم أوفق في ملاحظة أي أثر لأية خيول أو جمال هنا، مع الوضع في الاعتبار أن هناك ادعاءاً بأنكم تمتلكون أعداداً هائلة منها ؟ ".

"لقد درجنا عادة على ترك هذه الحيوانات في الجبال المجاورة بسبب كثرة العشب وتوافره بها، أما بالنسبة لخيولنا فهي لا تغادر مطلقاً خيام أصحابها في أي وقت من الأوقات".

"وماذا عن قطعانكم من الضأن والماعز التي وإن كانت صغيرة في أحجامها فإنها غاية في السمنة وامتلاء الجسم! وكيف تفسرون اكتسابها ذلك الشكل الذي ينم عن وجود التغذية وسط هذه الأراضي القاحلة بصورة مخيفة؟".

"هذه القطعان مثلنا تماماً، فهي تنمو، وهي معتادة على قوة التحمل عند مواجهة الصعاب - فهي تشكل عادةً ثانية بالنسبة لها. وبصرف النظر عن ذلك، فإنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن الصحراء تبدو قاحلة وجرداء فقط بالنسبة لأولئك الذين لم يولدوا هنا في واقع الأمر . كما أن مربي الماشية المحنك لا يعود إلى مسكنه قط في المساء دون أن يكون قد تأكد تماماً من أن حيواناته قد أخذت ما يكفيها - وبلغت مرحلة الشبع".

"رغم ذلك، فماذا عن السنوات التي لم تهطل فيها أية أمطار ؟".

"هذه فقط هي الكارثة المرعبة بالنسبة لنا. فنحن هنا لا نعاني الأمراض التي تعد وبائية وسط البلدان الأكثر خصوبة في باقي الجزيرة العربية واليمن على سبيل المثال، ومع ذلك فإنه في حالة توقف الأمطار عن الهطول بصورة تلقائية، فإن أعداد الوفيات في قطعاننا ترتفع بصورة مخيفة، وفي بعض الأحيان قد يصحو صاحب القطيع الذي خلد إلى نومه وهو على أحسن حال ليجد نفسه في صباح اليوم التالي وهو من المعسرين".

"لا شك أن لديكم دوماً خيار نقل مخيماتكم، بوصفها ملاذاً أخيراً، إلى أماكن أخرى، حيث تقومون بنصب خيامكم في المناطق التي تكون قد حظيت بنصيب أفضل من تلك المواسم؟".

"ما الذي ترمي إليه بهذا الحديث؟ إن حدودنا الإقليمية محددة بكل وضوح، مثلما هو الحال بالنسبة للحقول في البلدان التي تتمتع بالأراضي الشديدة الخصوبة، فكل جزء على حدة من أراضينا تعود ملكيته لإحدى القبائل، ولهذه القبيلة مطلق الحرية في استغلاله والانتفاع به كيفما شاءت. وتعد هذه إحدى الخصائص التي ورثتها عن أسلافها الذين رووها بدمائهم. أليس الأمر كذلك، وعلى وجه التحديد، عندكم في أوساط شعوبكم؟".

"لا شك في ذلك لكننا نعد جميعاً، أعضاء في أسرة واحدة، وعليه يتوجب علينا أن يقوم كل منا بمساعدة الآخر عندما يواجه محنة أو ضيقاً".

"لا شك، لكننا نحن الأعراب نعد أكثر الرجال كرماً، فنحن لا نتجاهل الفقراءَ منا، فهل شاهدت أي شحاذين أو متسولين وسطنا؟ إنهم في مواجهة ظروف مماثلة لتلك التي في البلدان الأخرى ينتشرون بكثرة وسط الآخرين الذين يوصدون دورهم في وجوههم ويحيطونها بالأسوار الغليظة والضخمة".

كنت على وشك مشاهدة أحد البدو الذين يتسولون بحثاً عن الصدقات خارج خيمتي، فطلبت منه أن يذهب إلى خادمي، فلم يظهر عليه الامتعاض، وإنما بدا غاية في السرور وهو يصرخ قائلاً:

"هل تعتقد حقاً أن السراب يمكن أن يحتوي، في واقع الأمر على ماء؟ وذلك لأنه ببساطة لا يمثل مشهداً يدل على ذلك؟".

لم يكن بمقدوري في هذه اللحظة أن أتبين المعنى الحقيقي المقصود بهذه العبارات المحيرة، لكنني أدركت لاحقاً أن هؤلاء المتسولين لم يكونوا سوى بعض اللصوص الذين كانوا يستغلون هذا المظهر الخادع والكاذب بصورة جيدة بغية تمكينهم من أن يكونوا مقبولين لدى أعضاء القافلة الموجودين بالمخيم دون إثارة أي نوع من الريبة أو الشك حولهم.

"الأعرابي إنسان خيِّر. واصل البدوي حديثه "ولكن كيف يستطيع أن يكفل أسرة أخيه لمدة قد تصل إلى السنة؟ إنه بعد أن يوفر له كل العون والرعاية والضيافة بخيمته لمدة ثلاثة أيام لا يكون مترتبا عليه أي واجب أو التزام تجاهه على الإطلاق".

"والآن أخبرني كيف تستطيعون تمييز الحدود الخاصة بكل قبيلة والتعرف عليها على حدة؟".

"إن طبيعة التضاريس نفسها توفر لنا مائة وسيلة ووسيلة كفيلة بذلك. فقد يكون كافياً للغاية وجود مجرى مائي أو وادٍ أو جبل أو سهل أو تل أو رابية من الحصى أو إحدى غابات السنط أو الأثل[1]، فكلها تقوم جميعا بتأدية الغرض نفسه".

(١) هي شجرة من الفصيلة الصنوبرية (المؤلف).

"وماذا يحدث في حالة تعديكم عليها؟".

"في هذه الحالة يكون من حق القبيلة التي تم الاعتداء على حدودها أن تقوم بصورة مطلقة بحجز قطعان ماشيتك أو قتلها، وسيكون ذلك بالتأكيد سبباً في نشوب الحرب وكثير من الأحقاد المروعة التي قد تكون بأيدي بعض الكلاب الشرسة التي تكون مرافقة لك".

خلال فترة وجودي بمدينة جدة لاحظت أعداداً كبيرة من العبيد السود الذين قادتهم أحياناً الصدفة المحضة أو الفضول في أحيان أخرى، للمرور بطريق مخيمنا المؤقت.

ويقوم البدو أحياناً بالتزوج من هؤلاء الزنجيات، وتقوم حصيلة هذا النوع من الزواج ، لعدة أجيال، وإلى حد ما بالاحتفاظ بسحنات أمهاتهم وملامحهن. ويمكن تعرُّفهم بسهولة من خلال شعرهم الذي يكون مجعدا إلى حد ما، إضافة إلى شفاههم الغليظة والناتئة. أما بالنسبة لأجسامهم الحقيقية، فإنها تكون أقل هزالاً وأكثر امتلاءاً بالعضلات المفتولة من بقية البدو الآخرين.

وينظر إليهم الأعراب على أنهم من الطبقة الدنيا، وينعتونهم بلقب (المولَّد) الذي يعبر عن الانحطاط. علماً بأنه يجب ملاحظة أن الطفل الذي يكون ثمرة زواج بين أحد البدو وإحدى الزنجيات يكون حراً، بينما يعد مثيله الذي يولد نتيجة زواج اثنين من السود عبداً، كما هو الحال بالنسبة لأبويه. ولا يسمح لأسيادهم أن يقوموا، بأية حالة ببيعهم، وحتى في حالة تفكيرهم في ذلك فلا يجرؤ أحد على الإقدام على شرائهم.

ويعد هؤلاء جزءاً لا يتجزَّأ من العائلة، ولا ينفصم عنها بأية حالة. أما

بالنسبة لعملية التزاوج بين أحد الزنوج وإحدى النساء البدويات فلم يحدث أن صادفنا أي نوع من هذا الزواج هنا، وليست هنالك أي جدوى من وراء الحديث عن هذه المعضلة.

استفسرت من أحد رفاقي من الأعراب قائلاً: "هل أعلمتني عما إذا كان هنالك أي نوع من التمييز السياسي بين هؤلاء المواليد أو المولدين وبين البدو الأصليين المنحدرين من أصول عرقية بدوية لا تشوبها شائبة؟". "لا شيء من ذلك على الإطلاق أجابني البدوي: إن دم الأب الذي يجري في عروق الأخير ينفي عنه تماماً صفة العبودية، حتى ولو كان ذلك في تلك الحالات التي تعلق بهم فيها قطرة بسيطة من ذلك. فهم يتمتعون بالقدر نفسه من الحقوق التي نتمتع بها، ويتحملون المسؤوليات نفسها التي نتحملها.

وعلى سبيل المثال في هذا المجال فإنه عندما تكون القبيلة ملزمةً بسداد بعض الغرامة بغرض حل أحد النزاعات وتسويتها مع جيرانها يقوم المُوَلَّدون بسداد نصيبهم منها على قدر المساواة، وكما يفعل الآخرون من أفراد القبيلة. أضف إلى ذلك أيضاً أنه عندما يكون أحد البدو على وشك الأخذ بالثأر نتيجة أي دم تم إهداره وإراقته ، وعلى افتراض أنه يريد أن يقتل أياً من أولئك الرجال المولَّدين، فإنه يمكن أن يصل بذلك إلى القدر نفسه من الاكتفاء والقناعة التي يمكن أن يصل إليها فيما لو كان قد قتل في واقع الأمر أحد أفراد العدو الذين ينحدرون من أنقى الأعراق البدوية الصافية التي لا تشوبها شائبة وأنبلها.

اليوم انخفض معدل الحرارة إلى (٢٩ْم)، ومع أن الشمس كانت مغطاة

بالأمس بالسحب، فإن السماء تماماً كانت صافية وعليه فقد سجلت درجة الحرارة (٣٠°م).

٢٢ / مايو / ١٨٣٤ م : اليوم السادس لرحلتنا

غادرنا " السلط Salt " بعد ساعة من موعد صلاة الظهر. وقد كان من المقرر أن يمر طريقنا بأحد الجبال التي لم يكن أمامنا مفر من صعودها. وقد كان هذا الجبل مكسواً بطبقة من الحجارة المرصوفة التي تشكل درجاً سهلاً تمكنت جمالنا من تخطيه دون أدنى صعوبة.

وقد قام البدو بوضع طبقة مسطحة على هذا الطريق المنحوت كانت تستخدم خلال فترة هطول الأمطار الغزيرة قاعدة للمجرى المائي الذي يكون من المستحيل عبوره دون هذا النوع من الاحتياط.

وبين الفينة والأخرى كنا نقابل هذا النوع من الجبال، ومن ثم وجدنا أنفسنا نصعد وباستمرار إلى الأعلى. وعليه فقد صار العمل اليدوي للأعراب من خلال هذا الصعود المتدرج فوق الجبال ، والذي أشرنا إليه مؤخراً، يبدو أكثر وأفضل تطوراً وإبداعاً، حيث قاموا بشق قناة على امتداد الطريق كان أكثر ضماناً لعدم حدوث أي عقبات أمام تدفق المياه، ومن ثم باتت وسيلة الاتصال بينهم سهلة وميسرة ولا تعترضها أية عقبات في كل الأوقات.

في هذا الوقت خصوصاً بدأنا نسمع صوت العواصف الرعدية التي استمرت تزمجر طوال سيرنا على الطريق، حتى مغيب الشمس. وقد تلى ذلك هطول الأمطار، لكنها توقفت بعد دقائق.

كانت سلسلة الجبال التي كنا نقترب منها تنتمي إلى تلك السلسلة

الضخمة التي تصل بين تهامة، ثم تمتد بعد ذلك فيما يبدو على طول ساحل البحر الأحمر، وقد كانت في هذه المناطق شاهقة للغاية، وشديدة الانحدار، كما كانت بعض الأزهار النادرة تنمو على منحدراتها. وقد كانت قطعان الضأن والماعز التي ترعى عليها، تبدو وكأنها تقوم بعملية توازن، وكأنها تحصل على المساعدة بنوع من المعجزة.

وقد كان الراعي الذي يقوم بمراقبتها يقوم بعمله هذا من خلال صعوده على قمة عالية تتسم بالانحدار الشديد والارتفاع الشاهق في الوقت نفسه. وقد كان يعلق على كتفه بندقيته الحميمة ذات الطراز القديم والملفوفة بغطاء جلدي محكم، وقد انعكست صورته الظلية بصورة معبرة باتجاه الأفق في الوقت الذي كان الأثر المطلق لهذا السيناريو على المشاهد هو العودة بذاكرة المرء إلى مشاهدة جبال (الألب) أو (البرنيس).

ولجعل هذه الصورة تبدو أكثر تكاملاً فإن مجرى أحد الوديان الأخرى الجديدة يقوم بتزويدنا بكمية هائلة من المياه الناجمة عن بعض العواصف الرعدية المفاجئة، ونتيجة لهذا غُطيت ضفافه ببساط أخضر صاف من الحياة النباتية يشعرك بالمتعة عندما تقوم بإلقاء نظرة على كل ذلك بعد أن تكون قد أصابك الضجر من شكل الصحراء الذي يتسم بالكآبة والملل.

والآن تتحول الصخور الجرانيتية للجبال إلى أرصفة وطبقات من الأسبستوس تنتمي أساساً إلى تلك الجبال العالية الشديدة الانحدار. أما بالنسبة للأولى فسوف تعود للظهور قليلاً فيما بعد، حيث تتراكم الكتل الضخمة فيها تحت سطح الأرض. وعلى أي حال فقد شاهدنا أخيراً أحد السهول المغطاة بكاملها بأشجار السنط، حيث بدا لنا من خلال مظهره

العام أننا أصبحنا في ضواحي مدينة الطائف التي يطلق عليها الأعراب لقب (حديقة الجزيرة العربية).

ومن هناك وعلى البعد كان بمقدورنا أن نستشف أننا ننظر إلى مدينة تحتوي على بعض القلاع والتحصينات، والمساجد، والمآذن، والمنازل، ويمكن للواحد أن يذهب إلى أبعد من ذلك ليصرح ويعلن أنه كان بمقدور الواحد منا أن يحظى بمشهد واضح للحراس المسؤولين عن الحراسة.

تلاشت هذه الصورة بسرعة، وكلما اقترب الواحد أكثر، حيث تحولت المنازل إلى كتل من الجرانيت كما صارت المساجد والمنارات مشيدة من كتل أخرى أكثر ضخامة وبروزاً، بينما لم تعدُ الاستحكامات أن تكون شيئاً أكثر من جنبات القمم في أعلى المرتفعات، كما تحول الجنود إلى صخور كانت هي التي تغلب على كل شيء.

لقد كان هذا السهل تحديداً طويلاً بصورة مملة وسقيمة، فقد تطلب عبوره من قبل جمالنا مدةً بلغت حوالي أربع ساعات لإنجاز هذه المهمة، وقد بدت مجهدة للغاية وبصورة مخيفة. أما أصحابها، فبدلاً من اللجوء إلى تلك القسوة العنيفة التي كانت تصدر عنا نحن الأوربيين عند التعامل مع حيواناتنا، فقد كانوا يقومون في واقع الأمر باستمالتها، عن طريق التعاطف معها في محنتها.

وفي واقع الأمر فإن الجزيرة العربية تعد من البلدان التي تعد العلاقة فيها- من بين جميع بلدان العالم - حميمة للغاية بين الرجال وحيواناتهم، فهم قد توصلوا بطريقة ودية إلى فهم مفاده بأن عليهم الإعجاب بعضهم ببعض وإيلائها العناية والرعاية الكاملة، مع العلم بأن أراضيهم القاحلة

التي يلفها وهج الشمس ترفض كل مداهناتهم.

إضافة إلى ذلك فإن هؤلاء الأعراب يسلون أنفسهم في مواجهة الجدب الذي يحيق بأرضهم ومسقط رأسهم عن طريق إيجاد العزاء لأنفسهم مع إبلهم، كما يبدو أن الأخيرة قد توصلت إلى فهم الإحساس بالعزلة السائد وسط أصحابها، ومن ثم فهي تقوم بمنحهم ذلك الشعور المتبادل بالعطف الذي تتيح لتركيبتها الجسمانية أن تقدمه بسخاء مفرط.

ويعد العرب الجمل واحداً من الهبات النادرة والمتميزة التي حباهم بها الله سبحانه وتعالى، فهم يعتقدون بصورة قاطعة أنه، لولا العون الذي يحصلون عليه منه، فإنه سيكون من المستحيل السكن والاستقرار بتلك البلاد. فالجمل يتحمل وحده عبء نقل كل من المتعلقات والأغراض والأسّرة الخاصة بصاحبه لمسافات طويلة أثناء السفر والتنقل.

وفي واقع الأمر هو يقوم باصطحاب صاحبه حتى ساحات المعارك، ويقوم أحياناً بإنقاذه من موت محقق. وعليه فهو قد أثبت بشدة تحمله أنه يشكل دعامة لمجموعة عريضة من الأسر التي يحافظ على بقائها في حالة من السعة والثراء، والتي تعده بمثابة الأب الثاني لها، حيث إنها تعد صبره وتحمله للأعمال الشاقة العامل الرئيس الذي يعود إليه الفضل في بقائها في حالة من الثراء والحفاظ على ممتلكاتها.

إضافة إلى ذلك فإن العربي الوفي الذي يحفظ الجميل لا يعامله على أنه شيء من فصيلة الحيوانات يمكن استخدامه أو إساءة معاملته حسبما يكون الحال، بل ينظر إليه، بدلاً من ذلك، نظرة صديق حميم، وكأحد الذين بمقدوره احترامهم لدرجة اتخاذ الترتيبات اللازمة لقيامه بمشاركته في

بعض الحقوق الدينية التي فرضها الرسول (صلى الله عليه وسلم) على جميع المؤمنين الصادقين في عقيدتهم.

وبهذه المناسبة سأقوم بتحديد إحدى الممارسات المتصلة بعملية الاتصال الجنسي بين زوج من الذكور والإناث. نعلم أن المسلمين يظنون أنهم قد اتسخوا بالجنابة عند ممارستهم لهذا النوع من الاتصال بالمرأة إلى أن يتطهروا من ذلك بالاغتسال الكامل.

لا بأس! فالبدو يعتقدون كذلك بأنهم قد قصَّروا في واجباتهم الدينية عندما يهملون، في أية ظروف مماثلة، سكب الماء أو التراب على الأعضاء التناسلية لجمالهم. بل إن هنالك بعضا منهم يتمادون في الذهاب بعيداً في هذه الممارسة الشاذة والغريبة عن طريق تغطية تلك الأعضاء التناسلية لهذه الحيوانات تماماً بمنشفة ضخمة خلال عملية ممارسة الاتصال الجنسي هذه. وسيكون بمقدور المسافرين أو الرحالة الذين وصلوا حتى مصر فقط أن يشهدوا ما يؤكد حدوث هذه الممارسة.

يقوم الأعرابي بمشاركة جمله أفراحه وأتراحه، ويقوم خلال السفر، وبغرض تخفيف متاعبه، بتذكيره ومواساته عندما يسرد له أجمل لحظات شبابه أو غيرها من الروايات التي نقلت له عن أجداده.

ويقوم الجمل بمواصلة سيره قُدماً للعديد من الأميال وفي حركة بطيئة ومحسوبة، وهو يستمع بكل سرور وانتباه إلى هذه الحكايات التي يرويها صاحبه عن ذكرياته. وفي الحالات التي يكون صاحبه مليئاً بالإعجاب بشجاعته يتحدث له عن أسلافه وعن أسرته التي انحدر منها، وهو يركز في هذه الأثناء على أن الأصول التي ينحدر منها تعد واحدة من تلك

المشهورة بالأسفار الطويلة للغاية، ثم يدعو له بطول العمر إضافة إلى كثرة الذرية.

يتحدث إليه البدوي من خلال هذه السطور قائلاً: "لقد كان أسلافك دوماً وفي كل الأزمان من عمالي الذين يعتمد عليهم، وإنه ليجدر بك أن تعلم أن أحدهم قد قام بنقلنا أحياناً من بلد لآخر دون أن يراوده أدنى إحساس بالأسى على نفسه، وإنني أعتقد أنك جدير بأن تكون مثلهم وأنك ستكون أهلاً للسير على خطاهم والمحافظة على سمعتهم الطويلة والطيبة، وعليه وإمعاناً في إقناعك برضائي الكامل، فإنني أقسم لك بأننا سنظل صديقين حميمين إلى الأبد. وإنني الآن على وشك أن أسرد لك القصة المتعلقة بالإنجازات والأمجاد الخاصة بأسرتي شخصياً، والشهرة الطيبة والواسعة التي تتحلى بها قبيلتي" وبعد أن ركب بارتياح على ظهر حيوانه النبيل بدأ في سرد تلك الرواية الطويلة والمتنوعة التي تخللتها تلك الاستعارات المدهشة التي اشتهر خيال الأشخاص الشرقيين بالإسراف المفرط في حبكها وصنعتها.

وعندما انتهت كل هذه القصة المعبرة قام بتمني وعرض المزيد من الوعود المغرية عليه مستقبلاً، وقدم له نكهة من التبغ المنبعث من غليونه عن طريق جعل بعض نفثات الدخان تمر قريباً وباتجاه أنفه، وأكد له بعد ذلك مطمئناً إياه بأنه سوف يعده الأول في مكانته من بين كل جماله، وأنه سوف يجد فيه الرفيق الذي لن يغفل أو يتجاهل أبداً أي شيء يمكن أن يؤكد له رضاءه عنه وارتياحه إليه.

ولم يفشل قط طيلة كل هذا الحديث، وفي أية لحظة، في أن يطلق عليه

لقب الصديق الحميم أو الأخ.. وغيرها من الأسماء والعبارات الأخرى الدالة على عزته ومكانته الحميمة. إضافة إلى ذلك كان الأعرابي في اللحظات التي يحس فيها بالمرح بصفة خاصة، يقوم بشحذ رومانسيته أو غيرها من الأهازيج الشبيهة بأغاني الحروب والحماسة ليقولها له.

وكانت الجمال تصغي إليها بانتباه شديد، وبغرض توضيحه لمدى السرور والفرحة التي استمدها من ذلك كان يجذب فكيه بشدة بعضهما إلى بعض محدثاً صريرًا بأسنانه، ثم يلف رأسه في انحناءة تبدو كأنها موجهة باتجاه الرجل الذي تصدر عنه هذه الأغاني والأهازيج، حتى يظهر له مدى انتباهه وإنصاته إلى ذلك بصورة أكثر قرباً.

وبما أنه كان يبدو منهمكاً في الاستماع إلى هذا الصوت الموسيقي الخشن، فقد كان يبدو في صورة يكون قد نسي معها ما ينوء به من حمل ثقيل، ويستمر في السير ليقطع مسافات طويلة، ويتيح من ثم لكل من أصحابه بأن ينقلوا لأحفاده تلك الذكريات والحكايات الخاصة بهذا العمل البطولي الفذ.

مع ذلك فإن شدة الجدب في الصحراء القاحلة تعد شيئاً مروعاً للغاية، وهي تكشف عن نفسها بوساطة علامات ومؤشرات لا يتطرق إليها الشك، وذلك من خلال الإرهاق الذي يكون متوقعاً أحياناً، أو عن طريق حدة المزاج التي تظهر على هذا الحيوان، وعليه يتغلب عليها صاحب الحيوان الذي غلب عليه الاستفزاز الشديد بصب لعناته وجام غضبه بدلاً من الأشياء الجميلة التي سبق أن وعده بها، أو تلك الوعود التي أقسم على تقديمها له مقابل جميله. وعليه يبدأ بإطلاق عبارات (يا ابن الكلب)، (يا يهودي)، (يا نصراني).

(هل نسيت بأنك تتحدر من جنس خبيث، وأنك خادمي الشخصي؟ وهل تعلم جيداً بأن لي مطلق الحرية في هذه اللحظة والحين أن أضع حداً لحياتك دون أن يكون لأي أحد، كائناً من كان، الحق في أن يعترض طريقي في ذلك بأية عقبة؟).

(إنني أرجو من الله أن يعاقبك عقاباً إلهياً مقابل تراخيك وشخصيتك القذرة. ولسوف أنظر في ذلك بأن أنقل لذريتك وأحفادك ذكريات عن سلوكك الشائن وما تعانيه من نقص كامل في الشجاعة والإقدام، ولسوف أدعو عليك بأي شيء يمكن أن يضع حداً لحياتك، وعقاباً لك على أساليبك الماكرة والخبيثة فإن الله العظيم جلت قدرته سوف يحولك إلى طعام للكلاب الضالة والصقور المفترسة) (هل تتذكر أبداً بأنني قد كنت الدعامة الأساسية لأسرتك وأنني قد قمت بتدليلك وإعزازك عند تربيتك حينما كنت صغيراً ؟ إنك بالتأكيد لا يمكن أن تنسى بأنني قد بذلت كل أنواع التضحيات بغية التأكد من وصولك إلى الوضع الذي تجد نفسك عليه الآن ؟ أليس الأمر كذلك ؟ أين يوجد ذلك الجمل الآخر الذي يحمل على ظهره ذلك السَّنام الممتلئ الذي يقع تحت رَحْلِك؟[1] هل نسيت أنني اشتريت لك التعويذات لحفظك من أعين الحاسدين، وحتى تتقدم في عمرك بكل سرور طيلة حياتك وبدون أية عقبات أو نكسات حتى تصل إلى العمر المديد الذي يكون جديرًا بكل الجمال المعرضة للحسد؟).

(ومع ذلك أيها الكافر النصراني، فقد أدركت الآن أن كل الأعمال الكريمة التي قمت بها تجاهك قد ضاعت كلها هباء منثوراً ودون جدوى،

(١) يقوم العرب بتقدير امتياز الجمل طبقاً لامتلاء سنامه. (المؤلف).

وأنك لست سوى شيطان قذر خطير! أتمنى أن يقوم الله المنتقم الجبار[١] بتفجير صاروخ في عينيك أو في معدتك أو في رأسك، وأن تقوم الكلاب بأكل جثتك، بل وأتمنى أن ينزل عليك أحد الأمراض الوبائية لتصيبك بالعجز والشلل ! ثم ماذا بعد ؟ أتمنى أن تصاب بالعجز الجنسي حتى تنقرض سلالتك الملعونة وتختفي بمجرد موتك! إذ أن بقاءك على قيد الحياة يعد خسارة بالنسبة لي، والأكثر خجلاً هو مجرد أن تكون قد ولدت. يا سلالة اللصوص! يا كافر يا عديم الإيمان. لعنة الله عليك وعلى آبائك وأجدادك وكل الذين كانوا سبباً في أن ترى النور)!.

يقوم أولئك الأعراب بشراء التعاويذ التي يعلقونها، فتتدلى فوق رقاب جمالهم بغرض حمايتها وحفظها من أعين الحاسدين، وعادة ما تكون تلك التعاويذ غريبة وشاذة إلى حد ما، وذات شكل غير مألوف، حتى تكون قادرة على امتصاص كافة الرغبات الشيطانية لأعداء أصحاب هذه الجمال بداخلها، والذين يكون لديهم اهتمام كبير بطبيعة هذه التعاويذ وشكلها أكثر من اهتمامهم بالجمل نفسه.

وعادة ما يتم صنعها من جلود الحيوانات الشريرة والحاقدة أو بوساطة الأوربيين، لأن كل شكل كان مملوكاً للنصارى يعد ملعوناً وموجهاً باتجاه العفاريت والأرواح الشريرة، والتي تحظى بتقدير واعتبار كبير لهذه

---

(١) لا يتحدث العرب شأنهم كبقية المسلمين بصفة عامة بعبارات مثل " الله المنتقم الجبار " لأنه لا يعد مناسباً ولائقاً من خلال ترديدهم لها أن يقوموا ضمناً بتوضيح أن هناك العديد من الآلهة، إذ أن ذلك يعد بدعة يجب على المؤمن أن يقوم أساساً بتفاديها حيث إنه يعد من المعلوم أنهم من أشد الناس حماسة لدعم التوحيد الكامل الشامل في كل من الشؤون العقائدية والسياسية (المؤلف).

التعاويذ أكثر من الحيوان نفسه، تقوم بجذب كل هذه اللعنات إلى نفسها.

وعليه فقد اعتادوا غالباً اختيار ذنب الثعلب أو براثن الذئب، أو أسنان الضبع، وفوق كل هذا وذاك، الأحذية الصغيرة للأطفال الرضع الذين لم يحدث لأبويهم اعتناق الإسلام.

دعونا نعُدْ إلى قصتنا مرة أخرى. الآن وبعد أن خمدت الروح المعنوية العالية والنشاط الذي كانت تتمتع به قافلتنا لبعض الوقت، فقد استعادت حيويتها ونشاطها مرة أخرى بصورة مفاجئة، فقد وعيت الجمال وأدركت الحقيقة الماثلة بأن مسيرتها الطويلة قد شارفت على الانتهاء، وقد غدا واضحاً من خلال صرخاتها الشرسة بأنها على علم تام باقترابنا من ضواحي المنطقة التي تجود عليها بالمياه.

وقد أوضح لنا البدو من خلال الظلمة الحالكة الناشئة عن الكثافة الشديدة لكتل الأشجار، بل أحاطونا علماً، بأن هذه النقطة هي الخطوة الأولى على طريق اقترابنا من الحدائق المحيطة بمدينة الطائف.

وقمنا بعد ذلك بنصب مخيمنا في مكان يدعى "أم الحميض "، وألقينا بخيامنا تحت أشجار الجميز الضخمة، ومع أن الوقت كان متأخراً جداً في ذلك المساء، فقد قام أصحاب الحدائق بإحضار بعض التموينات اللذيذة لنا من الفاكهة التي قمنا بشرائها ببضع قطع من العملات المعدنية .

٢٣ / مايو / ١٨٣٤ م : اليوم السابع لرحلتنا

لقد كنا في واقع الأمر غير مستعدين لتحمل المزيد بغية الوصول إلى وجهتنا المقصودة كما خطط لها في رحلتنا. ولم تكن الشمس قد بدأت تسليط أشعتها علينا بعد، عندما قمنا مرة ثانية بشد رحالنا في مواصلة

مسيرتنا، تاركين وراءنا - عند نقطة التوقف المذكورة - بعض رجالنا وجمالهم التي أصابها التعب بصورة شديدة، والتي شغلت أنفسها الآن باستعادة قدرتها على الاحتمال من خلال رعيها الحشائش الخضراء التي تنبت بمنطقة "أم الحميض" هذه. وبعد مسيرة ساعتين وصلنا مباشرة أمام مدينة الطائف حيث قمنا بنصب مخيمنا لفترة مؤقتة تحت ظلال أشجار التين الكثيفة والضخمة. وعند منتصف النهار تقريباً انضم إلينا الأعراب مرةً أخرى وهم بصحبة أحمالهم من الأمتعة، وقد كانت جمالهم بحاجة إلى أربع ساعات لقطع تلك المسافة.

الفصل التاسع

تلك إذن هي المدينة التي أطرى عليها الكُتاب العرب كثيراً في أوصافهم. وقد يجد أولئك القراء الذين اطلعوا على الفصل السابق أنها، دون أدنى شك، لا تستحق كل تلك الشهرة الواسعة التي تتمتع بها في الشرق، ولكن دعهم يتحلون بالصبر قليلاً لبعض الوقت.

تعد مدينة الطائف شبيهة بطاولة قديمة ومتآكلة، لكن قيمتها الهيكلية والتصميمية لا يمكن أن تقوم بصورة مماثلة. فهي مثل سيف عريض يكون حده مغلفاً داخل غمد من الذهب.

وسوف يستمتع المسافر الذي شوته شمس تهامة الحارقة، وكذلك الرجل الذي اعتادت عيناه التحديق في الوديان الجافة والسهول المغطاة بالرمال، والجبال ذات الصخور المتناثرة الموجودة بتلك المنطقة بالميل إلى المرح والسرور عند مشاهدته منظر الحدائق التي لا حصر لها، والتي تحيط بالمدينة ، عندما يصبح جسمه حراً طليقاً من حرارة الشمس اللافحة، فسوف تداعبه تلك المشاعر السارة واللذيذة الناتجة عن الجو المنعش.

يمتلك سكان الطائف في الواقع عدداً قليلاً من الحدائق. أما معظمها فتعود ملكيته لأشراف مكة ووجهائها وشيوخها الذين يأوون للسكن هنا عندما تكون حرارة الصيف الحارقة سبباً في جعل إقامتهم بمدينتهم المقدسة شيئاً لا يطاق.

وخلال تلك الفترة تأخذ المنطقة المجاورة طابعاً يتسم بالحيوية والحركة الدؤوبة، حيث يكون هنالك العديد من الرجال الذين يكونون مسؤولين عن تصريف مهام الكعبة وشؤونها. كما أن التجار الذين تغلغلت فيهم روح التجارة بصفة عامة، يأتون إلى هنا أيضاً لإراحة أنفسهم من أعمالهم العادية.

وعندما يحين وقت الصلاة تشاهد جموعاً منهم تمر سريعا عبر السهل الجاف الذي يؤدي إلى بوابات الطائف حيث يتجمع كل هؤلاء عند مسجد أبو العباس. (ابن العباس)، وقد ركب المالك منفرج الساقين على بغل جميل، وهو يجلس على سرج واسع مطعم بالحلي والنقوش ويصحبه كثير من العبيد الذين يقومون بفرش السجاد ذي النوعية الجيدة والقيمة العالية الذي جرت العادة بأن تؤدى عليه الصلاة في كل أرجاء الفضاء المفتوح الواقع أمام المسجد.

وتحضر بعض النسوة أحياناً هناك بغرض زيارة القبة، وهن يجلسن على حميرهن متدثرات بحجبهن لحمايتهن من نظرات الآخرين، ومن أشعة الشمس الحارقة. ويقوم المكيون دائما باصطحاب الحريم معهم في الأسفار كغيرهن من ممتلكاتهم وأمتعتهم التي يحملونها في حالات السفر، مثلما نقوم نحن بعمل مسودات كتبنا وذلك كلما قاموا برحلة إلى الريف، ويعد ذلك النوع من التحوط ملائماً إذا وضعنا في الاعتبار حقيقة أن المسلمين لا يقومون ببساطة على الإطلاق بالاقتراب من زوجات الآخرين.

وبما أن الطائف تعد منتجعاً لمنطقة الحجاز، فقد درج أولئك الناس من ذوي الوظائف الرفيعة على التجمع سوياً بمنازلهم على شكل مجموعات

رئيسة. ويتحدثون في أمسياتهم، وبكل جدية، عن الأمور السياسية، لكنهم نادراً ما يتطرقون إلى الدين. وتدور كؤوس القهوة والشاي بينهم بصورة لا نهاية لها. ويقوم الرجال بلعب النرد أو الطاولة أو الشطرنج إذ يكون ولعهم وإعجابهم الشخصي هو الرهان الوحيد فيها. وفي بعض الظروف الخاصة يتم استدعاء بعض الراقصات الماهرات اللائي يرقصن على أنغام الموسيقى، الشيء الذي يتناقض بصورة مباشرة مع تعاليم القرآن الكريم.

تتخلل كل الجبال التي ترتفع محيطة بمدينة الطائف على شكل حذوة الحصان - والتي تنحني إلى حد ما صوب المدينة - بعض الوديان الصغيرة التي تبرز باتجاه السهول التي توجد بها الحدائق، وهنا تتاح كثير من فرص المساومة للبدو العاملين في مجال البيع والشراء.

وتتكون هذه الجبال من مواد السيليكا والاسبستوس إضافة إلى الجرانيت الأحمر أو الرمادي التي يعود تكوينها إلى العصر الأول أو الثاني. أما بالنسبة لتلك التي تعود إلى الثاني أو الأخير فهي لا تمثل شيئاً سوى القشرة الأرضية المكتنزة، بينما تنقسم الأخريات - على العكس من ذلك - إلى طبقات متوازية ، تكون العديد منها أفقية، بينما ينحدر معظمها باتجاه الأفق. وتكون الشقوق نفسها أو الصدوع التي تفصلها بعضها عن بعض مكسورة ومجزأة بفعل تصدعات جديدة تكون رأسية أو منحرفة، والتي عندما تخترق الكتل الصخرية بصورة متقاطعة تقوم بتقسيمها إلى مربعات أو مستطيلات أو أشكال متوازية الأضلاع.

لقد لاحظت - في أحيان نادرة غالباً - العديد من الشقوق التي تبلغ سمك الإصبع وسط الصخور الجرانيتية، والتي تكون مكونة من المرو الذي

يتبع الاتجاه نفسه كغيره من الأخريات، لكن هذه الطبقات الخفيفة إلى حد ما لا تقوم قط باعتراض طريق بعضها البعض. وتشكل كل هذه الجبال مشهداً من الجدب المروع، ومع ذلك فقد اكتشفت في بعض الأحيان بعض النباتات الصغيرة بدرجة معقولة، والتي تنتمي في الغالب الأعم إلى فصيلة (الأنتميدس Antemides).

لقد تمت زراعة هذه الحدائق نفسها على الأرض الواقعة بين الجبال والمدينة. فأما تلك التي تعود ملكيتها إلى الأثرياء فهي محاطة بسور عال من الأشجار. ومن خلال هذه، وتحت ظلال كل الأشجار مررنا بالمنازل والصنادق أو الأكشاك الخاصة بأصحابها، وتتيح لهم العديد من المنازل الصيفية (المصائف) الموجودة وسط الخضرة الفرصة لتلقّي الزيارات من نسائهم وسط هذا المنتجع الذي يلوذون به هروباً من أشعة الشمس الحارقة.

أما بالنسبة للملاك الأدنى مرتبةً فيكتفون بتسوير حدائقهم بنوع من الأسياج الترابية التي يضعون عليها حاجزاً من النباتات الشوكية. وقد جرت العادة أن تقام في جانب منها بعض المزارع الصغيرة إضافة إلى بعض الإقطاعيات الصغيرة المخصصة لأولئك الذين يقومون بزراعتها.

لقد مررنا في حدائق الطائف بالعديد من الأشجار والنباتات التي جرت العادة أن تكون موجودة ضمن الحدائق الأوربية، وهي:

أشجار التين	أشجار الخوخ	أشجار الحمضيات
أشجار الجميز	أشجار اللوز	أشجار الموز
أشجار التوت	أشجار البرقوق	أشجار التفاح
أشجار المشمش	أشجار الرومان	اشجار الكمثرى
أشجار اللوتس	أشجار النخيل	

وبالنسبة لشجرة التين فهي الأكثر سواداً هنا. ويقصدها أهالي الطائف لأنها أوفر ظلاً. ولا تكون ثمرتها في الواقع أكبر من اللوزة، وهي تبدأ في النضوج حوالي الأسبوع الأول من شهر يونيو. وبالإضافة إلى ذلك تتم زراعة العديد من أشجار التوت وتربيتها، وهي تنمو وتتكاثر منتجة نوعاً من الفاكهة يميل إلى الاحمرار والحموضة يكون مشابها في طعمه - وبدرجات متفاوتة - للفراولة.

إذا ما رغب العرب في أي وقت في تشكيل بعض بيوت الشعر الشبيهة بدودة القز وغزلها، فإني لا أشك مطلقاً في أنهم سوف ينجحون في ذلك بصورة تامة.

أما بالنسبة لشجرة اللوتس فهي التي تنمو بطول شاهق في هذه الأماكن. وفي حالة نموها بصورة برية تنتج نوعاً من الفاكهة التي يفترض أن تكون صفراء اللون، لكن من الأفضل استهلاكها عندما يكون لونها شبيهاً بلون الأوراق المتساقطة. وبالنسبة لطعمها فهو حلو يميل إلى الحموضة وكريه قليلاً. وتصادف الناس العديد منها في أعالي الحجاز، ويعد ذلك من الأشياء السارة عندما يأوون إليها أثناء السفر.

أما بالنسبة لتلك التي تتم زراعتها في الحدائق، فهي أكثر اكتنازاً وأحلى مذاقاً عند أكلها. وتعد هذه الشجرة مفضلة بدرجة عالية بين العرب، وذلك بسبب ورود ذكرها في القرآن الكريم إذ ورد النص على أنها من الأشجار المخصصة لسكان جنة الفردوس[١].

قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): "إن أصحاب اليمين يتجولون بين أشجار اللوتس التي لا توجد بها أية أشواك".

---

(١) قد لا يكون النص مطابقاً بل نقصد به المعنى العام. (المترجم).

وقد أكد عيسى، وهو أحد مفسري الكتاب المقدس، بأنها تحتفظ بندرتها إلى الأبد كما أنها تقوم بتوفير سقف ظلي هادئ ومريح.

أما بالنسبة لأشجار النخيل فهي نادرة للغاية. وخلال كل جولاتي المتعددة وقعت عيناي فقط على ثلاثة منها. ويبدو ظاهرياً أن المناخ ليس معتدلاً بما فيه الكفاية بالنسبة لها هنا.

وبالنسبة لأشجار الرمان فهي تنتج فاكهة حجمها قريب من حجم الكشمش (عنب الثعلب) العادي (gooseberry). وعموماً فإن ثمار شجرة الرمان تكون بيضاء في داخلها، ولذيذة الطعم وحلوة للغاية، ويبدأ الناس بأكلها في حوالي منتصف يونيو.

أما بالنسبة لأشجار الحمضيات، فتعد مطابقة للعينات نفسها الموجودة بمصر، وبالنسبة لثمارها، فهي أصغر قليلاً في حجمها من ثمرة الجوز. أما بالنسبة للموز الموجود هناك فيتميز بطعم خاص، لكنه أدنى كثيراً في نوعه من ذلك الموجود باليمن.

وفيما يختص بالجزيرة العربية فتعد الطائف أرضاً تقليدية بالنسبة للزبيب الأزرق. فمن ناحية يقوم العديد من المزارعين بنشر فروع العنب على التعريشات المرفوعة، ومن ناحية أخرى يقوم البعض فقط بالسماح لشتلات الكرم بالارتفاع إلى أعلى حتى (٣) أو (٤) أقدام، ثم يقومون بالإبقاء عليها في هذا الوضع بواسطة الدعامات.

ويتم تصدير كميات كبيرة من هذا الزبيب إلى كل من مكة وجدة حيث يلتهمها كل من الجنود الأتراك والمواطنين بكل نهم. وهي في الغالب بيضاء اللون وحلوة المذاق، وبذورها صغيرة للغاية ومن العادة ألا يحس بها الإنسان

وهي تحت أسنانه. ولم يحدث أن قام العرب بتحويلها إلى خمور بصورة مكشوفة، ومع ذلك فقد كان من المعلوم جيداً أنهم يقومون بتقطير البراندي الذي يستهلك منه سكان مكة دائماً كميات كبيرة. ويقوم أهل الطائف أيضاً بالاتجار بكميات كبيرة من الزبيب المجفف.

أما بالنسبة لأوراق هذا الكرم فهي ذات لون جميل وضارب إلى السواد، الشيء الذي يلقي نوعاً من التوافق والانسجام مع الألوان الجافة الموجودة في الجبال.

وعلى افتراض أننا صرنا نقترب الآن من موضوع النباتات الخضرية المسكرة فهذه قائمة بأكثرها شيوعاً:

الحمضيات	الأوبرجين	الفواكه الأرجوانية
الشمام أو البطيخ	الفليل الأحمر	البطيخ
اليقطين	البصل	القرع
الخيار	فاكهة المحبة	

وليس لدي من تعليق مهم على هذه النباتات، ومع ذلك فسوف أسوق تعليقي القائل إن الشمام هو الأكثر امتيازاً، وإنه في مقابل (٢٠) أو (١٠) أو (٥) قطع نقدية معدنية يمكن للناس أن يحصلوا على كمية من الشمام تكون معادلة مع قليل من الخبز لتزويد الفرد بوجبة تكون كافية ليوم كامل. وإنني أنصح كل المسافرين المتوجهين إلى الطائف بأن يكونوا متشككين في الفواكه بصفة عامة، وأنه من الأفضل أن يتم أكلها في البداية بحذر في حالة ما إذا رغب الشخص بالاحتفاظ بصحة جيدة.

ويقوم المزارعون هنا في الطائف بزراعة كميات محدودة للغاية من

الأزهار في الحدائق، ومع ذلك فهم يعدون أساتذة في فن زراعة الورود التي يقومون بتوزيعها في كل أرجاء منطقة الحجاز، وتعد هذه واحدة من مصادر دخلهم الرئيسة والأساسية.

يتم سقي كل حديقة على حدة بواسطة الآبار التي تم تشييدها من الحجارة، وتقع المياه على عمق يتراوح ما بين ٢٠-٣٠ قدماً إلى أسفل ، وبغرض ضخها إلى أعلى يقومون باستخدام دلو أو غرب يكون مربوطاً بحبل يتم لفه حول بكرة تكون موصولة إلى محور يرتكز على اثنتين من السنادات المرفوعة على جانبي البئر. وبما أن الجهد المطلوب بذله يكون شاقاً للغاية بالنسبة للرجال، فقد جرت العادة على استخدام الحيوانات الأليفة، وأحياناً يقومون بربط حمار إلى ذلك الحبل، وأحياناً جمل، وفي معظم الأحيان يتم ربطه إلى بقرة، حيث تشق طريقها عبر الجانب الأيمن من البئر إلى أن يصل الوعاء الجلدي إلى مستوى مريح.

أما بالنسبة للأرض التي تطأها هذه الحيوانات فتكون قليلة الانحدار حتى تخفض من عنائها لأقل درجة ممكنة ، ويتم وضع أحد الأولاد أو البنات عند نهاية مسارها، وتكون قبضة يده مليئة بالحشائش أو التبن، وذلك بغرض إغرائها للاستمرار في السير حتى نهاية الطريق[١].

وتصب هذه المياه في بركة شبيهة بالحوض، تكون مشيدة من الطوب أو المعكرون، ويتم ملؤها بطريقة أو بأخرى طبقاً للاحتياجات أو المتطلبات الراهنة. ويتم تسوير كل الأراضي المزروعة بين أربعة سياجات تكون محفورة مثل قناة صغيرة في أعلاها.

(١) لم يصف المؤلف هذه الحالة جيداً.. وما يتحدث عنه هي طريقة الري المستخدمة في حينه (السانية) في الجزيرة العربية وتدعى في مصر الساقية والحيوانات تدفع للعمل دفعاً إما بالترغيب أو الترهيب وليس بالترغيب وحده. (المترجم).

أما بالنسبة للمساحة التي تشغلها فتكون مقسمة إلى مربعات صغيرة ذات شكل قياسي تكون حوافها مجوفة إلى حد ما. وعليه فإن المياه تتدفق خلال مجراها من البركة، وعلى امتداد السياجات، بحيث يتم توجيهها حسب الطلب بواسطة وضع ثغرات للأجزاء المربعة المراد ريها.

ويتم ترتيب المساحات المزروعة وتنظيمها بواسطة المزارعين أو عمال البساتين بالطريقة نفسها. ويكون الهدف من السياجات - إضافة إلى ذلك - حفظ المزروعات وحمايتها من فيضانات المياه التي تتدفق من الجبال خلال مواسم الأمطار الغزيرة. وتعد هذه الوسائل والأنظمة الخاصة بالسدود والآبار والحيوانات اللازمة لنشل المياه ورفعها إلى أعلى ضرورة ملحة، وهي التي تحول دون قيام سكان الطائف بزراعة أية امتدادات واسعة من الأراضي الشاسعة. ويمكن فقط أن يحدث ذلك من قبل الأشخاص الأثرياء للغاية.

أما بالنسبة لأولئك الأشخاص المصنفين ضمن الطبقات الفقيرة، فليس بوسعهم القيام بتشكيل شركات أو جمعيات يمكن أن تضعهم في مصاف الأثرياء، وعليه يضطرون إلى العيش عمالاً متواضعين لأصحاب هذه الحدائق.

لقد تفقدت بتمعن أغلب الحدائق الواقعة هنا، حيث صادفتني حديقة واحدة فقط بها بئر حقيقية تستخدم العجلات، وقد كانت تلك مملوكة لأحد الهنود، الذي أشرف على إنشائها بطريقة مشابهة للنموذج المستخدم عادةً في بلده. وقد كانت الآلة مطابقة لتلك المستخدمة في مصر. وهي تتكون من عجلة أو إطار كبير يقوم بالتحكم في أحد الحبال التي تم وصلها

بأوعية مصنوعة من الطين الناضج (التراكوتا). وفي وسط كل ذلك تم بناء كوة صغيرة تقع تحتها بعض الإطارات ذات الأسنان الأفقية التي تشبك بعضها في بعض وهي مجهزة برافعة ضخمة يتم جرها بواسطة حمار أو جمل، بل في بعض الأحيان بواسطة كليهما في الوقت نفسه. وبالطبع تقوم هذه بإنتاج كميات وفيرة للغاية من المياه.

قمت بسؤال المالك قائلاً: "لماذا لم تكترث بتزييت عجلات المكنة الخاصة بك؟".

أجاب المالك: "سوف يكون ذلك مكلفاً للغاية".

- "ومع ذلك فإني أعتقد أنك ستوفر بهذه الوسيلة أكثر مما يكلفك إياه العمل دونها".

- "ذلك صحيح تماماً، لكنه سيدخلني في معضلة كبيرة".

- "وما هي تلك المعضلة؟".

- "هذه فقط، فعندما أكون بعيداً عن حديقتي لمتابعة الأمور الخاصة بأعمالي التجارية فلن ينجح رجالي في ترك الماكينة بحالة جيدة لقضاء بعض لحظات من الراحة تحت ظلال الأشجار، إذ أن صوت المكنة يعد أفضل وسيلة للرقابة تجعلني ملماً بكل حركاتها وسكناتها، وهم على علم تام بذلك، وعليه يكون من الصعب تماماً بالنسبة لهم أن يقوموا بترك عملهم ولو للحظة واحدة، لأنهم يعلمون جيداً أن العصا ستكون بانتظارهم في هذه الحالة".

- "إذن أنت تعتقد أن الرجال يعملون فقط خوفاً من الجلد؟".

- "الرجال كالمياه تماماً، فهم يتساوون تماماً في أن كلاً منهما يتبع توجهه ومجراه العادي".

ثم تابع قائلاً: "العصا بالنسبة للخادم مثل الخزان أو السد بالنسبة لعنصر المياه. فبمجرد إزالة الحاجز أو العائق تندفع المياه على الفور في مجراها. وإذا قمت بكسر العصا فإن الرجال سوف يتوقفون عن أداء عملهم طبقاً لرغباتهم التي تميل إلى جعلهم يبحثون عن الاستمتاع بمباهج الحياة ومسراتها دون القيام بأي عمل".

كل هذا يلخص نظرة كل الأثرياء من الشرقيين حول موضوع العمال، فقد فشلوا في أن يتقبلوا بأن نظريتهم في هذا الشأن يمكن وبكل سهولة أن تلتف ضدهم لتطوقهم هم أنفسهم، إذ أن سعادتهم وفرحتهم تتكون نتيجة للمباهج التي تتلخص في عدم قيامهم على وجه التحديد، بأداء أي عمل. والأمر يعد هنا - كما هو الحال في أي مكان آخر - بأن العاطلين عن العمل يعتقدون أن الله قد جاء بهم إلى هذه الدنيا ليستمتعوا - ولصالحهم فقط - بالجهد الذي يبذله المنتجون الحقيقيون.

كنت لا أزال تحت رحمة هذه الأفكار والتأملات العميقة عندما شاهدت صاحبي الهندي ينهض فجأة، وكانت ملامحه تنم عن علامات واضحة من الرعب. ولقد كنت في شك من إيجاد تفسير لهذا التغير المفاجئ عندما سمعته فجأة يصرخ بكل قوة قائلاً: "الله، الله، ادفعوا عنا هذا البلاء الذي يهددنا، واقذفوا به في اتجاه الوثنيين".

ولقد كنت على وشك أن أقوم بتلبية استغاثته عندما جذبني بيده قائلاً:

"انظر إلى أعلى باتجاه الأفق الشرقي".

فحدقت إلى أعلى في ذلك الاتجاه، حيث علمت أن خط الأفق ما زال بعيداً عن أن تمس زرقته شيء كالعادة.

وفي هذه اللحظة قام بتوجيه عماله ليقوموا بالبحث عن كل المعدات والأدوات اللازمة لإشعال النار وتلك الخاصة بالطبخ والتي تكون موجودة بمنزله. وقد انطلق هؤلاء الرجال مغادرين بأقصى سرعة تحملهم بها أرجلهم، وبينما كانوا في طريقهم على هذه الحالة طلبت من الهندي أن يقوم بإطلاعي عن السبب الحقيقي لخوفه.

فأجابني قائلاً: "ذلك واضح للغاية، حيث إنك قد ولدت بإحدى تلك البلدان التي حبتها وجادت عليها الطبيعة. فأنت تعتقد بأنك يجب أن تبتعد عن ظل تلك الشجرة دون أدنى خوف، ومع ذلك فإن الشمس فوقنا، وخلال الفترة التي يمكن تمضيتها في تأدية صلاة الهروب(١) سوف يتم حجبها تماماً بواسطة أسراب الجراد. أتمنى أن يقوم الله الكريم بمساعدة المؤمنين!".

ولقد كنت قبل هذا شاهداً على هذه الظاهرة في جدة عدة مرات، ولقد كنت متأكداً أن صاحبي الهندي صادق في آرائه. وفي سرعة بالغة مرت الظلال فوقنا لتحجب عنا ضوء الشمس، وكان هناك اضطراب في الجو نفسه، وقد بات واضحاً من خلال هذا الانطباع خروج العديد من الأوربيين الذين كانوا بالمخيم من خيامهم بغرض استكشاف السبب الكامن وراء ذلك. وفي الوقت نفسه تم تغطية الأرض بأسراب الجراد التي خيمت على أنظارنا، وكانت تمتلك أجنحة أطول من أجسامها، وكانت تتميز ببقع داكنة في مقابل خلفية بيضاء. وقد شق كل واحد من أهالي الطائف طريقه إلى

(١) يقوم المسلمون أحياناً باستعمال هذه العبارة (فشر Fecre). ونقول نحن في العديد من المحافظات الفرنسية (في حماية الأب) وهو نوع من الصلاة الربانية. (المؤلف).

حديقته، وكانوا يرددون صرخات عالية وهم ينادون:

"حديد، حديد، فر، فر". وذلك بغية طرد هذه الأسراب بعيداً، إلا أن شيئاً من ذلك لم يقم بالمساعدة في منعها من استهلاك محصولهم. وتصل أسراب الجراد عادةً نتيجة لإحدى الرياح العاتية، وقد كانت تلك التي هبت في ذلك اليوم آتية من الشرق.

وبما أنه قد تم أخذ كل معدات الطبخ إلى الحدائق، فقد صار كل من الرجال والنساء والأطفال يتصادمون بعضهم مع بعض، وكان ذلك من أغرب أنواع الضجيج التي كان الواحد يتخيل سماعها على الإطلاق. وليحفظ الله المسؤولين، الذين كان قليلون منهم هم الذين يحظون بحب الجمهور، أن يقوموا دوماً بالتمشي مع شيء مماثل.

لقد غدا واضحاً أن أسراب الجراد كانت بعيدة عن التأثر بهذا الضجيج، فقد كانت معتادة على ممارسة طيرانها في ظروف أصوات مماثلة، لكنه بات واضحاً أن هذه الزمجرة لم تفزعها، لأنها واصلت بهدوء التهام كل المحاصيل.

وخلال ذلك انخفضت حدة الرياح الشرقية التي قامت بحملها إلى هنا، وفي الوقت نفسه هبت الرياح القادمة من الشمال بكل عنف، إذ كانت سبباً في توجيه هذا البلاء باتجاه القبائل التي كانت تخيم جنوباً. ولحسن الحظ لم يكن التلف والدمار كثيراً بصورة واسعة، ولجأ صديقي الهندي إلى البحث عن عزاء له في الفكرة القائلة: "لقد وقانا الله ورسوله من هذه الكارثة المفجعة. فالحمد والشكر لله أن غدا عدد كبير من هذه الحشرات ركاماً تحت ضرباتنا، إن أسراب الجراد هذه تكون جيدة بعد وفاتها، مثلما

تكون مرعبة بالقدر نفسه وهي على قيد الحياة، ولن يذوق رجالي نوعاً آخر من الطعام ما دامت هذه الضحايا موجودة ".

فسألته قائلاً: "سوف يكون ذلك تعويضاً عن الأضرار والخسائر التي ألحقتها بكم، ولكن بالنسبة لك هل تقوم أنت شخصياً بأكلها؟".

- "أتمنى ذلك حقاً، ويجب أن تقوم أنت بنفسك بالانضمام إلى مائدتي إذا كان ذلك مناسباً لك".

- "إنني مدين لك كثيراً، ولكن قبيل انصرافي لدي نصيحة أود أن أوجهها لك".

- "إنك، وعند علمك بقدوم أسراب الجراد، وبدلاً من أخذك عمالك بعيداً عن مهامهم التي كانوا يؤدونها بغية إحضار المراجل وقدور الطهي، وإحداث كل هذه الجلبة والتدافع بينهم، والذي قد يتسبب في إفسادهم وضررهم جميعاً، يجب أن تبحث عن وسيلة أخرى لتحقيق النتيجة نفسها عن طريق جعلهم يقومون بتدوير المكنة التي تتحكم في حفرة المياه الخاصة بك".

عقب المجهود الذي بذلته لجعل قرائي يتأقلمون على موضوع حدائق الطائف، يبدو منطقياً القيام بإعطاء إحصاء دقيق ومفصل عن مزروعاتها. فقد درجنا أحياناً على قضاء أوقاتنا في مرح، ونحن نراقب هذا النوع من العمل الذي يقوم به العرب، وأوضح أدناه حصيلة هذه المراقبة والتمعن. فعندما تحين لهم الفرصة المواتية لزراعة أي من الحقول فقد كانوا يقومون بإخفاء المربعات الصغيرة التي أشرنا إليها سلفاً وإزالتها، وبمجرد قلب الأرض ينزل المزارعون في شكل مجموعات وأرجلهم متقاطعة، وهناك وفي

ظروف سهلة يقومون بإعداد حقولهم الجديدة وتصميمها، وتأخذ هذه الوسيلة في الاعتبار الحاجة إلى ترك قناة صغيرة بين كل واحد والآخر تكون من مهامها توجيه المياه المتدفقة من الآبار.

وبمجرد إتمام هذه المهمة المحددة يقومون بنثر البذور بأيديهم على كل المساحة ثم يقومون بالعمل على تدفق المياه التي تقوم تلقائياً بغمر البذور تحت طبقة خفيفة من الطين.

وهذا هو الحد الأقصى لمهمتهم إجمالاً، وتتكفل الطبيعة بما تبقى من ذلك. أما بالنسبة للمحراث فهو مصنوع من فروع إحدى الأشجار، وتوضع في مؤخرته قطعة من الجذع. أما بالنسبة لشفرات المحراث فهي مصنوعة من قطعة مثلثة من الحديد يتم تثبيتها في مكانها بواسطة المسامير، ويشكل أحد الثقوب المحفورة في طرفها ساقاً رأسية تقوم يد العامل بجذبها أو الإمساك بها بقوة للقيام بتشكيل الأخاديد.

أما بالنسبة للحيوانات التي يغلب استخدامها في هذا العمل فهي الثيران، تليها وبصورة نادرة الجمال والبغال والحمير، إضافة إلى ذلك، وفي أوقات القهر وظروف السخرة يقوم بها الرجال أنفسهم. ويقوم الثور بجر نير مصنوع من عارضة خشبية موصولة من أطرافها مع (فرشاتين) تحملان القاطع المجعد الشكل ويتم وصلهما تحته بواسطة أحد الحبال. وهذا النير مثبت إلى المحراث، ويعمل (الدرية أو السنام) الطبيعي الذي تحمله الأبقار على أكتافها على الإمساك بهذا النير في قبضة مريحة.

أما بالنسبة للأخاديد التي يتم شقها بهذه الطريقة فلا تكون عميقة، لكنها مناسبة على أية حال. وهذه هي الطريقة التي يقومون من خلالها

بزراعة القمح والشعير والدخن الهندي والبرسيم. وهم يقومون ببذر القمح في شهر أكتوبر، ويقومون بحصاد المحصول في حوالي نهاية شهر مايو.

أما بالنسبة للبذرة فهي أصغر بكثير من تلك الموجودة عندنا في أوربا، وهي ذات لون داكن، وبالنسبة للخبز المنتج منها فهو أقل بياضاً من ذاك المستخلص من الدقيق المصري، لكنه ذو مذاق طيب على أية حال.

وتتم زراعة الذرة أو الدخن في شهر مايو، ويتم حصاده بعد ما يتراوح بين أربعة إلى خمسة أشهر ونصف من تاريخ زراعته، وذلك في حالة ما يكون الطقس - بطريقة أو أخرى - مناسباً ومعقولاً. أما بالنسبة للبرسيم فهم يقومون ببذر بذوره في حوالي منتصف شهر يونيو.

وفي خلال عام واحد يقومون بجني ثلاث أو أربع حصدات ناجحة من هذه المادة الخاصة بعلف الحيوان، كما أن عليهم أن يقوموا بتوفير مخزون منها يتم الاحتفاظ به حتى يحين الوقت الذي يكون المحصول الجديد قد ارتفع في نموه. وهم يقومون بجمعه في حوالي نهاية شهر يوليو.

وقد كانت حقول الجزر الأبيض القديم في هذا الوقت، أي في الثاني والعشرين من شهر يونيو، مزهرة.

أسوار مدينة الطائف ومنازلها وتلك الخاصة بالمناطق المجاورة لها مشيدة من الطوب الخام الخالي من أية زخارف أو نقوش، أما بالنسبة للتربة التي يصنع منها فيتم جلبها من خارج البوابات الخاصة بأسوار المدينة، وربما من تلك المنطقة الواقعة بين الأسوار والقلعة. ويتم بعد ذلك فرش هذه التربة بالداخل وتمهيدها وتغطيتها كليةً بطبقة من الرمال التي تجلبها الرياح أو بواسطة كمية يسيرة من الجرانيت التي غسلتها السيول

عند جرفها لها. وتكون الحقول المنحدرة والأكثر قرباً من الجبال أكثر عرضةً لهذا العيب، ومع ذلك فهي تحظى بالحماية دوماً بوساطة الأجراف المنحدرة التي أشرت إليها فيما سبق.

بعد انقضاء فصل الشتاء يكون بمقدور المزارعين فقط الحصول على الماء من الآبار حيث إن الأمطار نادراً ما تهطل في فصل الصيف. وخلال فترة وجودي هنا كنت شاهداً على اثنتين من العواصف فقط، فقد قامت السحب، وبعد أن ظلت معلقة فوق رؤوسنا لفترة طويلة، بالتمخض عن عاصفة مصحوبة بالبرد، إضافة إلى هطول بعض الأمطار الخفيفة التي استمرت مدة تقارب الساعة.

وعند مغيب الشمس صارت الريح أشد ضراوةً، إذ قامت حتى مع رطوبة التربة، بإثارة أعمدة من الغبار واصلت ارتفاعها صاعدة إلى أعلى، الشيء الذي حال دون مغادرتنا خيامنا بالمعسكر. وبعد أن واصلت دورانها في كل الاتجاهات هدأت، وعاد كل شيء إلى طبيعته.

كانت فترة التقصي أحياناً غير مناسبة بسبب الأعاصير والغبار الكثيف الذي تجرفه معها عندما تهب بضراوة. ومع ذلك فقد كان هذا الضيق أقل ملاحظة بكثير في المدينة أو تحت الأشجار الكثيفة الموجودة بالحدائق.

تفاوتت حدة الرياح الحالية من الاتجاه الشمالي إلى الشمالي الغربي، وتواصلت من الساعة ١١ صباحاً وحتى المساء، وكأنها مصممة على تلطيف الجو في الوقت الذي كانت فيه الشمس تسلط أشعتها الحارقة. كانت الرياح الغربية والأكثر ندرة، تسبب تراكم كمية هائلة من السحب تسبق هبوب العواصف الحقيقية، وهذه هي الرياح التي تدوم في الغالب خلال موسم الأمطار.

لقد لاحظت أحياناً إحدى الظواهر التي تسترعي الانتباه بشدة، فقد لاحظت إحدى الزوابع الناشئة عن ريح هادئة، وهي تصبح لولبية ودوارة في إحدى النقاط المعزولة، وتحمل معها كمية هائلة من الغبار، وفي أحد الأحيان التي هبت فيها بالقرب من خيمتي ذهبت لقياس المسافة التي كانت تفصل بيني وبين العاصفة، وبعد أخذ الزاوية الفعلية المشكلة بواسطة الأفق والخط الموصل بموقعي بمثابة نقطة مراقبة في أعلى نقطة منها تمكنت من التوصل إلى ارتفاع تقريبي لها.

سبق أن اكتشفت بهذه الطريقة المذكورة أن العديد من الرياح والأعاصير الدوارة تجرف معها الأتربة التي تصل ارتفاعها على الأقل إلى (٢٠٠) متر. وقد استمرت هذه الظاهرة في أحيان كثيرة، ودون أن تخمد، لمدة نصف ساعة وفي أوقات معينة، وعندما كانت هذه الرياح المزمجرة تجتاح الأرض على ارتفاع منخفض كان الله وحده هو الذي يحفظ الخيام التي تقع في مجرى هبوبها، وليس هناك حبل على وجه الأرض لديه من القوة ما يكفي لمقاومتها، وفي أحيان كثيرة كان المخيم بأسره عرضة للزوال، وكأنه قد اختفى بطريقة سحرية.

وفي بادئ الأمر قد يحدث أن نسمح لها بمباغتتنا فجأة، إلا أننا لاحقاً حددنا نقطة لمغادرة مخيمنا المؤقت، وغادرناه بقصد إعادة تشييده فيما بعد. أما بالنسبة لأولئك الأشخاص من مجموعتنا، والذين لم تكن لديهم الفطنة الكافية للقيام بذلك فقد وجدوا أنفسهم وقد تمت تغطيتهم بالأتربة وهم يحاولون تخليص أنفسهم من ركام الأتربة التي كانوا في وسطها، ومعها أوراقهم وممتلكاتهم بكل أنواعها، ولو لم يكونوا محظوظين لأصبحوا مدفونين تحت صناديقهم أو ارتطمت رؤوسهم بدعامات خيامهم وأطنابها.

تنتمي إبل الطائف - كغيرها من كل تلك التي تقطن أعالي الحجاز- إلى سلالة ذات شكل أنيق للغاية، وتتميز بالقوة والخبرة في صعود الجبال والهبوط في مهارة لا يمكن لجمال تهامة أن تساويها. فهي تحدق بنظرها في المنحدرات الأشد انحداراً إضافة إلى أعلى القمم والأجراف الخطيرة ، مثلها كمثل الماعز والأغنام. ولقد كان من العسير علي أن أصدق عيني في أول مرة أطلت فيها عيني عليها وهي قابعة كما هي، على هذا الحال، ولم يكن بمقدوري أن أفهم كيف يكون بمقدورها أن تبدأ فقط بتخليص أنفسها من هذه الأخطار دون محنة أو أذى.

أما رواحلها أو كثبانها فهي تثبت في مواضعها بواسطة قطعة على الصدر وسير من الجلد تحت الذيل يقومان بتثبيت أحمالها بشدة وثبات خلال رحلاتها على المرتفعات الجبلية، ولكي تتمكن من تخطي المنحدرات الشديدة، فهي تقوم بتثبيت نفسها على الأرض بحزم وقوة مستعملة في ذلك أرجلها الخلفية ثم تستند إلى الأمام على أرجلها الأمامية حتى تتأكد من أن أحمالها أصبحت أقل احتمالاً من الانكفاء على ظهورها، وبهذه الطريقة تتمكن من صعود أشد المناطق المتصدعة دون أن يبدو عليها أي مظهر من مظاهر المعاناة أو السخط.

وتمتلك هذه الجمال أقداماً أمامية تبدو أكبر نوعاً ما من أقدامها الخلفية. وحيث إنها قد تعودت على رعي النباتات العطرية والشديدة النكهة، والتي تنمو بكل حرية فوق المرتفعات الجبلية ، فإن لحومها تعد أطيب مذاقاً من لحوم جمال تهامة.

وعند عرض المهرجانات الأساسية يقوم الشيوخ باتخاذ التدابير اللازمة

لشي أحد الجمال الصغيرة (الحاشي)، ويزعم البدو أن ذلك يعد من الأطباق الشهية. وفي الحجاز - كما الحال في مصر - تعاني هذه الحيوانات القابلية للإصابة بأمراض غريبة إجمالاً. وقد تتطور أحياناً لتصل إلى حدوث نتوء غريب للغاية في أقدامها، ونتيجة لذلك يتطور الأمر إلى نحيب شديد الأسى ، وخلال فترة قصيرة تصبح مسعورة، وتقوم بعض نفسها في موضع الألم أو الداء وهي تمضغها بأسنانها. وخلال بضعة أيام قليلة فقط، وأحياناً خلال بضع ساعات فقط، يكون ذلك سبباً في هلاكها وموتها.

ويرد بعض الناس ظاهرة المرض هذه إلى بعض الحشرات أو المخلوقات السامة التي تعلق بهذه الحيوانات، لكن الأعراب مع ذلك يجزمون في حالة حدوث ذلك، بأن الجمال التي هلكت لم يسبق سوقها إلى المناطق نفسها التي يتفشى فيها داء السعار.

يقوم أهالي الطائف بتربية عدد محدود من الخيول، لكنهم يمتلكون أعداداً لا يستهان بها من البغال التي يجد فيها الأشراف أو النبلاء بديلاً عن الخيول، والتي تقوم بأداء الغرض، وخصوصاً فيما يتعلق بالنقل والترحيل. وهي قوية وتتحمل الشدائد لكن شكلها العام يبدو قصيراً إلى حد ما. ومع ذلك فهذه الحيوانات تبدو صغيرة الحجم لدرجة أن راكبيها الذين يمتطونها يلامسون الأرض بأقدامهم.

والأعراب هنا لا يراودهم الإحساس بالخجل من امتطاء الحمار وكأنه حصان، لكننا سوف نمر لاحقاً ببعض القبائل التي يعد سكانها من البدو أنفسهم وكأنهم قد أتوا شيئاً من العار أو الخزي في حالة إقدامهم على ارتكاب عمل من هذا النوع.

أما بالنسبة للأبقار فهي من الفصيلة نفسها الموجودة في تهامة، لكنها أكبر حجماً بكثير.

وبالنسبة للأغنام والماعز، فلا يوجد أي شيء على الإطلاق يعد مميزاً لشكلها ومظهرها.

وأذكر أدناه بعض النقاط والملاحظات المفصلة فيما يتعلق بالحيوانات التي شاهدتها خلال فترة وجودي هنا.

الغزلان: يوجد قليل جداً منها في السهول والأودية المجاورة لهذه المنطقة، ويقوم البدو بصيدها وبيعها في السوق. وتعد أكلة شهية ومفضلة للغاية، لكنها قد اشتهرت عادةً بالنكهة الشديدة التي تفوح من عضلاتها. ويقوم الناس بصنع محافظ جلدية جميلة وجذابة للغاية من جلودها.

القردة: توجد في الجبال، وخصوصاً في مرتفعات جبل كرا (Ko'ra). ويقوم العرب الذين قاموا باصطيادها بالحضور إلى المخيم لعرضها بغية الحصول على بعض النقود.

الصقور الجارحة: وتتميز هذه بأجسام بيضاء وأجنحة سوداء. ولا يقوم الأعراب بإيذائها بأية حال، مما يجعلها أليفة بالنسبة لكل شخص. وهي قد تعودت على التجمع بعضها مع بعض في شكل مجموعات كبيرة، وهي تشغل نفسها في معظم أوقات اليوم بالتحليق والطوفان حول المخيم، متخذة طعامها من اللحوم والنفايات التي يفشل الطهاة في مراقبتها بالحيطة والحذر اللازمين.

أما بالنسبة للغربان فهي كثيرة وعادية للغاية، في الوقت الذي نجد فيه أن العصافير أكثر ندرةً وأصغر حجماً بكثير من تلك الموجودة لدينا.

الفـمـري (Mougri)[1]: هذا هـو الاسم العـربي الذي يطلق على نـوع من الطيـور السـوداء الرأس، وذات الظهـر الرمـادي اللون المائل إلى السـمـرة، والذي يسهل تمييزه كلما اقترب من نهاية ذنبها. أما أجزاء جسمها السفلى فهي صفراء، وصدرها رمادي يميل إلى البياض، وجسمها أكثر امتلاء بقليل من العصفور كما أنها أليفة للغاية.

وعندما يـرغب الأعراب في صيدها يقومون بوضع كمية من الأرز المغلي داخل أحد الأقفاص بطريقة تكون ظاهرة وبادية للعيان، فيقوم هذا الطائر بالمغامرة بحريته من أجل سد رمقه.

وبالنسبة لعالم الطيور تعد منطقة الطائف فقيرة للغاية في محتوياتها من هذا النوع من الحيوانات.

الثـعـابين: لقـد شـاهدت بعيني واحداً من هـذه الزواحف التي يبلغ طول جسمها عشرين (٢٠) بوصة، إذ أحضره إلي أحد الخدم الذي قام بخنقه بشدة قريباً جداً من رأسه. ولقد لاحظت خطاً أصفر في وسط بطنه يصل إلى نهايته قبل حوالي ثلاث بوصات من ذنبه. وعند الطرف الأيمن والطرف الأيسر يوجد هناك خطان منفصلان تماماً بلون رمـادي، وهما على درجة تامة من التناسق، يليهما خطان آخران ليسا عريضين للغاية يتحولان مرة أخرى إلى اللون الأصفر. وعند أحد جانبيه شاهدت خطاً رمادياً ثالثاً أقل استقامة بقليل من الثاني، يليه خط رابع آخر ذو لون أبيض. أما ظهره فذو لون أرجواني، يفصله عن الخط الأبيض حزام داكن.

---

(١) هكذا كتبها المؤلف، ولكنه كما يبدو أنه وقع في خطأ النطق والتهجي أو الخطأ وقع أثناء الطباعة.(المترجم).

وهذا النوع من الزواحف مزركش بالعديد من البقع المستديرة الصغيرة التي لا حصر لها حول جسمه في منتصفه، والتي تكون أقل ظهوراً كلما اقتربنا من رأسه. وعلى بعد حوالي ثلاث بوصات من ذنبه تتخذ قشرته شكلاً خماسي الأضلاع.

الأفاعي السامة: يبلغ طول أكبر واحدة من هذه عادةً ما يتراوح بين(١٨) إلى (٢٠) بوصة. ويتخذ جسمها شكلاً بيضاوياً، وهي مسالمة للغاية، ويتم وضع تلك التي يقبض عليها داخل كيس جلدي بغرض عرضها على الجمهور باعتبارها نوعاً من المناظر المثيرة للفضول. أما بالنسبة لصغارها فتتمتع بجلد لامع للغاية، وهي تخلف انطباعاً يوحي بأنها مطلية ومدهونة بكاملها بنوع من الورنيش أو الطلاء اللامع. وهي أليفة للغاية.

السمندليات: وتوجد بصورة عادية وعامة في الدور والمنازل بمنطقة الطائف. ويقوم السكان هنا بمعاملتها باحترام شديد يميل إلى درجة الاعتقاد أحياناً.

العقارب: يدعي سكان الطائف أن هذه القشريات نادرة الوجود في مساكنهم ودورهم. ولقد شاهدت بنفسي واحدة منها فقط معلقة على شوكة بخيمة أحد الصيادلة، وهي تشبه تماماً تلك الموجودة بجدة، كما علمت أيضاً أن لسعتها مماثلة لها في خطورتها أيضاً.

وخلال فترة إقامتي بالمدينة الأخيرة شاهدت بنفسي الأخطار المخيفة والناجمة عن لسعة هذه الحشرة.

كان أحد صغار الجنود التابعين للفيلق السادس عشر منهمكاً في ضخ المياه لمدة نصف ساعة من أجل المخيم، عندما أحس بلسعة قوية على قدمه،

ولم يكن لديه حتى الوقت الكافي لتحذير رفاقه عندما سقط على الأرض مغشياً عليه وهو فاقد الوعي تماماً، وكأنه قد أصيب بطعنة دبوس حادة. وقد قام زملاؤه ببذل المحاولات الجادة لنقله إلى المستشفى. وأدناه وصف للأعراض التي كانت بادية عليه عند وصوله إلى هناك.

كانت دورته الدموية قد توقفت تماماً في شعيراته الدموية، ألم حاد عند مدخل الجرح، انتشار البرودة وتصلب في العضلات، شحوب تام في الوجه، كان يتقيأ شيئاً يميل أحيانا إلى السواد، وأحياناً يتقيأ شيئاً ملطخاً بالدم، وكان فمه ملطخا بالزبد دائماً. أما عيناه فقد كانتا مجهدتين وعاجزتين عن الحركة، كما كانت حدقتاه للغاية. أما العرق الذي كان يتصبب منه فقد كان بارداً كالثلج وغزيراً، ونبضات قلبه كانت غير محسوسة خلال الفترات التي كانت تتخلل القيء. أما لعابه فقد كان كثيراً ومليئاً بالزبد، ورد فعله المعاكس وقابليته للحركة كانا معدومين، فيما عدا رد فعله عند المساس بالجرح نفسه. أما بالنسبة لجهازه العصبي، فقد كان في حالة من الاضطراب التام؛ وكانت حركته مصحوبة بالتشنج لدرجة أن ستة رجال قد واجهتهم صعوبة في الإمساك به وإجلاسه.

وقد شرع الأطباء في شق جرح على الموضع المصاب، وقاموا بإعطاء المريض عشرين قطرة من (الأمونيا) بداخل كأس ماء، ثم قاموا بمسحه (بالأمونيا) وبعض (الإيثر) و(الأنودين) بداخل خلطة من (الكاموميل Camomille)، ثم ببعض المسوحات الجافة على أوصاله العليا وبإجراء بعض المساجات بالماء الساخن لتدليك الأطراف السفلى. وقد كللت هذه العناية الطبية بالنجاح التام حتى لم يعد الرجل المصاب بحاجة إلى البقاء طويلاً بالمستشفى قبل مغادرته له.

النمل: خلال قيامي بإشعال مصباحي بداخل الخيمة أحاطت بي بعض أعداد النمل التي كانت أجسامها نحيلة للغاية باتجاه الخاصرة حيث تتسع وتكبر تدريجياً باتجاه أطرافها. أما مخالبها فقد كانت طويلة للغاية، وتبدو في شكل زاوية قائمة. ولم يبدُ عليها أنها بصدد إلحاق أي أذى بالنسبة لي.

الجنادب: يبدو أن هذه هي الحشرة التي تزور هذه المنطقة بأعداد كبيرة من مختلف الفصائل والأنواع.

اليعسوب (الذباب)(١): تمتلئ كل حديقة هنا بأعداد غفيرة من هذه الحشرات ذات الأجنحة المزركشة بألوان كثيرة ومختلفة. وهي تقوم في الأمسيات بالانتشار فوق أو على البرك، حيث تقفز على أسطحها بغية ابتلاع الحشرات الصغيرة. ومع ذلك، وفي حالة انهماكها في مطاردة ضحيتها، وفي حالة رشح أجنحتها عند ملامستها للماء، فهي تكون عرضة للغرق ومن ثم الموت، وذلك هو الذي يحدث ما لم يقم أحد المسلمين الورعين بالهروع لإنقاذها.

النحل: يقوم البدو بالاحتفاظ بها داخل الخلايا، ويعد عسله في واقع الأمر جيداً للغاية، وقد ثبت أن الأحمر منه يجيء في مرتبة أقل من الأبيض. أما بالنسبة للزنابير فهي ذات ألوان صفراء وسوداء.

الذباب الهندي (الأخيضر): كانت تلك الموجودة منها بالطائف تبدو لي ملائمة لتصنيفها كعينة من الدرجة الثانية. فأطرافها موشاة باتجاه الزور باثنين من الثقوب المستديرة الصغيرة. وهناك طوق أسود يمتد حتى وسطها، إضافة إلى آخر مماثل على أطرافها. أما بالنسبة لزورها فهو

---

(١) اليعسوب هو ذكر النحل ويبدو أن المؤلف اختلط عليه الأمر (المترجم).

أطول بقليل من رأسـهـا . أمـا شكلهـا أو هيكلهـا العـام فـيـتكون مـن أربع سلاميات تصل إلى نهايتها عند نقطة مكونة من مخلبين. أما بالنسبة لتلك التي لديها أربع أرجل أمامية فيبدو لي أنها تمتلك خمساً !.

اليرقات (اليسروع): كانت الأنواع التي شاهدتها ذات لون أسود، وكانت أجسادها مغطاة بأرجل صغيرة تحتوي على ثلاث شعيرات في نهاية كل منها . والأرجل قصيرة للغاية وهي متصلة بأصابع كبيرة على الأذرع الأمامية. ومن السهل أن تصادف في الطائف، حتى في الوقت الراهن، بعض العناكب... إلخ وسوف يكون بمقدور العالم المتخصص في الحشرات، والذي يقوم برحلة كهذه، أن يجد - وأنا على يقين من ذلك - أعداداً كبيرة تقوم بتعويضه عن مشاق رحلته المضنية، وسوف يتيح له ذلك الفرصة أن يجعل من نفسه ذا نفع كبير في مجال العلوم الطبيعية.

الفصل العاشر

كنا قد تجولنا بصورة مباشرة حول أطراف مدينة الطائف، حيث قمنا بتسجيل زيارة لأطلالها المندثرة، كما قمنا أيضاً بتصوير منازلها وآثارها ونصبها التذكارية القديمة.

وقد قام قارئ مذكراتنا التاريخية بالجلوس إلى جانبنا تحت الظلال الوارفة التي وفرتها لنا البساتين والحدائق، كما كان شاهداً أيضاً على تلك الأحاديث المطولة التي كان يتجاذبها الأعراب وسط تلك السحب الكثيفة من الدخان والأبخرة ذات الروائح العطرة. وفي حالة رغبته الآن في اصطحابنا، وبكل سرور في تجوال حول أطراف المدينة، فسوف نقوده خلال تجوالنا هذا للمرور على المزيد من الأشياء التي أدهشتنا واسترعت انتباهنا، لكونها حقيقة من الأشياء اللافتة للنظر، وسوف يكون ذلك بالتأكيد من الوسائل الملائمة لوضعه في حالة تأهب استعداداً لتلك الرحلة الطويلة التي نحن على وشك القيام بها خلال بضعة أيام قليلة.

ما هذا الصوت المدوي الذي سمعته وهو يخترق جدار خيمتي؟ لقد اتضح أنه صوت أحد المؤذنين من سكان الريف، والذي بدا بسيطاً ومتواضعاً كأحد قساوسة كنائسنا القروية. لقد كانت تلك العبارات والنبرات التي تنادي إلى العبادة، وبصرف النظر عن كونها صادرة عن رئتين قويتين بكل تأكيد، فإنه كان من الصعب عليها أن تمتد خارج الجدران

الفعلية لهذا البيت من بيوت الله، إذ أن الزاوية تعد أقل أهمية بكثير من أن تكون بها مئذنة أو منارة.

فإذا كلفت نفسك مشقة السير حول الأماكن المجاورة لها فسوف تطالع ما هو أكثر بقليل من حطام المنازل والآبار المهجورة التي صارت الآن مدفونة ومغطاة بالرمال. وتبرز وحدها، فوق تلك الأطلال القديمة المندثرة، منازل البساتين المملوكة لشيبي أفندي حامل مفاتيح الكعبة المشرفة، وتتناثر حولها جميعاً بعض المساكن الخربة الخاصة بعمال البساتين والمزارعين من البدو، والتي تبدو في نظر العالم جميعاً عوارض أشرعة وحطاماً تكون إلى حد ما عالقة فوق الأمواج، بعد عاصفة هوجاء، إلى أن تحين تلك اللحظة المناسبة التي يتم فيها ابتلاعها بوساطة مياه البحر. تلك هي الرقعة من الأرض التي كانت تقف عليها يوماً ما مدينة (سلامة) القديمة، والتي تفصلها عنها فقط مسيرة عشر دقائق، وتحمل القرية التي تقف هنا اليوم الاسم نفسه.

دعنا نشق طريقنا مرة أخرى قدماً باتجاه الجنوب الغربي. فنحن هنا الآن بداخل الوادي الذي تكوّن من الجبال ذات الصخور الجرانيتية والمتصلدة.

وتوجد في أعلى القمة من أول سلسلة منها إحدى القلاع المشيدة من الطوب، وتتم حمايتها بوساطة أربعة أبراج. والآن أدر نظرك إلى أعلى قمتها، فتلك القلعة المربعة الشكل التي تراها هي الوحيدة المتبقية من حطام أحد الحصون الذي كان يتوجها في العصور السابقة، وهنا تحت قدميك يجري متعرجاً أحد جداول المياه النقية الذي كان محصوراً في نطاق قناة صغيرة. وهي تنبع من تحت جدار الحديقة ثم تنحدر متعرجة قدماً لبعض

الوقت في الميادين المفتوحة، ثم ينحدر إلى الأدنى بكثير من ذلك. وهي تقوم بتوزيع هباتها من المياه النقية على الأجزاء المزروعة التي يتصادف وجودها على جنبات مجراها.

أما بالنسبة للجزء الأسفل من الوادي فهو منثور بالأصداف، وهو يتسم بالأخاديد الناشئة عن جداول المياه المندفعة التي تسيل من تلك الجبال خلال موسم الشتاء.

والآن، ونحن نشق طريقنا عائدين أدراجنا، بدت تلوح على جانبنا الأيمن قلعة جديدة مربعة الشكل كانت تستخدم بمثابة نقطة مراقبة، وقد انتصب أمامها مباشرة جسر صغير كان يتكون من قوسين، وكان يرتفع فوق مجرى ذلك الغدير بمسافة تقدر بحوالي أربعة أقدام. وقد تم تركيبه بغرض طمأنة الناس هنا على وجود معبر أو ممر دائم يربط ما بين الحدائق وبين أحد المساجد الصغيرة المثلثة الشكل، والذي كان يحتوي على منارة مشيدة في أعلى مستوياتها من الطوب، الذي تم حرقه بطريقة جيدة، بينما كانت أجزاؤها السفلى مشيدة من أحجار السيليكا.

ولما كانت قمة البرج غير نحيلة أو دقيقه بقدر كاف تقريباً، فقد تسبب ذلك في سقوط كل أجزائه. وقد حملت هذه المنطقة اسم (مدنة). وقد كانت حدائقها وبساتينها تعود ملكيتها لكل من الشريف محمد بن عون والشريف يحيى[1] اللذين انتهى بهما الأمر سجينين في القاهرة. وقد عمل

(١) كان الشريف محمد بن عون، خلال الفترة التي قمت فيها برحلتي، هو الشريف الكبير، لكن باشا مصر، والذي كان لديه حقاً من الأسباب ما يجعله يشك في ولائه وإخلاصه، قام بخلعه من منصبه وإجباره على الحضور إلى القاهرة حيث خضع فيها لعقوبة السجن، وهو الشيء نفسه الذي حدث لسلفه الشريف يحيى. (المؤلف).

أقارب الأخير على إدارة أملاكه، ومن خلال ذلك عملوا على تحويل كل ريعها له طيلة هذه السنين. ثانياً، وخلال مواصلتنا لسيرنا عبر الوادي ولمدة ساعة مررنا بموقع مشابه للغاية لذلك الموقع المشار إليه. وقد كان العرب يطلقون عليه اسم (الوهط)، ويعد من أقصى الأرياف الخارجية المحيطة بمنطقة الطائف في هذا الاتجاه.

ومنذ قيامي بنصب خيمتي في هذه المنطقة الريفية لاحظت، وبمرور كل يوم على حدة، وجود مجموعات كبيرة وطوابير مطولة من الجنود والجمال والخدم الذين كانوا جميعهم يسيرون متوجهين إلى الجزء الجنوبي من مدينة الطائف.

وإذ كان يراودني الفضول الشديد لمعرفة الغرض والهدف الأساس لهؤلاء الحجيج، فقد طلبت نوعاً من التوضيح لذلك من أحد الشيوخ. وأسوق لكم أدناه ما رواه لي(١).

عند فتح المسلمين لهذه المدينة، الذي تم بناءً عليه تحريرها وتطهيرها من الأوثان، قام محمد (صلى الله عليه وسلم) بالحضور إلى هنا ليسجل زيارة للمدينة التي قام بفتحها، وبغرض وضع نفسه في مكان أقرب توحيداً لله، قام بالانسحاب إلى أطراف المدينة، حتى يكون بمقدوره الاحتفاظ

(١) هذا من الأخبار التي لا يصح نسبهتا للنبي صلى الله عليه وسلم رغم شيوعها وانتشارها في الحكايات والأساطير الشعبية كما أوردها المؤلف هنا. وأورد حديث الغزالة الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتاب "لسان الميزان" ٦/٣١١ وأشار إلى أنه حديث موضوع. وقال علي القاري في كتاب "المصنوع في معرفة الحديث الموضوع" ص ٨٠: حديث تسليم الغزالة اشتهر على الألسنة وفي المدائح النبوية. قال ابن كثير: وليس له أصل. ومن نسبه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقد كذب(المترجم).

بكامل حريته الشخصية هناك. وقد كان مسكن نبينا الكريم يقع بجوار دار أحد اليهود.

وفي يوم من الأيام قام أحد البدو، الذي اصطاد إحدى الغزلان، بالحضور إلى هناك بغرض بيعها لليهودي الذي وافق بعد مساومة وجدل طويلين على القيام بسداد المبلغ المتفق عليه.

وكان محمد (صلى الله عليه وسلم) قد لاحظ ما كان يحدث، فلقد اكتشف أن ضرع الغزالة كان ممتلئاً باللبن، وعليه فقد فكر بأولادها الصغار الذين سيكونون على وشك الموت من الجوع، وعليه فقد توسل إلى اليهودي أن يقوم بإطلاق سراحها في الوقت الذي وعده فيه بالعودة مرة أخرى لوضعها بين يديه في كل مرة بعد أن تكون قد قامت بالوفاء بمهمتها كأم، لكن اليهودي كان قاسي القلب، وكالكلب القذر. أجاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بما يلي:

بالنسبة للغزالة فقد اشتريتها من صاحبها، وعليه فقد صارت ملكاً لي، وإنني أود أن آكلها مع أسرتي، وبعدها أقوم بتحويل جلدها إلى كيس للتبغ.

"لماذا يقوم بعمل كيس للتبغ؟: وسألت الراوي العجوز أعتقد أنك تشير إلى فكرة غير منطقية، ولا تتناسب مع تلك الفترة الزمنية، ويبدو ذلك كما لو أنك تقول إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) قد ضرب حصاراً حول مدينة الطائف أثناء قصف المدافع الثقيلة".

"أنت تعلم بالقدر نفسه: أجاب الراوي أن رسولنا الكريم لو كان قد تنبأ أو أصدر أوامره بأنه يريد أن يقوم باستلام بعض المؤن من التبغ أو المدفعية لتكون تحت إمرته لكان بمقدوره ذلك؟".

"المسألة ليست مختصة بمعرفة ما إذا كان بمقدوره الحصول عليها، بقدر ما هي مختصة بمدى امتلاكه لها فعلاً. ومع ذلك، فإنني أتفق مع وجهة نظرك بأن اليهودي كان له مطلق الحرية في تدخين تبغه في كل الأوقات، إذا أردت ذلك. أرجو منك أن تواصل روايتك".

"ولعلم محمد (صلى الله عليه وسلم) بعناد اليهودي، فقد حصل منه على وعد بأن يقوم اليهودي بإطلاق سراح الحيوان للخروج تحت ضمان محمد (صلى الله عليه وسلم) وتعهد لليهودي بأن يدفع له ثمن الغزالة في حالة فشلها في العودة إليه مرة أخرى.

وبمجرد إطلاق سراح الحيوان قام الأخير بالعودة إلى صغاره، وعند مشاهدة اليهودي للحيوان يشق طريقه عائداً وسط الحقول أمر زوجته بالشروع في إعداد وجبة من نوع آخر من الطعام.

والآن كان الليل على وشك الهبوط دون أن يلوح أي شيء بالظهور على الإطلاق. فقال اليهودي موجهاً حديثه إلى رسولنا الكريم: الأمر متروك لك الآن بأن تسرف في عطائك أو تقتصد فيه، واعلم أن الشمس تشارف الآن على المغيب وأن الغزالة التي أسبغت عليها حمايتك لم تعد بعد".

أجاب الرسول (صلى الله عليه وسلم): "تحل بالصبر ولو لدقيقة واحدة، ولن يكون هنالك من سبب يحوجك إلى الاستفسار عن شيء هو من صلاحياتي المطلقة".

قام اليهودي بإغلاق بوابة منزله الخارجية، وبحلول الساعة المتفق عليها سمع صوتاً على شكل جلبة أو كشط على جانب الكوخ الذي كان ينام بداخله.

يا ربي يا للمعجزة ! هذه هي الغزالة قد عادت إلى هنا أخيراً ! انتظري لحظة. ومع ذلك كان يقول لنفسه:

لو جرى العلم بهذه المعجزة المدهشة على نطاق أوسع، فلن يبقى هنالك شخص واحد يكون لديه أدنى شك أو تردد حول مصداقية الرسالة الإلهية لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وعليه فإن ديانة موسى التي أنتمي إليها سوف تتلاشى وتنقرض إلى الأبد. وعلى هذا الأساس حمل سكينه وقام بقطع رأس الحيوان المسكين، ثم شرع في طبخه أثناء الليل.

"هل تعتقد أن كل ذلك كان ناشئاً عن الخوف من ذلك الحادث الجلل؟ بالنسبة لي فإنني أعتقد جازماً بأن ذلك قد كان في الأساس مشروعاً قصد منه الحصول من محمد (صلى الله عليه وسلم) على ثمن الغزالة".

"يمكن أن يحدث ذلك، دون أدنى شك من اليهودي، لكن الحقيقة وراء كل ذلك تظل معلومة فقط بالنسبة لله ولرسوله دون غيرهما. دعني أواصل سرد قصتي الآن".

"في اليوم التالي اكتشف اليهودي وأسرته أن اللحم قد علق بحناجرهم، وعليه فقد بات من الضروري إدخال آلة معدنية بها حتى يتم إنقاذهم من الموت. إلا أن مشيئة الله سبحانه وتعالى كانت قد قضت بذلك".

"كل ذلك كان مسطراً (مكتوباً)". رددت عليه: "نعم أنت تتحدث كما يتحدث المؤمن الحقيقي! إنك تمتلك لحية شبيهة بتلك التي يمتلكها أي رجل من بني عقيدتنا". نعيش على أمل. أنك سوف تقوم في يوم من الأيام بالاستجابة للدعوة للإيمان بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. الله كريم الله رحيم".

"ولكن كيف يمكن للواحد أن يصل إلى النقطة التي يتمنى فيها أن يحرم رسول الله من العلم والمعرفة التامة بأية أعمال أو مآثر أياً كانت؟ هذا السؤال هو بالتأكيد الشيء الذي يقوم أساساً بتجاوز حبال أفكارك في الوقت الراهن؟".

"وصل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى منزل اليهودي بعد تناولهم الطعام مباشرة حيث قام فوراً بتجميع عظام الغزالة من هناك، ومن ثم قام بنفخ الروح فيها وعادت إليها الحياة مرة أخرى ، وبعد أن استعاد الحيوان شكله وحجمه الطبيعي والأصلي عاد مرة أخرى إلى حريته طليقاً وسط أبنائه الصغار".

"وماذا حدث لليهودي".

"لقد هداه الله هو وأسرته، وعليه فهو الآن يمرح وسط الطيبات من العطور وبنات الحور والمتعة الأبدية تحت ظلال الجنان الوارفة. وإنني لأتمنى أن يكون بمقدوره أن يشفع لراوي هذه القصة الذي يتحدث إليكم هنا، عند الله سبحانه وتعالى، والذي كشف لكم عن المعجزات التي صاحبت هذه الرسالة".

"والآن خبرني، هل يقع هذا المكان الذي وقعت فيه هذه الحادثة المعنية بعيداً من هنا؟".

"بمقدورك الوصول إلى هناك بعد نصف ساعة، وسوف تطلع بنفسك على الدليل الذي لا يمكن إنكاره فيما يتعلق بتلك الرواية. وسترى آثار الأقدام الحقيقية للرسول (صلى الله عليه وسلم) وآثار شاله نفسها، ثم آثار أقدام الغزالة محفورة على وجه الصخور".

"وهل تعد هذه المنطقة مطروقة كثيراً ؟".

"يذهب جميع المسلمين الصادقين في عقيدتهم إلى هناك للصلاة، وعندما يقومون بذلك، وخلال فترة زمنية معتبرة ، يقوم كل واحد من الذين ذهبوا إلى هناك لأداء صلاته والسجود هناك بأخذ ذرة من التراب تكون وحدها كافية لبناء هرم أكثر ارتفاعاً من ذلك الذي قامت بتشييده ابنة كيوبويد الفاجرة"[١].

في صبيحة اليوم التالي كان هناك حصان مسرج بانتظاري عند المدخل الذي يقود إلى خيمتي إذ كنت على وشك الذهاب لزيارة الموقع الحقيقي الذي جرى به هذا الحدث.

وقد قمت بهذه الرحلة القصيرة بصحبة السيد / م . قاتي، الطبيب الإيطالي. أما بالنسبة للسيد (شديفو) فقد كان منهمكاً للغاية في أعماله المتعددة، ولذلك لم يتمكن من مصاحبتنا في هذه الرحلة.

كان كل واحد من خادمينا الاثنين يحمل اسم محمد، لكن أحدهما كان من أصل مصري بينما كان الآخر، الذي كان يعمل معي، نوبياً من جهة الأب. وكان أولهما، وهو فلاح جيد من أرياف القاهرة، قد وصل هنا إلى الأراضي المقدسة قبل فترة ليست بالطويلة، وكانت تغلب عليه كثيراً روح الدعابة والمرح، خاصة فيما يتعلق بعجائب هذا الإقليم وذكرياته التي كانت تصادفه في كل خطوة يخطوها.

وعليه فقد أضافت هذه الفرصة وحدها نوعاً من التزمت بالنسبة لأحكامه وقراراته الشخصية، والتي مع أنه لم يكن يعتقد أنها تافهة ومبتذلة نوعاً ما في مصر، فإنها كانت سبباً في نشوء بعض الاحتكاكات

---

(١) يعتقد الأعراب أن أحد الأهرامات قد تم تشييده بواسطة ابنة كيوبويد التي دبرت لأمر تشييده حجراً واحداً فقط يمثل كل عشيق قام بمضاجعتها. (المؤلف).

والحساسيات في مواجهة المفاهيم والانطباعات التي جبل عليها الأوربيون الذين كان يعمل في خدمتهم.

وعندما كنا نسير في العراء كان هو الذي يتولى الإشراف على مهمة الطبخ وترتيب الأشياء، ومن ثم كانت تفوح منه رائحة الدهون الكريهة من ٢٥ قدماً! ومع ذلك فقد كان نظيفاً ومرتباً ؟ من كل النواحي. وقد صار، بحكم الظروف، خادمي الشخصي الذي يعنى بملابسي وكل شؤوني، بل يقوم بقيادة بعيري.

وبالنسبة للأشياء الإضافية، كما هو الحال الذي يعد من الضروريات بالنسبة لكل الحشود من الرجال، كان من الضروري توافر ذخيرة من النكات والأشياء المضحكة، وقد بدا أن هذا العبء قد وقع على كاهله.

كان خادمي رجلاً يتراوح عمره بين ٣٠ و٣٥ سنة، وكان ممتلئاً قوي البنية، موفور الطاقة بحكم نشأته، ورجلاه نحيفتان، لكنهما صلبتان وتضاعف من خصائصه التي يغلب عليها طابع الحيوية لأي رجل رياضي سريع الحركة.

وكان قد خدم مع شخصيات غاية في الأهمية مثل إبراهيم باشا[١] وحسن باشا[٢] والشريف الكبير[٣]، وتركجه بيلماز[٤]. وقبيل التحاقه

(١) إبراهيم باشا ربما يكون إبراهيم باشا بن محمد علي قائد الحملة المصرية على الدرعية (المترجم).

(٢) ابن أخت محمد علي وأول حاكم عينه خاله على الحجاز (المترجم).

(٣) الشريف الكبير هو الشريف محمد بن عون شريف مكة المشهور في عهد محمد علي وأول شريف لها بالتعيين من قبل محمد علي باشا (المترجم).

(٤) أحد قواد محمد علي في الحجاز وقد قاد حركة تمرد ضد سيده وهرب إلى منطقة عسير حيث احتضنه أميرها علي بن مجثل ووضعه وأفراد فرقته في خدمته، ولكن سرعان ما قرر التخلص منه فهرب بجلده واحتضنه الإنجليز فيما بعد (المترجم).

بخدمتي كان يعمل مع السيد م. روبيل، وهو سائح من فرانكفورت . وقد كان رجلاً يتمتع بالعطف والشفقة، وهو رجل بسيط للغاية، ولم يكن مفرطاً في الحديث. وقد تجول في كل بلدان حوض نهر النيل مروراً حتى أعالي مدينة (فازوغلي)، وقد شارك في الحملات المسلحة التي تم شنها ضد أهالي عسير ونجد، وكان على علم تام ودقيق بسواحل البحر الأحمر(١).

وبما أنه كان يتمتع بذاكرة غير عادية فقد أتاح له ذلك أن يحظى بمستوى من التعليم والمعرفة يتجاوز وضعه الاجتماعي في الحياة، وبغض النظر عن أنه كان شديد الصراحة ومحافظاً بحكم مزاجه فقد شكل رفيقاً شديد الارتباط بي دون أن يدع هذا الأمر أمراً ملحوظاً للآخرين بصورة واضحة. وقد كان بمقدوري أن أسدي له العون دون أن أجازف بأن يصبح غير عادي أو يرفع الكلفة في تعامله معي.

لقد كان ذلك بحق واحداً من الأصول والقيم النادرة التي حظيت بها خلال رحلتنا ، والتي كان يحدث خلالها، أحياناً كثيرة، أن يكون تجاوز المحنة متوقفاً على سقوط كل الحواجز المهنية أو الوظيفية، وأحياناً ينجم عنه أن يصبح السيد أو المخدوم تحت رحمة خادمه.

وبغرض التمييز بين هذين الخادمين الذين يحملان اسم محمد فقد كنا نطلق على أحدهما محمد قناوي بسبب ميلاده في (قنا) والآخر محمد الطباخ أو الطباخ فقط. اتخذ أدلاؤنا الآن طريقهم نحو الجنوب، وكانت

---

(١) للأسف نحن لا نعرف عن هذا السائح أو الرحالة أو المرتزق الألماني ولا ما سجله من ملاحظات عسكرية أو جغرافية عن المناطق التي ساح فيها وشارك في أحداثها، وخصوصاً منطقة عسير وحوض البحر الأحمر الذي ذكر المؤلف أنه كان على علم دقيق وتام بها (المترجم).

خطتهم تقضي بأن نقوم بعبور بعض الحقول المزروعة، إضافة إلى مجرى أحد الأودية والعديد من البساتين الخضراء.

وبعد مسيرة نصف ساعة كنا قد دخلنا في سلسلة جبلية كانت قممها تتناثر حولنا بطريقة عشوائية كأكوام متناثرة من السكر تفصل كلية بين أحدهما والآخر. وفجأة لاحظنا الطباخ يقوم بإلقاء نفسه على الأرض جاثياً على قدميه أمامنا. ولما لم يكن قناوي على أي قدر من الاكتراث بذلك كله فقد تركه يبقى وحده متخلفاً وراءنا، وعليه فقد وصلنا مع قناوي إلى تلك النقطة المحددة التي تمت فيها المعجزة موضوع الزيارة.

كان الطباخ ساجداً بكل خشوع وصدره باتجاه الأرض، وقد كان رفيقه يرغب في قول إحدى النكات على هذا الرجل، لكن صديقه رد على ذلك بتلاوة بعض الآيات القرآنية التي يقوم المسلمون أحياناً بترديدها عندما يقوم أي شخص بمقاطعتهم أثناء أدائهم للصلاة.

"ما هي وجهة النظر التي يمكن أن تتكون لدينا عن رجل يقوم بمقاطعة أحد عباد الله أثناء صلاته، وهو يقوم بالاستجابة لما أمره به الله، وهو يحاول من خلال ذلك أن ينفي عنه صفة الورع؟".

لا يهتم المسلمون عادة، وببساطة، بالخوض في هذه المسائل العميقة. قام قناوي بامتصاص رشفة بملء فيه من التبغ ثم خلا إلى نفسه في سكون عميق.

شاهدنا في هذا المكان الذي يطلق عليه الأعراب عبارة (مطمن الغزال) بعض الصخور الجرانيتية التي تتعرج من الأرض لتصل إلى مستوى سحيق، لدرجة أنها ترتفع قليلاً عن سطح الأرض. قد كانت هذه الصخور مسطحة

ومنقطة حولها بنقاط منفصلة ، الواحدة منها في مواجهة الأخرى، وتفصلها بعضها عن بعض بضع أقدام بسيطة.

وقد قام الناس بنثر مجموعة متكاملة من الحجارة الصغيرة حول كل واحدة من هذه النقاط في شكل يشبه حدوة الحصان، وعند هذا الفضاء الواقع وسط تلك الأكوام مررنا ببعض الثقوب المحفورة على الجرانيت بواسطة نوع ما من الآلات الحادة والتي يدعي المسلمون أنها هي آثار أقدام الغزالة نفسها موضوع المعجزة.

وتبعد كل واحدة من هذه الثقوب بمسافة خمس بوصات عن الأخرى، وهي محفورة في شكل خط مستقيم، الشيء الذي يعد خطأً فادحاً يفتقر إلى الحنكة والبراعة من جانب ذلك الشخص المخادع الذي قام بهذا العمل، لأنه من الضروري لهذا الغرض، وعند متابعة زوج من آثار الأقدام أن تكون متراصة بالطريقة نفسها التي يمشي بها الحيوان ذو الأربع الأرجل عند سيره. والخط الثاني هذا موجود أيضا لكنه على بعد قدمين من الخط الأصلي! وهناك اثنتا عشرة صخرة من هذه الصخور تقريباً جميعها محفورة بصورة متشابهة.

ووسط هذه المنطقة المحيطة، وعلى طول كل المنطقة الخاصة بالنقطة نجد منظراً طبيعياً تكتنفه الخضرة، وهو ذو سطح بلوري، وبه كميات لا حصر لها من أكوام الأحجار الصغيرة الصلبة، والتي تم جمعها بواسطة الأعداد الكبيرة من الأشخاص الذين سجلوا زيارة لهذا المكان، للتعبير عن احترامهم وتقديرهم له. وعليه فقد صار شبيهاً بالشاهد المستديم على أدائهم لفريضة الحج (الزيارة).

ولا تنتهي قائمة الأشياء المدهشة هناك، إذ قام أدلاؤنا بالترتيب لنا لمشاهدة جبل شديد الانحدار يبدو أنه كان به مشهد موجود على الصخور، وهو ناجم عن سقوط (شال)[1] الرسول (صلى الله عليه وسلم) عليها في اللحظة نفسها التي وصل فيها إلى درجة من الحدة خلال نقاشه مع اليهودي. هذا الجبل مغطى أيضاً بأكوام من الحجارة. وعند الصعود إلى أعلى، وليس بعيداً عن قمته، يكون بمقدور الناس أن يشاهدوا العديد من آثار الأقدام المحفورة بواسطة أقدام الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وبما أنها تبدو نوعاً ما أطول مما ينبغي يصرح المؤمنون بأن ذلك ناتج عن هبوط الوحي على طول الطريق عندما وصل إلى هذه النقطة[2].

الآن قد وصلنا إلى القمة وكان بمقدورنا الاستمتاع بمشهد حقيقي غاية في الروعة، فقد شكلت المرتفعات الأدنى والمدينة والمناطق المزروعة

(١) يعد هذا المشهد فقط بمثابة لحظة أخرى من خط متقطع على سطح أحد المشاهد الطبيعية التي تتكون من مسحوق من الملح المخلوط بالصلصال مع قليل من المواد الكلسية. (المؤلف).

(٢) طبقا لهذه الحسابات لم تكن مصر راضية أو قانعة بأن يتم تجاوزها في ذلك، أو أن تعوزها الحيلة عن مواكبة ما أسلفنا ذكره: ولقد تم على الضفة اليمنى من نهر النيل تشييد المسجد السامي الذي يطلق عليه (آثار النبي) والذي يحج إليه سكان القاهرة بغرض التبرك بالأثر الذي خلفته أقدام محمد (صلى الله عليه وسلم) . وقد كان لدى الشيخ القائم على أمر هذا المسجد صلاحية التأكيد الجازم لقدسيته، إضافة إلى نشر القدسية الخاصة بهذا النصب في شكل فتوى تعمم بالخارج. ومع ذلك فإنه، ولكي يعتقد الشخص ويصدق بأن هذه هي آثار أقدام الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند مشاهدته لأحد الحجارة المتنقلة التي بللت بالعطور، فإن هذا الأمر تطلب أن يكون هذا الشخص قد حظي بقدر كبير من العقيدة وقوة الإيمان. - عن (تاريخ الحملة الفرنسية على مصر)، لكاتبه إم . إكس . بي . سانتين- ص ٤٦١ - باريس - ١٨٣٠م. (المؤلف).

والحدائق نفسها منظراً ريفياً مجتمعاً ومتكاملاً يندر للغاية أن يمر به الشخص في الجزيرة العربية.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان هنالك مشهد غاية في الصفاء، ألا وهو ذلك الخاص بقنوات مياه الأمطار التي تتحدر إلى أسفل من سلسلة الجبال المتشابكة التي تحيط بمدينة الطائف في طريقها إلى السهل، والتي تقوم حتى في بعض الأحيان بخلق جزيرة في تلك المدينة. ويتدفق أحد تلك الجداول السريعة الجريان منحدراً صوب مكة، كما يقوم الآخر بدفن نفسه في الأرض المحيطة بالمدينة. أما الثالث الذي يواصل سيره جنوباً فيقع على جانب الطريق الذي سوف نسلكه ليقودنا مباشرة إلى عسير.

أثناء عودتنا إلى مخيمنا شاهدنا عند بداية (مطمن الغزال) أحد الأواني الحجرية التي نقشت عليها باللغة العربية القصة الخاصة بمعجزة الغزالة. ويزعم بعض المسلمين أن الكتابة الأصلية كانت بخط محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه[1]، في الوقت الذي يردها فيه آخرون - وعلى العكس من ذلك تماماً - إلى ناسك ورع. إن هذا الحجر المنقوش على وجه التحديد متحرك وغير ثابت، ولذلك فإني أعتقد أن بالإمكان نقله بعيداً، وبناء على ترتيب مسبق يكون قد جرى مع الشيخ الذي يمكن أن يستبدله بآخر مقابل بعض القطع الذهبية.

ما زال متبقياً أمامنا مهمة زيارة قرية (إلهي) (المواجهة) الواقعة على بعد مسيرة راكبة لمدة حوالي نصف ساعة إلى الشمال من الطائف. وقد كان

---

(١) نحن المسلمين نعتقد جازمين طبقاً للنص القرآني الكريم أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان أمياً. (المترجم).

الطريق الذي يقود إليها يتعرض مخترقاً بصورة مباشرة لأحد الأودية المجدبة التي تحفها قطع الحصى البلورية أو الصخور الضخمة. وقد بنيت قرية (إلهي) هذه (من الحجارة) بالطين فقط.

أما بالنسبة لضواحيها فقد تمت زراعتها بطريقة ممتازة، وتم تخطيطها في شكل حدائق. وقد كانت التربة في رأيي أكثر خصوبة من تلك الواقعة إلى الجنوب. أما بالنسبة لمخلفات الحصاد التي تغطي تلك الأجزاء فقد بدا جلياً منها أنه كان هناك ترتيب لزراعة كل من الجاودار والذرة هناك.

وقد بدا العديد من الفلاحين منهمكين في تنظيف الأرض وإعدادها للحراثة، وذلك بغرض إيجاد مساحات واسعة لعملياتهم الزراعية.

وبما أنني كنت قد شاهدت قبل قليل المنطقة المحيطة بمدينة الطائف فقد صرت أسلي نفسي وأنا أجلس وسط الأطلال شبه المحيطة، بتركيز نظري على هذا النشاط المتجدد لدى عمال الفلاحة بقرية (إلهي). وقد وصل السهل إلى نهايته، حيث كانت تغطيه طبقة كثيفة من الرمال، التي عندما تشاهدها من بعيد تمثل بالنسبة لك إحدى الأشياء التي يمكن تصورها نوعاً من السراب.

تشكل الممتلكات العقارية الخاصة بكل من الشريف الكبير محمد بن عون وتلك الخاصة بأخيه (هزاع) بن عون عبد المعين قرية منفصلة وحدها، تقع على بعد مسيرة راكبة بحوالي عشرين دقيقة من الطائف باتجاه أقصى الشمال الشرقي.

وتعد (الحامل)، كما يطلق عليها العرب، محاطة كلياً بالحقول والمزروعات والسهول ذات الأرضية المنبسطة، وقد تم تشييد أحد السدود

الذي يبلغ طوله (٣٠٠) خطوة وعرضه حوالي (٥٠٠) قدم لكي يقوم بحفظ المياه المنسابة من أحد الوديان بغرض استخدامها في عمليات ري المزروعات. وقد تم أيضاً تشييد قناة يتراوح عرضها بين ١٠و١٢ خطوة حتى يمكن تحويل أي كمية من المياه الزائدة على متطلبات الري وتصريفها إلى الأراضي القاحلة التي تقع إلى الأسفل من هذا المستوى.

وقد وفرت أعمال المباني هذه فرصاً هائلة للعمالة، وخصوصاً أنها كانت الأضخم من نوعها في المنطقة المحيطة بمدينة الطائف.

كان هزاع بن عون بن عبد المعين شخصاً بغيضاً، وكانت جل قناعته تكمن في العزلة التامة عن الناس. وهناك العديد من الناس الذين يدعون بأن قدراته الذهنية كانت تافهة ومتدنية. وأيا كان ذلك فقد كانت روح المرح التي لديه جعلته يقوم بتوسيع أفقه عن طريق توسيع المنزل الذي يقطن فيه بوضعه على قمة إحدى التلال ذات الشكل المخروطي التي تصادف اشتمالها على الصخور المشفهة والشديدة الانحدار الواقعة في الأسفل.

وعندما كان يصل إلى حالة يضيق فيها ذرعاً بهذا المسكن الرائع كان ينزل إلى الحدائق التي تحيط بمسكنه المعزول، حيث يقوم بإقحام نفسه في الشؤون الخاصة بالأعمال اليومية لعالمه الخسيس القذر. ويقوم هذا الرجل المعزول والذي يعشق الملذات بإغلاق نفسه مع حريمه، حيث يكون على الأقل مستتراً وراء أغصان الأشجار وأوراق أشجار الكرم، ومن ثم فلن يكون لديه علم، بأية حال بما يجري بداخلها حيث إن هذا النوع من الخصيان يعدون من الرجال الذين يمتلكون أحاسيس هائلة من التحفظ وكتمان السر.

ومن وجهة نظري فإن أقصى ما أستطيع تأكيده هو أنه، طبقاً للشهادات

السمعية المحلية، كان ذلك المنزل الريفي الواقع بالحديقة والذي أقف فيه الآن، هو في واقع الأمر يعد غرفة انتظار للاستحمام، وأنه كان ذا منظر جذاب، وعلى طريقة نصفها هندي والنصف الآخر عربي، وإنني أستميحكم عذراً لأن آداب اللياقة في المجتمع المسلم قد حالت دون اقترابي أكثر من ذلك المكان.

عند اقتراب موعد الظهيرة، كما يحلو لنا في أوربا أن نقول، استمتعنا باحتساء كوب من القهوة قبل أن نغادر المكان. وقد قام طباخنا بإحضار وجبتنا إلينا في طبق على شكل سلة مصنوعة من الجلد السميك. وتعد هذه السلة من الأصول المفيدة والمهمة بحق لدرجة أنه يكون مطلوباً من كل المسافرين، وفي كل الأوقات، أن يكون لديهم واحدة منها ضمن أمتعتهم. وهي تتكون من قطعة دائرية كبيرة من هذا الجلد المدبوغ قطرها حوالي قدمين، وتعلق بكل أطرافها بعض المشابك النحاسية التي يتدلى منها القيطان.

وعليه فإنها عند جذبها بقوة تقوم بتشكيل طاولة، وعند ضغط مشابكها فإنها تقوم في هذه المرة بتكوين جراب حقيقي يمكن أن تضع بداخله كل مستلزماتك من المواد الغذائية، ولاحقاً تمكنا من ربطه بطريقة محكمة على الجزء الأمامي من سروجنا بجانب الزمزمية[1].

"تعد حياة الإنسان هي الأهمية الأساسية من بين كل ظروف الحياة المتشعبة التي تتم فيها المخاطرة بذلك (صرح بريلات سافارين) وأن من أكثر اللحظات سعادة دون شك هي لحظة التوقف التي تلي رحلة الصيد

(١) هي عبارة عن قارورة من الجلد تستعمل وعاءً لحمل المياه. (المؤلف).

التي يقوم بها المرء، ومن بين كل التجارب المختصرة والمعروفة تكون هناك فترة الراحة التي تجيء مرة أخرى بعد رحلة الصيد هذه والتي يمكن تمديدها دون الإصابة بالكلل والإعياء.

وينطبق ذلك بصورة مشابهة تماماً وبكل تأكيد على كل أنواع فترات الراحة والاستجمام التي يكون قد سبقها مجهود شاق وعنيف، وفوق كل هذا وذاك فإنه يعد ممكناً - في شبه الجزيرة العربية بالذات - التأكيد على الدقة المطلقة لذلك الافتراض. وبالنسبة لنا فقد شكل مكان الراحة تحت ظلال تلك الأشجار الوارفة نوعاً من الإغراء والقناعة بداخلنا لدرجة أنه لم يكن لدينا أية نية في ترك هذه النقطة خلفنا ومغادرتها راحلين عنها إلا بعد أن يجبرنا هبوط الظلام على ذلك.

لقد سرني أحياناً وأعجبني صفاء السماء ونقاؤها في تلك البلاد، وسواء كان ذلك فوق البحر الأحمر أو فوق اليابسة، وإنني أعتقد وبكل جدية أنه سيكون من المستحيل المرور بأي مكان آخر أكثر جاذبية وتعبيراً، ومع ذلك أستطيع أن أجزم بأن السماء الصافية أثناء الليل فوق مدينة الطائف قد بدت بالنسبة لي وهي تضيء بذلك بكل اقتدار وكفاءة. وقد كنت أقرأ فعلاً، وبكل سهولة ويسر، تحت ضوء القمر، يجب ألا يدهش ذلك أحداً لأنه شيء كان يتم حتى في بلداننا الغربية.

ومع ذلك فإن الشيء الذي كان من الصعب علينا تخيله كان بكل تأكيد أنه مع بقائي مغلقاً كلية بداخل خيمتي، المشيدة من طبقة من القماش السميك والمزدوج، فقد كنت ما زلت قادراً على قراءة سورة الفاتحة من القرآن الكريم. والسبب الذي يمكن، وبكل دقة، أن تعزى إليه تلك الشفافية

المدهشة لسمائهم، وفي قلب هذه الجبال، يكمن دون شك في الصفاء والنقاء المطلق للجو الذي يعد خالياً تماماً من الضباب وعمليات التبخر القادمة من المحيطات كتلك التي تتأثر بها الأراضي الواقعة على امتداد السواحل.

ولا يعد (مطمن الغزالة) المكان الوحيد الذي حدثت فيه معجزة في السابق. فبالإضافة إلى ذلك يعتقد المسلمون أن بمقدور المسافرين، في أي وقت من الأوقات، أن يشاهدوا حدثاً عجيباً إذا كان لديهم الاستعداد لبذل المزيد من الجهد في السير قدماً لزيارة الآبار الواقعة على بعد مسيرة راكبة تقدر بحوالي ساعة ونصف الساعة من مدينة الطائف نفسها. وهذه الآبار، كما يؤكدون لك، تكون عادةً جافة كالصحراء، ومع ذلك عند قيام أحد المؤمنين بإلقاء حجر بداخلها وترديده لبعض الابتهالات، يمكنه حينذاك أن يشاهد المياه وهي تنبع إلى أعلى وتفور في كل أرجاء المكان.

وإن المرء ليخجل من القيام بتدوين مثل هذا التقرير المقتضب بشأن هذه المعتقدات السخيفة. ورغم ذلك فإنه عندما يقوم بتوضيح وشرح العادات والأساليب الغريبة التي يتميز بها بعض الناس يجد أن من واجبه تقديم الحقيقة للقارئ إضافة إلى إبدائه الاهتمام بالأشياء التي تستحق النقد أو الإطراء، كل على حدة.

كانت كل واحدة من الأماكن التي كنا نتحدث عنها قبل قليل مقطونة بواسطة أفراد قبيلة ثقيف، وقد اعتادت هذه القبيلة على توطين نفسها على كسب عيشها من خلال القيام بأعمال الزراعة والرعي.

وقد شكل انعدام الخيول - إضافة إلى عدم وفرة الجمال لديهم،

بالمقارنة مع عدم وجود تلك الرقعة المغرية من الأراضي الخصبة - سبباً لحملهم على إعادة النظر في أسلوب حياتهم السابق الذي كان يتميز بالبداوة. وتعد قبيلة ثقيف من القبائل المشهورة في سجل التاريخ القديم للجزيرة العربية، ولقد شاهدنا كيف أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) قد عانى مصاعب جمة في حملهم على الإيمان برسالته ومن الأفضل أن نقوم بالتمييز بين ثقيف المستقرة وثقيف غير المستقرة، فقد كان بمقدور الأولى أن تقوم بحشد (٤,٠٠٠) مقاتل تحت السلاح[1] أما الأخيرة فيمكنها حشد حوالي (٥٠٠) فقط.

أما بالنسبة لغزو الوهابيين فقد قاوموهم بكل عنف في بادئ الأمر، لكنهم قد استسلموا كليةً في نهاية المطاف لمصيرهم، وقام عدد كبير منهم باعتناق معتقد من هزموهم.

وكان كل الذين أتيحت لي فرصة مشاهدتهم قد امتنعوا عن التدخين أو

(١) قبائل ثقيف الأساسية ، كما يقول بوركهارت ، هي من بني سفيان الذين أمضوا طيلة حياتهم في البداوة ، وهؤلاء بمقدورهم حشد حوالي خمسمائة مقاتل. وتقطن وسط بني ثقيف اثنتان من القبائل الصغيرة وهما (بنو النضير) و(بنو ربيعة)، ويبدو عليهم أنهم يحظون باهتماماتهم العامة نفسها، مع أني أشك في مدى مشاركتهم بكل أحاسيسهم ومشاعرهم في حياة البداوة والترحال. وهناك (بنو ربيعة) الذين قام أفراد قبيلتهم، عند هجرتهم بالاستيطان بالجزء الأكبر من منطقة النوبة، والذين يعد أحفادهم هم الكنوز الذين يطلق عليهم اسم البرابرة، ويقطنون مصر العليا (على أعالي نهر النيل فوق الشلال الأول). وبمقدور ثقيف القيام بحشد (٢,٠٠٠) جندي راجل تحت السلاح (رحلة بوركهارت في شبه الجزيرة العربية) صفحة (٣١٢) المجلد الأول لمؤلفه م . ايريس - هل كان هذا المسافر يحصر بنفسه عندما قام بإحصاء عدد البدو المقاتلين، والقادرين على حمل السلاح بهؤلاء الألفي الرجل؟ لا يبدو ذلك واضحاً من خلال روايته لكنه إذا كان يقصد ذلك على وجه التحديد فلا بد أنه قد أخطأ في ذلك.(المؤلف).

شرب القهوة، كما كانوا يشيحون بوجوههم بعيداً عندما تقدم لهم فناجيل الأخيرة أو الغليون وذلك بمحض إرادتهم. أما الزي الذي يرتدونه فهو مماثل كثيرًا لذلك الزي الذي يرتديه البدو بمنطقة تهامة، والاستثناء الوحيد هو حملهم مسدساً صغيراً يعلقونه على خاصرتهم بدلاً من الخنجر.

أما بالنسبة للنساء البدويات فيلبسن - شأنهن شأن نساء الطائف- خماراً مع طرحة ضخمة زرقاء اللون ملتصقة برؤوسهن. وهن سمراوات اللون كبنات القبائل القاطنة بالقرب من مدينة جدة، لكنهن أكثر جمالاً وقد بدون لي أقل خداعاً وأقل أنانيةً. أما بالنسبة لأزواجهن فقد كانوا - ودون أدنى تمييز بالنسبة لوضعهم الاجتماعي- أكثر جشعاً.

ولم يقم غرورهم واعتزازهم بأنفسهم بالحيلولة قط دون اقترابهم منا في كل المناسبات لطلب المؤن أو الأموال، وحتى في هذه الحالات فهم لا يعتقدون على الإطلاق أنهم يذلون أنفسهم عند تصرفهم بهذه الطريقة، بل إن طريقتهم في المخاطبة والسؤال في هذه الظروف تبدو أكثر شبهاً بأسلوب الشخص الدائن منها بأسلوب الشحاذ المتوسل.

أما بالنسبة للشيوخ، وبالذات أولئك الذين يعدون أكثر أهمية ورفعة، فإن سياستهم هي عدم طلب الصدقات من كل من هب ودب من زوار الآبار دون التمييز لرتبته ومكانته، وإنما يرجؤون طلب هذه الصدقات، والذي يعدونه نوعاً من رد الجميل والتكريم بحيث لا يتقدمون به إلا للشخصيات الأكثر أهمية ورفعةً، وزيادة على ذلك فإنه عند تقديم أية هدية لهم فإنه يندر للغاية ألا يعودوا إليك في اليوم التالي بغرض محاولة الحصول على أخرى جديدة.

وفي حالة رفضنا ذلك كانت تبدو عليهم علامات الغضب والحنق الشديد وكأن كل الذي يطلبونه منا لا يعدو أن يكون سوى شيء مملوك لهم.

عند قيام الجيش الموجود هنا بإكمال كل مراسم الحج توجه في طريقه إلى الطائف ، وقد كانت المعاناة والمصاعب التي واجهتهم أثناء شقهم لطريقهم عبر جبل (كرا) هي الأكثر إحباطاً لغالبية أولئك الجند. فقد استشرت الأمراض بينهم بطريقة واسعة، حيث قوبلت بمساعدات طبية غير فعالة، لأنها كانت قد أسندت للوحدات التي يشرف عليها الأطباء العرب الذين كانوا هم الوحيدين المسموح لهم بمرافقتهم خلال رحلتهم عبر الأماكن المقدسة.

وبمجرد إحاطة السيد / شديفو علماً بما آلت إليه الحال قام بإرسال فريق من الأطباء الأوربيين إلى مخيماتهم إضافة إلى صيدلية[1]، وقد علم أولئك الرجال بأنني أقوم بتجميع مذكراتي بغية القيام بنشرها لاحقاً، وقد قاموا عن طيب خاطر بتزويدي بملاحظاتهم، وعليه فإن الفضل يعود إلى عطفهم الذي حبوني به، والذي مكنني من تقديم هذه التقارير التي سيقوم قرائي بالاطلاع عليها.

عند مغادرة الطائف قام هؤلاء الرجال بشق طريقهم عبر سلسلة لا حصر لها من الجبال التي كانت تشكل مكاناً مجدباً ومخيفاً، ولم يتم إلا بعد أن أمضوا مدة ساعة من الزمان وهم على هذا الحال من الإجهاد وسط هذا المشهد من الأرض المجدبة والمقفرة، حتى بدت تلوح لناظرهم بعد ذلك العديد من الحقول المزروعة. وبعد أن مروا بتلك الواحة الصغيرة

---

(١) هؤلاء السادة هم م.م. ماروشي وأنادراجي اللذين أشرت إليهما سلفاً في المقدمة (المؤلف).

دخلوا (وادي محرم) الذي أطلق عليه ذلك الاسم، لأنه يقع في ذلك الوادي نفسه الذي يقوم كل الحجاج القادمين إلى مكة بتغيير ملابسهم فيه (يقومون بارتداء الإحرام) طبقاً لما تقضي به شعائر المسلمين.

وقد كان هذا الموقع على وجه التحديد مزروعاً، وعلى الجانب الأيمن شاهدنا قرية صغيرة كانت تقع على منحدر أحد الجبال، وكانت أجزاؤها السفلى قد غسلت ببعض الينابيع من المياه الضعيفة إلى حد ما.

وبعد ربع ساعة قام زملائي بالبدء في تسلق أحد التلال الذي يطلق عليه اسم (حمراء)[١]، وعند وصولهم إلى القمة اكتشفوا أحد السهول الواسعة والضخمة التي تمتد أمامهم، والتي تسمى (الهدا)[٢]، ويشير مجرد الاسم هنا إلى الهدوء والسكينة.

وقد قام الناس هنا باستغلال هذا الاسم بصورة جيدة كتعريف للمكان الهادئ والآمن الذي يتمتعون به على تلك الأرض المنعزلة والمنبسطة، بل ربما كان هناك بعض التلميح أو الإشارة من وراء ذلك إلى الاستجمام والراحة اللذين نقضيهما هناك بعد القيام بصعود شاق لتلك المنحدرات

(١) طبقاً لرواية بوركهارت فإن صخور هذا الجبل تتشكل بصورة تامة من الجرانيت. (المؤلف).

(٢) أطلق بوركهارت على هذا المكان تحديداً عبارة (رأس الكورة). ويبدو أن المناظر المحيطة بالمكان كانت ، في الوقت الذي قام فيه مكتشفنا برحلته، أكثر جاذبية وجمالاً مما هي عليه اليوم حيث قال : "كانت قرية رأس الكورة والمناطق المحيطة بها هي أكثر المناطق جمالاً وسروراً في كل أراضي الحجاز. وقد كانت تشع بأحلى المناظر التي شاهدتها أو مررت بها منذ أن غادرت لبنان في سوريا . لقد كانت قمة جبل كرا مسطحةً لكنها كانت مغطاة بصخور ضخمة وسميكة من الجرانيت السوداء بفعل الشمس وهي تشبه تلك الصخور المعلقة فوق الشلال الثاني من نهر النيل". - رحلة في بلاد العرب - الجزء الأول - ص ٨٦ - ٨٧ . (المؤلف).

الشاهقة التي تقودنا إلى هناك في بادئ الأمر. ومنطقة الهدا مزروعة بالطريقة نفسها التي عليها الطائف، لكن أشجار الفاكهة تزدهر هناك وتنمو بقوة، وتصبح أكثر شموخاً.

وقد تم شطر هذا السهل ببعض القمم من الجبال القاحلة، وقد كانت منازل الرجال القائمين بمهمة الزراعة مشيدة عند أسفل منحدراتها[١].

درجات الحرارة:

- في الصباح، عند شروق الشمس، سجل ترمومتر رومير ١٣ْ.
- درجة الحراراة في زمزميتنا توقفت عند ١٥ْ.

القراءة عند منتصف النهار:

١) في الظل ٢٥ْ.

٢) تحت وهج الشمس ٤٣ْ.

- بعد ساعة وعشر دقائق من شروق الشمس سجل مقياس الحرارة ١٧ْ.
- سجلت درجة حرارة المياه في (زمزمياتنا) ١٢ْ.

ينتمي البدو الذين يقطنون هذا السهل إلى قبيلة ثقيف[٢]. أما بالنسبة للمنحدرات الغربية فتقطنها قبيلة هذيل التي مررنا بها سابقاً خلال رحلتنا

---

(١) عند الطرف الأسفل لتلك الجبال تظهر إحدى القمم التي يطلق عليها اسم (نخل الحمر) وقد قام بوركهارت بتقدير ارتفاعها بما يتراوح بين ٤٠٠ و٥٠٠ قدم فوق السهل. بوركهارت - الجزء الأول، ص ٨٦. (المؤلف).

(٢) كان هذا الموقع مملوكاً، خلال فترة بوركهارت، للبدو من قبيلة (هذيل) وحتى الآن لم يتغير فيه شيء سوى خط ترسيم الحدود على خريطة الجزيرة العربية. راجع بوركهارت - رحلة في بلاد العرب - الجزء الأول، ص ٨٧. (المؤلف).

ونحن قـادمـون من السـاحل. وهم لا يشـتـغلون بـالزراعـة، وبدلاً مـن ذلك يكتفون بإيجاد المرعى الملائم لإبلهم[1].

وهنا لاحظ صديقانا أحد الطيور ذات المنقار الأحمر وكان جسمه مخططاً باللون الأبيض والأسود والأخضر ويطلق عليه العرب اسم (قهابا). ويقوم أهالي الهدا باتخاذ وقود نيرانهم من لحاء الأشجار، وهي مادة غاية في الصلابة، وتعرف محلياً باسم (ضرم). وبالنسبة للشخص الراجل فإن الأمر يتطلب منه خمس ساعات لإنجاز مهمة الهبوط من أعلى نقطة في قمة السهل إلى أسفل الجبل.

وبعد انقضاء ثلاث ساعات سوف يجد نفسه عند (وادي الكر) أثناء سيره، وهو عبارة ممر ضيق يشق تلك السلسلة الضخمة من الجبال المنحدرة بصورة عرضية، وقبل أن نبدأ بالاستعداد للهبوط كان أصدقاؤنا يمرحون وسط مشاهد تلك البانوراما العجيبة التي يمكن تخيلها على النحو الآتي:

إنها قد امتدت عند سفوحها كل تلك الأماكن المليئة بكل من الذكريات العقدية والتاريخية التي أحاطت بضواحي مكة والتي ترتبط بعضها مع بعض بوشاح موروث ولا ينفصم من التقاليد والعادات الاجتماعية، بدءاً من

(١) من خلال التقارير العربية فإن هذه السلسلة من الجبال تحديداً، والتي تنتشر حتى أقصى الجنوب حتى تصل الأرياف التي تبدأ فيها المزارع المملوكة لمزارعي البن، تتخللها من حين لآخر الوديان التي تبدو خصبة إلى درجة ما لكنها تكون مفصولة بعضها عن بعض بمناطق أكثر جذباً وقاحلة، وتتكون من الصخور "بوركهارت - الجزء الأول - ص - ٩١ . وهذا التقرير يتطابق على وجه الدقة مع معلوماتي الخاصة : وقد وجدت ضمن مذكراتي أن هذه السلسلة من الجبال تصل إلى نهايتها عند (صعدة) الواقعة بين خط عرض جيزان وذلك الخاص بمدينة أبو عريش. (المؤلف).

إسماعيل وإبراهيم، ووصولاً إلى تلك الرسالة الإلهية التي غزت العالم من خلال رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم).

أما من الهدا فإن جبال تهامة لا تعطي انطباعاً بأنها شاهقة جداً، فهي تبدو كالحديث عن أحد المحيطات في العصور القديمة، والتي - بعد أن كانت في قمة عربدتها - تحولت أمواجها إلى حجارة بفعل تلك القدرة الإلهية نفسها التي قضت بتحويل (زوجة لوتس) إلى نصب من الأعمدة المصنوعة من الملح.

وعند وصولك إلى (وادي الكر) لا ترى شيئاً سوى قممها لأنك سوف تجد نفسك على الارتفاع نفسه[1] وتعود ملكية ذلك الوادي إلى زعيم قبيلة هذيل، ومع ذلك فهم يملكون فقط ثلاثة أو أربعة منازل كانت قد صارت مهجورة. ومن هنا فصاعداً يبدو الهبوط غاية في الانحدار.

وهنا لا تقوم الجمال المحملة بشق طريقها عبره، وإنما تقوم بدلاً من ذلك بشق طريق آخر أكثر سهولة، كان قد تم تشييده بواسطة حسن باشا وهو نوع من الطرق الاستراتيجية التي هدفها الأساسي تنفيذ تحرك سريع وعاجل للرجال إلى قلب مناطق القبائل الثائرة[2].

وكان البدو - الذين لم يتأخروا كثيراً في معرفة أهميته - قد بذلوا محاولة بغرض التخلص منه، وقد استعانوا كثيراً في هذا العمل بالسيول

(١) تتكون السلسلة السفلى من مرتفعات (جبل الكر) من الجرانيت الرمادي، الذي اكتشفت في وسطه كل أنواع الألوان مخلوطة بعضها مع بعض على طبقة من الحجارة والإردواز والصلصال المسحوق، وبالنسبة للأخير فيتم تكسيره كليةً إلى جزيئات صغيرة، تظهر في قمة السلسلة الجبلية بأكملها بعض الصخور الجرانيتية الحمراء مرة أخرى. أما بالنسبة للسطح فقد صار بكامله داكن السواد بفعل أشعة الشمس الحارقة، بوركهارت - الجزء الأول - ص ٨٣. (المؤلف).

(٢) تم تشييد هذا الطريق من كتل من الصخور يتم إلقاؤها الواحدة فوق الأخرى. (المؤلف).

الجارفة التي كانت تتخلله مع كتل الحجارة وأغصان الأشجار. وتمضي الجمال ست ساعات في الهبوط وثماني ساعات في الصعود الفعلي للجبل.

أما بالنسبة للطريق فقد تم إصلاحه بناءً على أوامر أحمد باشا. وأثناء الحروب الأخيرة قام كل طرف بدفن موتاه بين الشقوق والأخاديد الكبيرة الواقعة بين كتل الصخور، وقد تم دفنها بواسطة الحجارة الصلبة من الحصى. وقد سببت تلك الأضرحة - التي تم نصبها بطريقة مسرحية على طول الطريق - غضب كل من العرب والأتراك. وكان الطرف البعيد من الجبال - حيث تم وضعها - أساساً قاحلاً ومجدباً.

ومع ذلك فقد كنا نمر أحيانا ببعض النباتات العطرية ومنها الروزماري(١). وبعض السذاب، وبعض الأجمة من الصفصاف الذي لم يكن يدر بخلدك قط أن تمر بها في هذه المنطقة، لكن هذه الأشجار تنمو في الأجواء الرطبة وتزدهر بجوار ضفاف بعض المستنقعات الخاصة، حيث يقوم البدو بالتسبب في تدفق المياه التي تسيل من المنابع الصخرية(٢).

(١) تجولت في كل أرجاء هذا الريف الجميل لمدة نصف ساعة، وفي اللحظة التي ارتفعت فيها الشمس فوق الأفق وجد كل ساق من سيقان النبات نفسه مبللاً بقطرات عطره من الندى، وكان يفوح من كل شجرة وكل أيكة عطر يماثل في حلاوته وطيبه بالنسبة لحاسة الشم لدى الإنسان ما يمثله منظر الريف من إحساس بالجمال بالنسبة لمرأى الإنسان. وأخيراً توقفنا بسبب وجود أحد الجداول العريضة للغاية في طريقنا، واستطعنا القيام بعبوره فقط في وثبتين والأكثر من ذلك أنه كان يقوم بتوفير الحيوية والخضرة على طول ضفتيه من خلال الحشائش الكثيفة المشابهة لتلك الموجودة بجبال الألب، وهو يعد بالتأكيد أفضل من تلك الموجودة بنهر النيل، لأنهم وبكل ما يحظون به من سخاء بالنسبة لسيولهم الغزيرة من الماء هناك، لم يحدث قط أن عملوا على جعل نموهم جيداً لهذه الدرجة في مصر. (بوركهارت - رحلة في بلاد العرب - الجزء الأول - ص - ٨٧ - ٨٨). (المؤلف).

(٢) لقد صار مجرد توفير الجداول والأنهار في (رأس الكر) من الأشياء المعروفة في تلك المحافظة "بوركهارت - الجزء الأول - ص ٨٨. (المؤلف).

درجات الحرارة:

- سجل مقياس الحرارة في "وادي الكر" عند الساعة ٢,٣٠ خلال الليل ٢٣ْم في اليوم التالي عند وصول أصدقائنا أي بعد نصف ساعة من شروق الشمس ٢٢ْ.

- بعد ساعتين ونصف الساعة من شروق الشمس تحت الظل ٣١ْ.
- بعد ساعتين ونصف الساعة من وهج الشمس ٣٩ْ.
- في منتصف النهار تحت الظل سجلت درجة الحرارة ٣٥ْ.
- في منتصف النهار تحت وهج الشمس سجلت درجة الحرارة ٥٥ْ.
- في منتصف النهار سجلت درجة حرارة المياه النقية (بزمزميتنا)٢٠ْ.

معدل التقدم في السير على الطريق:

- من الطائف إلى الهدا كانت المدة التي حسبتها.	١٠	ساعات
- من الهدا إلى سفح الجبل.	٥	ساعات
- من تلك النقطة إلى مكة.	١٠	ساعات
- إجمالي الوقت:	٢٥	ساعة

وقد قام بوركهارت بتقدير تلك المسافة بالطريقة الآتية، قائلاً:

- إنني أقدر أن تكون المسافة من مكة إلى سفح "جبل الكر" حوالي:	٣٢	ميلاً.
- ومن تلك النقطة إلى القمة حوالي:	١٠	أميال.
- ومن هنا إلى الطائف حوالي:	٣٠	ميلاً.
- ومن ثم يكون إجمالي المسافة:	٧٢	ميلاً.

وقد قال بوركهارت إن قراءة البوصلة للاتجاه بالنسبة للطريق من عرفات إلى الطائف سجلت ما يتراوح تقريباً بين ١٢-١٥ْ باتجاه الجنوب من هناك، كما هو من مكة إلى عرفات. وبما أنني لم أكن أمتلك تلك الآلة فلم يكن بمقدوري توفير أي نوع من القياس بأي شيء يكون قريباً من الدقة.

وسوف أقوم بتلخيص كل ما احتفظت به في ذاكرتي عن هذه المدينة عن طريق تقديم عرض لما رواه (الشريف الإدريسي):

مدينة الطائف مدينة صغيرة متحضرة مياهها عذبة وهواؤها معتدل وفواكهها كثيرة وضياعها متصلة وبها العنب كثير جداً وزبيبها معروف يتجهز به إلى جميع الجهات وأكثر فواكه مكة تصدر عنها وبالطائف تجار مياسير وجل بضاعتهم صنع الأديم وأديمها عالي الجودة رفيع القيمة وبالنعل الطائفي يضرب المثل وهذا مشهور والطائف على ظهر جبل غزوان وعلى ظهر جبل غزوان ديار بني سعد المضروب بهم المثل في كثرة العدد وبه جملة من قبائل هذيل وليس في بلاد الحجاز بأسرها جبل أبرد من رأس هذا الجبل وربما جمد به الماء في الصيف لشدة برده[١].



(١) تم نقل النص الأصلي مباشرة من "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للكاتب محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي الجزء الأول ص ١٤٤-١٤٥ عالم الكتب - بيروت ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م (المترجم).

الكشافات العامة

فهرس الأعـــلام

فهرس الأماكن وما في حكمها

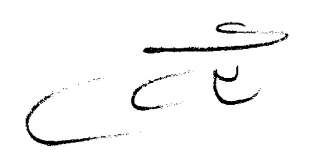
❖ ❖ ❖

❖ ❖

❖



مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الاسلامية




42
43
44
21
20
19
10
l Gorn
Ben. Imba
SSIR